كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

الشهاب محمود الحلبي

حياته ونثره

إعداد

حسن أحمد الذنيبات

١٩٩٥م

الشهاب محمود الحلبي : حياته ونثره

إعداد

حسن أحمد الذنيبات

بكالوريوس لغة عربيّة

الجامعة الأردنية

١٩٧٧م

دبلوم عام في التربية

جامعة موتة

١٩٨٨م

قُدِّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة مؤتة - تخصّص لغة عربية.

إشراف

الدكتور سمير الدروبي

لجنة المناقشة

الدكتور سمير الدّروبي رئيساً

الدكتور صلاح جرّار عضواً

الدكتور رشدي حسن عضواً

تاريخ تقديم الرسالة: ٢١ / ٥ / ١٩٩٥م

تاريخ مناقشة الرسالة: ١٠/ ١٢/ ١٩٩٥م

الإهداء

إلى روح والدي ثمرة من ثمار غرسه.

إلى والدتي محبّةً وثناءً.

إلى زوجتي وأبنائي شكراً وعرفانا.

أهدي هذا العمل المتواضع .

حسن الذنيبات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة	١
- التمهيد	٤
- الحياة السياسيّة	٤
- الحياة الاجتماعيّة	١٥
- الحياة الثقافيّة	١٩
الفصل الأول	٣٠
الشهاب محمود الحلبي، حياته	٣٠
أ- اسمه، ولقبه ، وكنيته	٣٠
ب-مولده، ونشأته	٣٥
جـ-ثقافته	٣٧
د- شيوخه	٤٢
هـ-تلاميذه	٤٤
و- أولاده، وأحفاده	٤٨
ز- وفاته	٥١
الفصل الثاني	٥٣
آثار الشهاب محمود الحلبي	٥٣
كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل ومنزلته بين دساتير دواوين الرسائل الإسلامية.	٥٦
الفصل الثالث	٨٨
الدراسة الموضوعية لنثر محمود الحلبي	٨٨
أولاً:-الرسائل الديوانيّة	٨٨
ثانياً:-كتب الحروب والتهاني	٩٧
ثالثاً:-الرّسائل الإخوانيّة وشبه الرّسْميّة	١٠٤
-كتب التّهاني	١٠٤
-التّعازي	١١٨
-الشفاعات	١٢٣
-أجوبة كتب العيادة	١٢٦
-إظهار الشّوق	١٢٨

الموضوع	الصفحة
-العتاب والاعتذار	١٢٨
رابعاً:-الخواطر التأمّليّة	١٣٣
خامساً:-الطرديّات	١٣٨
سادساً:-الإجازات العلميّة	١٤٢
الفصل الرابع:-	١٤٤
الخصائص الفنيّة لنثر الشهاب محمود الحلبي	١٤٤
-كثرة الجمل الدُّعائيّة، والمعترضة	١٤٤
-الاقتباس والاستشهاد	١٤٨
-سهولة الألفاظ	١٦٠
-السّجع والازدواج	١٦٥
-الجناس	١٧٠
-تضمين بعض مصطلحات النّحو واللغة والفقه والأمثال	١٧٥
-التنويع بين الشّعر والنثر	١٧٩
-الخيال والصّور البيانيّة	١٩١
-الطّباق	١٩٩
-الخاتمة	٢٠٤
-المصادر والمراجع	٢٠٩

المقدّمة

يدور موضوع هذا البحث حول الشهاب محمود الحلبي ونثره، الذي عاش معظم حياته في العصر المملوكي، وعلى وجه الدّقة في الفترة الواقعة بين ٦٤٤هـ-٧٢٥هـ.

شهدت هذه الفترة أحداثاً جساماً في تاريخ الأمّة، كان الشهاب محمود الحلبي من الأعلام الذين تفاعلوا معها، وتأثروا بها، وأثّروا فيها.

لاحظ الباحث قلّة الدراسات القائمة حول أدب هذا العصر، وعدم وجود دراسة متخصّصة في أدب الشهاب محمود الحلبي، كما أن هناك ظاهرة تستدعي النظر والاهتمام وهي جهل الكثيرين من طلبة العلم والدارسين بأدب هذه الفترة وأدبائها، وقد يكون مردُّ ذلك التقسيمات التقليدية للعصور الأدبية التي لم تعط هذه الفترة الاهتمام الكافي، وقد يكون لغياب العنصر العربي عن مركز القيادة في هذه الفترة أثر في ذلك، وربمّا جمع بعض الدارسين بين هذا العصر والعصر الذي يليه وخرج بانطباع واحد عن هذه الفترة.

تهيأ لهذا البحث عدد من الدراسات الحديثة حول أدب هذه الفترة، كان منها : دراسة الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه «الأدب في العصر المملوكي»، وكان نصيب الشهاب محمود الحلبي منها يسيراً، لا يتجاوز ترجمة موجزة لحياته، وإيراد عدد من أبياته وسطور من نثره، ومن هذه الدراسات دراسة محمود رزق سليم في كتابه «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي» وهي أوسع من سابقتها. إلاّ أنها لم تكن دراسة تحليلية، ولم ينل الشهاب محمود الحلبي الاهتمام الكافي من هذه الدراسة، لأنها استهدفت العصر بمجمله، وأشار محمود رزق سليم إلى بعض خصائص الشهاب محمود الحلبي الفنيّة، وأورد نماذج من رسائله وكتاباته. ومن هذه الدراسات: دراسة عمر موسى باشا في كتابه «أدب الدول المتتابعة» وهي دراسة استهدفت الفترة بكاملها، ولم يتوقّف فيها عند الشهاب محمود الحلبي طويلاً، واكتفى بترجمة

سريعة له، وأورد بعض أشعاره وسطوراً من نثره، دون أن يستقصي أغراضه الشعرية ومضامين رسائله النثرية. إن الدراسات السابقة لم تكن دراسات متخصّصة بأديب أو بغرض من الأغراض الشعرية أو النثرية، وإنّما دراسات تناولت أدب العصر بمجمله.

تتكون هذه الدراسة من تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، خُصِّصَ التمهيد لدراسة الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا العصر. تناولت الدراسة في الناحية السياسية الأحداث المهمّة التي تمّت في عهد السلاطين الذين ارتبط الشهاب محمود الحلبي بهم ومعهم بروابط متينة، مثل: الظاهر بيبرس والسلطان منصور قلاوون، والأشرف خليل، وأبي الفداء الملك المؤيّد.

وتناولت في الناحية الاجتماعية: الطبقات وركّزت على الطبقة الحاكمة، وطبقة عامة الشعب. وبيّنت الدراسة في الناحية الثقافية مكانة العلماء عند السلاطين، ودور المدارس والمساجد في نشر العلم والمعرفة، وأشارت إلى أساليب المدّرسين وإلى الإجازات العلميّة التي عرفت في هذا العصر.

ووضّحت هذه الدراسة أنّ هذا العصر – على الرغم مما قيل عنه – كان عصر نهضة علميّة، تميّز بكثرة المؤلفات والموسوعات في جُلِّ العلوم والفنون، وبيّنت أن هذا العصر شهد نقل الخلافة العباسيّة من بغداد إلى القاهرة، وشهد تطهير البلاد من الغزوين الصليبي والتتري، على الرغم من كثرة الفتن والنزاعات بين المماليك أنفسهم، واستمر حكمهم ما يقارب قرناً ونصف القرن، تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطاناً.

تناولت الدراسة في الفصل الأول حياة الشهاب محمود الحلبي، فوقفت عند اسمه واسم والده، وألقابه وكنيته ومولده ونشأته وثقافته وأشياخه وأولاده وأحفاده وأشهر تلاميذه، وأبرزت مكانة الأسرة بخاصة في الكتابة الديوانية.

وتناولت الدراسة في الفصل الثاني آثار الشهاب محمود الحلبي الأدبيّة، وأولت كتابه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» اهتمامها وعنايتها وبيّنت

تأثره بعبد الحميد الكاتب وابن منجب الصيرفي في كتابه «قانون ديوان الرسائل» وبابن الأثير في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

وفي الفصل الثالث تناولت الفنون النثرية وتم تصنيفها إلى :

- الرسائل الديوانية والرسائل الحربيّة ورسائل التهاني بالفتوح والرسائل الإخوانية وشبه الرسمية بأنواعها ومناسباتها المتعدّدة، والخواطر التأملية ورسائل الطرديات والإجازات العلميّة.

وتناولت الدراسة في الفصل الرابع الخصائص الفنيّة واللغويّة لنثر الشهاب محمود الحلبيّ.

وفي الخاتمة: تمّ رصد أهم نتائج هذا البحث.

تعدّدت مصادر هذا البحث وكان من أهمها كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي (ت٨٢١هـ) الذي يعّد المصدر الرئيس لرسائل الشهاب محمود الحلبي، إلى جانب كتابه «حسن التوسل في صناعة الترسل».

ومن مصادره كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (ت٧٦٣هـ)، وكتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري (ت٧٤٩هـ)، ومما زاد في أهمية هذين المصدرين الأخيرين أنّ صاحبيهما يُعدّان من تلاميذ الشهاب محمود الحلبي، ومن مصادر هذا البحث «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير (ت٦٣٧هـ)، ومما زاد في أهميّة هذا المصدر أنه يُعَدُّ مصدراً من مصادر كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» للشهاب محمود الحلبي.

وواجه الباحث في هذه الدراسة عدّة صعوبات، منها: قلّة المصادر، وتداخل موضوعات الرسائل بخاصة الرسميّة والإخوانيّة.

التمهيد

الحياة السياسيّة

تعدّ سنة ٥٨٩هـ بداية تحوّل في تاريخ دولة الأيّوبيّين، وبداية تشتّت الوحدة الكبرى التي أقامها صلاح الدين الأيوبي.

في هذه السنة تُوفّي صلاح الدين بدمشق، وملك ابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي بعده دمشق وما حولها، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها، واستقرّ ملكه بها، وولده الظاهر غازي بحلب، فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها، وكانت بلاد الكرك والشوبك وبلاد جعبر للعادل بن صلاح الدين الأيوبي، وكانت المملكة الحلبية لابنه الظاهر غازي غياث الدين، وبلدان كثيرة قاطع الفرات وحماة ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي، وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه، واليمن للملك ظهير الدين سيف الإسلام طُغتكين بن أيوب(١).

دبّ الخلاف بين الأفضل والعزيز، وأشار الوزير ضياء الدين بن الأثير على الأفضل بطرد أمراء أبيه، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر، وفي مصر أشار الأمراء على العزيز بالاستقلال بالسلطة، وعزل أخيه نور الدين علي في الشام، استمرّ الخلاف والنزاع إلى أن تمّ الاتّفاق على العادل حسماً للخلافات، وكان العدوّ الصليبي يتربّص بهم(٢).

عاد الخلاف ودبّ بين أبناء العادل، فأرسل الأمراء إلى الصالح أيوب،

---

(١) ابن الأثير، علي بن محمّد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني(ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ١٠: ٢٢٥-٢٢٦؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد ملحم وآخرين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ١٣: ٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧:١٣؛ باشا، عمر موسى، أدب الدول المتتابعة، ط١، دار الفكر الحديث، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ٤٥.

فوصل إليهم فملكوه، وأقام في الملك عشر سنين، إلا أربعة أشهر، وكانت له إنجازات عظيمة منها: بناء المدارس الأربعة بين القصرين، وتعمير قلعة الروضة، وشراء ألف مملوك، وهو الذي سمّاهم البحريّة، وقد أكثر من شراء الترك وعِتْقهم وتأميرهم، وقام الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام قومته الكبرى في بيع أولئك الأمراء، وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين(١).

وقال بعض الشعراء:

الصَالِحُ المرُتَضَى أيّوبُ أكثَرَ مِنْ ... تُرك بدَوْلَتِهِ ياشَرَّ مَجْلـــوبِ

قَدْ أخذَ اللهُ أيّوباً بِفِعْلَتِـــــهِ ... فالنَّاسُ كُلُّهُمُ في ضرِّ أيّـــوبِ(٢)

اتسمت الفترة الأخيرة من عصر الأيوبيين بالاضطراب، فقد كان السلطان الأيوبي «توران شاه» نجل الملك الصالح نجم الدين أيوب قد اختلف مع مماليك أبيه فعاملهم معاملة قاسية، كما إنه لم يقابل المعروف الذي قدّمته له شجرة الدّر أرملة أبيه بالاحترام والتقدير، بل أساء لها، فقد أخفت خبر وفاة أبيه كي تحفظ له حقه في الحكم عندما كان بعيداً في حصن كيفا من أعمال الموصل(٣).

تضافرت عدة عوامل أدّت إلى انتهاء دولة الأيوبيين منها: تكالب الأعداء من الخارج من صليبيين وأعوانهم، ومنها النزاعات والخلافات بين الأيوبيين أنفسهم، ومنها استكثارهم من شراء المماليك الذين كانوا هم السبب المباشر في انتهاء دولتهم، ومنها إهمالهم شؤون الرعية، وسوء معاملة مماليكهم للناس، أضف إلى ذلك ضعف وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وقد كان لتفشّي النكبات أثر في ذلك(٤). وعلى الرغم من قصر مدّة حكم الدولة الأيوبيّة، إلا أنها قامت

---

(١) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ٢:٣٤-٣٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢:٣٤-٣٥.

(٣) المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م، ١:٣٤٣؛ باشا عمر موسى، ابن نباتة المصري، دار المعارف، ١٩٦٣، ١٦.

(٤) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، ١٩٧٠، ١٣.

بإنجازات رائعة وكبيرة من أهمها: استرداد بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، وفي ذلك يصوّر ابن الساعاتي القدس مستبشرة بعد النصر في طبرية وحطين، ويشيد بالقائد صلاح الدين، ويدعوه إلى الاستمرار في الجهاد، ويبيّن أنّ ما قام به صلاح الدين الأيوبي جاء محققاً للأماني، وأن ما حققه من نصر قد أرضى مكة المكرمة. يقول:

قَضَيْتَ فَرِيْضَةَ الإِسْلاَمِ مِنْها وَصَدَّقْتَ الأَمانيَ والظُنُونَا

تَهزُّ معَاطِفُ القُدْسِ ابْتِهَاجاً وتُرْضي عَنْكَ مكّةَ والحُجُونَا

فَلو أنّ الجِهَادَ يطيقُ نُطْقاً لنَادَتْكَ ادخُلُوها آمِنِيناً

فألِمْ بالسَّوَاحِلِ فَهيَ صُورٌ إليكَ وألْحِقْ الهَامَ المُتونَا

فَقَلْبُ القُدسِ مَسْرُور ولَولاَ سُطاكَ لكاَن مُكْتَئِباً حزيناً[١]

لقد عدّ ابن الأثير هذه المكرمة ثاني مكرمة بعد مكرمة عمر بن الخطاب في فتح بيت المقدس[٢].

كما عدّ بعض المؤرخين الحركة الأيّوبيّة حركة تطهير ديني، يذكر ذلك ابن واصل واصفاً:«كانوا أعظم ممن تقدّمهم من الملوك شأناً، وأجلهّم سلطاناً، فتح الله بهم القدس الشريف من أيدي الكافرين، وأذلّ بسيوفهم أعناقَ الملحدين، وطهروا الديار المصريّة من بدع الباطنية، وشيّدوا أركان الملّة الحنفيّة»[٣].

المماليك :

يبدأ تاريخ المماليك السياسي بعد قتل الأمراء البحرية ابن أُستاذهم المعظم غيّاث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل أبي بكر نجم الدين أيوب، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين، ثم أخذ الأمراء يتشاورون فاختاروا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركماني، فبايعوه ولقّبوه بالملك، وكان ذلك بتدبير من شجرة الدر أم خليل، والتي دامت مدّة حكمها ثلاثة أشهر،

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي (ت٦٩٧هـ)، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق:جمال شيال، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م، ١٩٨:٢؛ عبدالمهدي، عبدالجليل حسن، بيت المقدس، دار البشير، ١٩٨٩م، ٦٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٥٨:١٠.

(٣) ابن واصل، مفرّج الكروب،١.

فقد كانت تُضرب السكة باسمها، والعلامة على المناشير، وخطب لها على المنابر[1]. وكانت ذات عقل وحزم، وكانت قارئة كاتبة، تتصف بسداد الرأي والحكمة، وكان حكمها في مصر والشام، وما عرف مثل ذلك من قبل في تاريخ العرب إلا في عهد زنوبيا قديماً[2].

وعندما ماتت رموها في الخندق الذي وراء القلعة، واستمرت على هذه الحال ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى المدرسة بجوار بيت الخليفة فدفنت هناك[3].

ويمكن القول: إنّ تاريخ المماليك في مصر كان قبل دولة الفاطميين، فيذكر القلقشندي أن أحمد بن طولون -أول من ولي ملك مصر قبل دولة الفاطميين، والذي عظمت نيابة مصر في عهده وشمخت- كان أول من جلب المماليك الأتراك إلى مصر واستخدمهم في عسكرها[4].

ولا بد من أن نتوقّف عند السلطان توران شاه، الذي قام بمحاربة الفرنج عندما ازداد خطرهم، فهزمهم في معركة «فارسكور» و«المنصورة»، وقد أُسِرَ لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ، وسجن في دار ابن لقمان ووكل أمر حراسته إلى الطواشي صبيح الفاطمي، وظل في سجنه إلى أن افتدى نفسه بالمال، ثم خطر بباله أن يعود لغزو مصر في عهد المنصور بن عزالدين بن أيبك، فبعث إليه المنصور رقعة يهدّده فيها، وفيها أبيات ساخرة لابن مطروح:

قُلْ للفَرنْسِيس إذا جِئتَه ... مَقَالَ نُصْحٍ مِنْ قَوُولٍ فَصيحْ
آجَركَ اللهُ عَلى مَا جَرَى ... مِنْ قَتْلِ عُبّادِ يَسُوع المَسيحْ
أتَيْتَ مِصْرَ تَبْتَغِي مُلْكَهَا ... تَحْسَبُ أنّ الزَمْرَ يا طَبلُ رِيحْ
فَسَاقَكَ الحَيْنُ إلى عَسْكَر ... ضَاقَ بِهِ عن نَاظرِيْكَ الفَسيحْ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ١٩١.

(٢) باشا عمر موسى، أدب الدول المتتابعة، ٥١.

(٣) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/١٥٢٢م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢هـ/١٩٩٢م، الجزء الأول القسم الأول، ٢٩٤-٢٩٥.

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٣: ٤٩١.

وكلُّ أصْحَابِكَ أوْدَعْتَهُـــــم بِسُوءِ تَدْبيرِكَ بَطْنَ الضَريـحْ
خَمْسُونَ ألفاً لا يُـرَى مِـنهُمُ إلاَّ قتيلٌ أوْ أسيرٌ جَريـــحْ
فَـردَّكَ اللهُ إلـى مِثْلِهـــا لَعلّ عِيسَى مِنكُمُ يَسْتَريـــحْ
إنْ كانَ بَابُكُمْ بِـذا راضِيـاً فَرُبَّ غِشٍّ أتَى مِـنْ نَصيـحْ
فاتَّخِذُوُه كاهِنـــاً إنَّـــه أنْصحُ من شَقَّ لكُمْ أو سَطيحْ
وقُلْ لهم إنْ أضْمَروا عَـوْدَةً لأخْذِ ثأرٍ أوْ لَقصْدٍ صحـيحْ
دارُ ابن لُقمانَ على عَهْدِها والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح[1]

ومن سلاطين المماليك المشهورين السلطان قطز، ومن أهم إنجازاته معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ في العشر الأواخر من رمضان، وكان التتار قبلها قد وصلوا إلى حلب في ثاني صفر سنة ٦٥٨هـ، فحاصروها سبعة أيام، ثم افتتحوها بالأمان، لكنهم غادروا بعد أن عاثوا فيها فساداً، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم ما يقارب ما جرى على أهل بغداد[2]، وفي عين جالوت حقق قطز نصراً مؤزراً، وقتل «كتبغانوين» وجماعة من بيته، ثم ما لبث الأمر أن صار إلى الظاهر بيبرس بعد أن تمكّن من قتل قطز، ويذكر ابن كثير أن الشام في بداية ٦٥٨هـ كانت للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في النصف من صفر كانت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز، ثم في أواخر ذي القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شركه في دمشق الملك المجاهد سنجر[3] ويلاحظ أنّ السمة البارزة في الحياة السياسية كثرة الاضطرابات والنزاعات والمؤامرات، على الرغم من أنّ البلاد كانت تواجه أخطاراً كبيرة.

أمّا في بغداد، فقد بلغت الفوضى ذروتها في عصر الخليفة المستعصم بالله

(١) المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق:محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية،١٩٣٦، ج١،قسم٢، ٣٦٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى،٥:٢٩١؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، النسخة مصورة عن نسخة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥م، ٦: ٣٧٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٣:٢٣٦.

الذي سلّم أمر دولته إلى رجل يدعى ابن العلقمي، والذي كان يسعى إلى القضاء على الدولة العباسية وتسليمها إلى التتار[١].

وقد نبّه الناس الغيارى الخليفة المستعصم بالله إلى الزحف المغولي قبل وقوعه، وحذّروه منه، وقد كُتبت له الرِّقاع.

ومن الشعراء الذين تنبهوا للأمر قبل وقوعه مجدالدين النشّابي (ت-٦٥٧هـ) والذي يقول:

يا سائِلي وبمحْضِ الحقِّ يَرْتَادُ ... اصْغِ فعنْديَ نُشدانٌ وإنشَادُ
أيْنَ المنيّةُ مِنِّي كي تُساورني ... فللمَنيّةِ إصْدَارٌ وإيرادُ
مِنْ قبلِ واقعةٍ شنعاءَ مُظلِمةٍ ... يَشيبُ من هَوْلِها طِفلٌ وأكْبَادُ[٢]

فلم تكن المصيبة مفاجئة، بل توقعها الشعراء، وتمنّى بعضهم الغياب عنها، وقد شهد هذه النكبة، وعانى من أهوالها الشاعر تقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر فبكاها بقصيدة طويلة منها:

لِسَائلِ الدَّمْعِ عَنْ بَغداد أخْبَارُ ... فَما وُقوفُكَ وَالأحْبَابُ قَدْ سَارُوا
يا زَائِرينَ إلى الزَوْرَاءِ لا تَفِدُوا ... فَما بِذاكَ الحِمَى والدَّارِ ديَّارُ
تاجُ الخِلافةِ والرَّبعِ الذي شَرُفَتْ ... به المعَالِمُ قدْ عفَاهُ إقْفَارُ
أضْحَى لِعطفِ البِلىَ في رَبْعِهِ أثَرُ ... وللدُّمُوعِ عَلَى الآثارِ آثارُ
يا نارَ قَلبْي مِنْ نارٍ لحربٍ وغَى ... شَبَّتْ عَليْهِ وَوَافَى الرَّبعَ إعْصَارُ
عَلا الصَّليبُ على أعْلىَ مَنَابرِهَا ... وَقَام بالأمْرِ مَنْ يَحويه زِنّارُ
وكَمْ حَريم سَبَتْهُ التُركُ غاصِبَةً ... وَكانَ مِنْ دُونِ ذَاكَ السِّترِ أسْتَارُ
وَكَمْ بُدورٍ عَلىَ البدْرِيةِ انخَسَفَتْ ... وَلَمْ يَعُدْ لِبُدورٍ مِنهُ إبْدارُ
وكَمْ ذخَائرَ أضْحَتْ وهيَ شائِعَةٌ ... مِنَ النّهابِ وَقد حازَتْهُ كُفّارُ
وكَمْ حُدودٍ أُقيمتْ من سُيوفِهِمُ ... على الرِّقابِ وحُطّتْ فيهِ أوزارُ

(١) المصدر السابق، ١٣: ٢١٤.

(٢) ناظم رشيد، في أدب العصور المتأخرة، منشورات مكتبة بسام، الموصل، ١٩٨٥م،) ٩-١٠، نقلاً عن الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، تحقيق: د.مصطفى جواد، مطبعة الفرات، بغداد، ١٣٥١هـ :٢٣.

نَادَيْت والسَّبيُ مهتوك تجرُّهُـــمُ إلى السَّفَاحِ من الأعداءِ ذعّـــار[١]

ويُذكر أنّ هذه البليّة لم يُصب الاسلامُ بمثلها من قبل، وأن عدد ضحايا هذه النكبةِ بلغ ألف ألف وثمانمائة ألف، وعمل الشعراء مراثي في بغداد كثيرةً فقال أحدهم:

يا عُصْبَةَ الإسْلامِ نُوحِي وانْدُبي حُزْناً على مَا تَمّ للمُسْتَعْصِمِ[٢]

ومن سلاطين المماليك المشهورين الظاهر بيبرس، الذي كان الشهاب الحلبي مُعجباً به ومحباً له، فسجّل انتصاراته على التتار على ضفاف الفرات عندما عبر وراءهم النهر، وفي ذلك يقول الشهاب الحلبي:

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهَيْمِنُ جَارُ واحْكُمْ فَطَوعُ مُرادِكَ الأقْـدارُ

لمّا تراقَصتْ الرّؤوسُ وَحركَـت مِنْ مُطْرِبَاتِ قِسِيِّكَ الأوْتَـارُ

خُضْتَ الفُراتَ بسَابِحٍ أقصَى مُنَى هَوْج الصّبا من نَعْلِهِ الآثَـارُ

حَمَلتْكَ أمْواجُ الفُراتِ وَمَـنْ رَأى بَحْراً سِواكَ تُقِلّهُ الأنْهَـارُ

وتقطّعت فِرَقاً ولم يكُ قودَهَــا إذْ ذاكَ إلا جَيْشُك الجــرّارُ

ومنها:

رشّتْ دِماؤُهُمُ الصّعيدَ فَلَم يَطِرْ مِنهُم على الجَيْش السّعيد غُبَارُ

شَكَرتْ مَسَاعيكَ المعاقِلُ وَالوَرى والتُّربُ والآسادُ والأطْيَـارُ

هذي منعْتَ وَهَؤلاءِ حَمَيْتَهُـمُ وَسَقَيْتَ تِلْكَ وَعمَّ ذي الإيْثَـار[٣]

ويروي ابن كثير أن الظاهر بيبرس وصل بعسكره إلى الفرات، وأنه شارك في المعركة بنفسه وجنده، وقتل منهُم خَلَقاً كثيراً[٤].

---

(١) ابن العماد، عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، ٥: ٢٧١-٢٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٥: ٢٧١.

(٣) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م): الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م،٢:٧٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ٢٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧:١٥٩-١٦٠؛ الحلبي، شهاب الدين محمود، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق: أكرم عثمان، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م، ١٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٢٧٨.

وقال الموّفق عبدالله بن عمر الأنصاري (ت٦٧٧هـ):

المَلِكُ الظاهِرُ سُلطانُنُـــا نَفْديه بِالأمْوَالِ والأهْــلِ
اقتحَمَ المَاءَ ليطفئ بـــهِ حرارةَ القَلْبِ مِنَ المُقْــلِ[1]

ومما يُسجَّل للظاهر بيبرس أنه نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة، فقد استقدم الخليفة الحاكم بأمر الله بعد قتل المستنصر يوم الخميس سادس عشر صفر سنة ٦٦٠هـ، وأنزله الظاهر بيبرس بالبرج الكبير بالقلعة، وعقد له مجلساً فبايعه الناس بالإيوان من القلعة، وخطب له على المنابر وقد تُوفّي سنة ٧٠١هـ[2].

ومما يشهد له بناؤه المدرسة الظاهرية، وقد رتّب وقفها قبل الشروع ببنائها، وقد كان بالشام، فكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور بألاّ يستعمل فيها أحداً بغير أجر، وفرغ من بنائها ٦٦٢هـ وقد أنشد أبوالحسن الجزار في يوم افتتاحها بعد أن مُدّت الأسمطة:

ألاَ هَكَذاَ يَبْني المدارسَ مَن بَنَـى وَمَنْ يَتَعالىَ في الثَّوَابِ وَفي الثُّنا *
لَقَدْ ظَهَرَتْ لِلظاهِرِ المَلْكِ هِمَّــةٌ بِهَا اليَوْمَ في الدَّارَيْن قَدْ بَلَغَ المُنَى
تَجَمَّعَ فِيها كُلُّ حُسْن مُفَـــرَّقٍ فَرَاقَتْ قُلوُباً للأنَامِ وَأعْيُــــنا
وَمَا هِيَ إلاَّ جَنَّةُ الخُلْدِ أُزْلِفَــتْ لَهُ في غَدٍ فاختَارَ تعجيلَها هُنَــا[3]

ومن سلاطين المماليك المشهورين السلطان المنصور قلاوون، والذي نال إعجاب الشهاب الحلبي، وخلّد انتصاراته عندما صدّ التتار عن حلب وهزمهم قرب حمص، وداهم الفرنجة في الساحل، واستطاع أن يستعيد طرابلس منهم، ويدمرها ويبني قربها طرابلس الحالية، وانتزع منهم حصن المرقب، وفي ذلك يقول الشهاب محمود الحلبي:

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ١٥٩-١٦٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ٢٧٩.

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين والدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤، ٢: ٧٧-٧٨.

(٣) المقريزي أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ، ٢: ٣٧٩.

ولَقَدْ ذَكرتُكِ والسيُوفُ لَوامِــعٌ   والمَوْتُ يَرقُبُ تَحْتَ حِصنِ المرْقب

والحِصْنُ من شَفَقِ الدّرُوعِ تخَالُهُ   حَسْنَاءَ تَرْفِلُ فيْ رِدَاءٍ مُذْهَــبِ

سَاقي السَّماءَ فَمَنْ تطَاوَلَ نحوهُ   للسَّمْعِ مُسْتَرِقاً رقاهُ بكَوْكــبِ

والمَوْتُ يَلْعَبُ بالنّفوسِ وَخَاطِري   يَلْهُو بطيّبِ ذِكْرِكِ المُسْتَعْذَبِ[1]

ودامت مدة حكمه من ٦٧٨-٦٨٩هـ، ويُعَدّ من أعظم آثاره البيمارستان المنصوري في القاهرة، وبعد وفاته ولي ابنه الأشرف صلاح الدين خليل ٦٨٩-٦٩٣هـ وكان ابن السلعوس على صلة[2] وثيقة بالأشرف، لذلك يُعَدّ المتصرف الحقيقي في شؤون دولته.

ثم جاء الناصر محمد بن قلاوون بعد مقتل أخيه الأشرف ٦٩٣هـ وقد قام بتدبير الملك نائبه كتبغا والذي تمكن من خلع السلطان ٦٩٤هـ وهذه أول مرّة يخلع من السلطة والمرّة الثانية ٦٩٦هـ بتدبير الأمير لاجين، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون وقعت معركة مرج راهط التي انتصر فيها الناصر انتصاراً حاسماً.

وفي عصره كثر العلماء والشعراء والأدباء، وقام ببناء جملة قصور وعمارات ومساجد وقناطر، وحفر الخليج الناصري سنة ٧٢٤هـ، وحجّ مرتّين وبصحبته الملك المؤيّد، وكانت له أعمال حسنة فقد ضيّق الخناق على البغايا وأهل الفساد، وأبطل بعض المكوس الظالمة[3].

ولا بدمن وقفة عند أبي الفداء الملك المؤيّد وهو إسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماه، مؤرخ جغرافي قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب[4] كان على علاقة طيبة مع العلاّمة شهاب الدين محمود الحلبي، يقول ابن حجر: «ولا أعرف في أحدٍ من الملوك من المدائح ما لابن نباتة والشهاب محمود

---

(١) الصفدي، الغيث المسجم، ٢:٤١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٣٥٨؛ سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، القسم الأول من الجزء الأول، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م) :٣١.

(٣) سليم، عصر سلاطين المماليك، ١: ٣١-٣٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١:٥٦.

وغيرهما فيه إلا سيف الدولة، وقد مدح الناس غيرهما كثيراً، ولكنه اجتمع لهذين من الكثرة والإجادة من الفحول ما لم يتفق لغيرهما»(١).

ومما يؤكد علاقته الوطيدة بالسلطان أنّه لما بلغ السلطان خبر وفاته سنة ٧٣٢هـ أسف عليه وحزن وقرّر ولده الأفضل في مكان أبيه، وكان أبو الفداء يحمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر، وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، سنداً للعلماء مُحباً للتاليف، ومن مؤلفاته «المختصر في أخبار البشر» وهو تاريخ عام للأمة العربية حتى سنة ٧٢٩هـ وحذا فيه حذو ابن الأثير، في ترتيبه على السنين، وله كتاب آخر وهو «تقويم البلدان» جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وعنى بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس، واهْتَمّ الفرنج بهذا الكتاب، وترجموه إلى لغتهم، واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية، ومن كتبه «نظم الحاوي في فقه الشافعي» وكتاب «الموازين»(٢).

ومن سلاطين المماليك الأشرف خليل، فقد تولّى السّلطة بعد أبيه سنة ٦٨٩هـ وحارب الفرنجة وحاصر عكا وافتتحها، ولم يبق أمامه غير الروم في الشمال، فحاصر القلعة الحصينة سنة ٦٩١هـ وقد فتح قلعة الروم وامتدحه الشهاب على هذا الإنجاز العظيم بقصيدة منها:

لَكَ الرّايَةُ الصُّفْراءُ يقْدُمُها النَّصرُ ... فَمنَ كَيْقبَادانَ رآها وكيخسرو

إذاَ خَفقَتْ في الأفْقِ هَدّتْ بنُورِها ... هَوَى الشّركِ واسْتَعلى الهُدى وانجلى الثّغرُ

إذا نشَرتْ مثلَ الأصَائيل في الوَغىَ ... جَلىَ النّقْعُ من لألاءِ طلْعَتِها البَدْرُ

وَإنْ يَمّمَتْ رِزْقَ العِدَى سَارَ تَحْتَها ... كَتَائِبُ خُضْرٍ دَوْحها البيضُ والسُمْرُ

كأنّ مَثَار النّقْعِ لَيْلٌ وَخَفْقها ... بُرُوقٌ وأنْتَ البدرُ والفَلَكُ الحترُ

(١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة،١٩٦٦م: ٣٧٢:١.

(٢) المقريزي،السلوك، ٣٥٤:٢؛ ابن حجر، الدرر، ٣٧٢:١؛ الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ٤٠٨-٤٠٩.

وَفَتحٌ أتى في إثْرِ فَتْحٍ كأنّمــــا　　سَمَاء بَدَتْ تَتْرَى كواكِبُها الزُّهْـرُ(١)

وكان قبلها قد افتتح عكا، وامتدحه الشهاب محمود الحلبي بقصيدة منها:

الحمدُ للّه زالتْ دَوْلةُ الصُلُـبِ　　وعزّ بالتُّرك دِينُ المُصْطفَى العَربـي

هَذا الذي كانتْ الآمالُ لو طلبتْ　　رُؤياه في النوْم لاستحيَتْ من الطلبِ

ما بَعد عكّا وقَدْ هُدّت قواعدهــا　　في البَحر للتُرك عِند البَرّ مـن أربِ

لَمْ يبقَ منْ بَعدها للكُفْر إذ خَربتْ　　في البَحرِ والبَرّ ما يُنجي سِوى الهَربِ

أم الحروبِ فكمْ قد أنشأتْ فتنـاً　　شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تَشِــبِ

يَا يَوْم عكا لقد أنسيت ما سبَقــتْ　　به الفتوحُ وما قد خُطّ في الكُتُـبِ

لَمْ يَبْلُغ النُطقُ حدّ الشكر فيكَ فما　　عَسَى يَقوم بهِ ذو الشِّعْــرِ والأدب

أغْضَبت عُبّاد عيسى إذ أبَدْتَهــمُ　　للّهِ أيُّ رضىً في ذلكَ الغَضـــبِ

وأشرفَ المصطَفى الهَادي البَشيرُ على　　ما أسلفَ الأشرفُ السلطانُ من قُربِ

فقرّ عَيْناً بهذا الفَتْح وابتَهَجــتْ　　ببُشرهِ الكَعْبَةُ الغَرّاءُ في الحُجُـبِ

وَسار في الأرضِ سَيْراً قد سَمِعْتَ بِهِ　　فالبَرُّ في طَرَبٍ والبَحْرُ في حَرَبِ(٢)

ويمكن القول إنّ المماليك تمكنوا من تطهير البلاد من الفرنجة والتتار، على الرغم من كثرة الخلافات والنزاعات فيما بينهم، وقد استمر حكمهم ما يقارب قرناً ونصف القرن، تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطاناً، وقد كانت مدة حكم بعضهم لا تتجاوز بضعة أيام، وبعضهم بضعة شهور، ومنهم من طالت مدة حكمه واستمرت سنوات طوالاً، وكان ترتيبهم في الحكم على النحو التالي:

شجرة الدر ٦٤٨هـ - ٦٤٨هـ

عز الدين أيْبَك ٦٤٨هـ - وقتل ٦٥٥هـ

ابنه المنصور علي ٦٥٥هـ وقتل ٦٥٧هـ

قطز ٦٥٧هـ وقتل ٦٥٨هـ

الظاهر بيبرس ٦٥٨هـ وتوفي ٦٧٦هـ

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ٣٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٣: ٣٤٢.

بركة خان ٦٧٦هـ - ٦٧٨هـ

سلامش بن بيبرس ٦٧٨هـ - ٦٧٨هـ

المنصور قلاوون ٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ

الأشرف خليل ٦٨٩هـ وقتل ٦٩٣هـ

الناصر محمّد (الأولى) ٦٩٣هـ

العادل كتبغا ٦٩٤هـ - ٦٩٦هـ

المنصور لاجين ٦٩٦هـ - ٦٩٨ هـ

الناصر محمد (ثانية) ٦٩٨هـ - ٧٠٨هـ

بيبرس الجاشنكير ٧٠٨هـ - ٧٠٩هـ

الناصر محمد (ثالثة) ٧١٩ - ٧٤١هـ، المنصور أبو بكر ٧٤١هـ - ٧٥٢هـ، الأشرف كجك ٧٤٢هـ، الناصر أحمد ٧٤٢هـ، الصالح عماد الدين إسماعيل ٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ، الكامل شعبان ٧٤٦هـ - ٧٤٧هـ، المظفر حاجي ٧٤٧هـ - ٧٤٨هـ، الناصر حسن (الأولى) ٧٤٨هـ - ٧٥٢هـ، الصالح ٧٥٢هـ، الناصر حسن (الثانية) ٧٥٥هـ - ٧٦٢هـ، المنصور ٧٦٢هـ، الأشرف ٧٦٤هـ[1].

الحياة الاجتماعيّة

المقصود بالحياة الاجتماعية عند بعض الدارسين من علماء الاجتماع: جميع نواحي النشاط الإنساني من عمل وتعليم واقتصاد ودين وأفراح وأتراح وعادات وأمراض اجتماعيّة[2].

أما عن الطبقات الاجتماعية، فيرى ابن خلدون أنه لا يوجد في المجتمع سوى طبقتين، فيقول: «فإنّ الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهي نسبة بين منتسبين، فحقيقة السلطان أنه المالك للرعيّة، القائم في أمورهم عليهم،

---

(١) سلاّم، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، ١٩٧٠م، ١٨-١٩.

(٢) عاشور، سعيد عبدالفتاح، دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك، طبع مكتبة النهضة بمصر سنة ١٩٥٩م،٣.

فالسلطان من له رعيّة، والرعيّة من لها سلطان[١].

ومن الذين يذهبون هذا المذهب في العصر الحديث «لين بول» والذي يشير إلى طبقتين كبيرتين: الأولى : طبقة سلاطين المماليك، والثانية: تمثل سائر فئات الشعب، الأولى: طبقة عسكرية، لها كل ما تريد، والثانية طبقة عليها كل الواجبات، فهي التي تتكفل بدفع الضرائب الباهظة، والعمل في فلاحة الأرض، وتسلُّم بعض الوظائف البسيطة[٢]. أما المقريزي فيقول: « واعلم -حرسك الله بعينه التي لا تنام- أنّ الناس بإقليم مصر في الجملة سبعة أقسام: القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة وهم متوسطو الحال من التجّار، ويقال لهم أصحاب البزّ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء: وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء، وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة: وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم»[٣].

أما من المحدثين فيرى عمر موسى باشا أنه لا بد من إضافة طبقتين إلى الطبقات السالفة الذكر وهما: طبقة الأعراب، وطبقة أهل الذمّة من أقباط ويهود، وكان لهم دورهم في الحياة الاجتماعية[٤].

وقد لا نتمكن من الوقوف عند كلّ طبقة من هذه الطبقات، لكن لا بدّ من إبراز دور الطبقتين الكبيرتين، الأولى: طبقة سلاطين المماليك، أو أهل الدولة من سلاطين وأمراء ووزراء وكتاب كبار، وقد عاش هؤلاء حياة الترف، فقد

---

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨١، ط٤، ١٨٨.

(٢) عاشور، دراسات في الحياة الاجتماعية، ١٠؛ باشا، ابن نباتة المصري، ٣٣.

(٣) المقريزي، أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٩٥هـ/١٩٩٤م: ٧٢.

(٤) باشا، ابن نباتة المصري : ٣٣.

رصّعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهن وخفافهن بالجواهر والآلئ، كما رصّعوا آنية شرابهم وطعامهم بالذهب، ولبسوا الثياب المزخرفة، وافترشوا الدِّمقس والحرير والديباج، وشاعت عادة انتشار الحشيش وفعل الموبقات، ووجد في خزائن بعضهم من أصناف الثياب والحلي والرّياش والأثاث ما يقدر بملايين الدنانير[١].

أما طبقة العامة فتحوي مختلف فئات المجتمع، وأهمها على الإطلاق فئة الفلاحين، ولا بد من الإشارة إلى أنّ مهنة الفلاحة لم تكن مهنة مرغوبة، وإنّما مهنة محتقرة، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى هذه الفئة فوصفها بالضعف والمذلة والمسكنة، وأصبحت كلمة فلاح من كلمات الشتم والقدح، واستشهد بقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار، «مادَخَلتْ هذه دار قَوْم الاّ دَخَله الذُّلُ»[٢] وقد تكون هذه النظرة إلى الفلاحين سبباً من أسباب العوز والفقر الذي كان يسود المجتمع المملوكي، وذلك لأنّ الفلاح يشعر أنّ ناتجه يذهب أغلبه إلى الدولة وأصحاب النفوذ، ويبدو أنّ فئة العوام من أكثر فئات الطبقة العامة عوزاً، ومنهم البلاصيّة والزعرة والمشاعلية والحرافيش، وهؤلاء كان بغضهم لا يجد منزلاً يأوي إليه فيقضي أوقاته في الطرقات[٣].

أمّا عن الجانب الاقتصادي فيمكن القول إنّ له مكانةً عظيمة في الحياة الاجتماعية، وقد سبقت الإشارة إلى أن معظم فئات المجتمع في العصر المملوكي كانت تعاني من الفقر والعوز، ويرى عمر موسى باشا أنّ من أسباب ضعف هذا الجانب نظام الإقطاع وهو نظام قاسٍ لا يرحم المستضعفين من أصحاب الأرض، بل إنه يعدّ الفلاحين عبيداً أو خدماً في هذه الأرض، التي غالباً ما توزع على الأمراء

---

(١) ناظم رشيد: في أدب العصور المتأخرة، ١٦.

(٢) ابن خلدون، المقدمة :٣٩٤.

(٣) عاشور، دراسات في الحياة الاجتماعية، ٢٦-٢٧.

والجنود والغرباء[١].

والعامل الآخر هو كثرة الضرائب وتحكم السلاطين، وهذا أحمد بن يحيى ابن مخلوف الشيخ شهاب الدين الأعرج يحدثنا عن ذلك يقول:

وكيفَ يرومُ الرزقَ في مصرَ عاقلٌ   ومنْ دُونه الأتراكُ بالسيفِ والتُرسِ
وَقدْ جَمعتْهُ القِبطُ من كلّ وجْهــةٍ   لانفُسِهم بالرُّبْعِ والثُّمْنِ والخُمــسِ
فَللتُّركِ والسُّلطانِ ثلثُ خراجِهــا   وللقبطِ نصفٌ والخلائقُ في السُّدسِ[٢]

ويبدو أنّ الشعب كان يعاني من الفقر قبل هذا العصر، يحدثنا ابن كثير عن سنة ٥٩٧هـ قائلاً: «فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جداً، فهلك خلق كثير من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل أنّ العادل كفّن من ماله في مدّة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميّت[٣] ليس هذا حسب، بل إنه يروي أنّ الكلاب والميتات أُكِلَتْ بمصر، والأغرب من ذلك أن الوالدين يشويان ولدهما الصغير ويأكلانه، ويذبح الرجل امرأته ويأكلها[٤].

وفي سنة ٦٦١هـ زلزلت الموصل زلزلة عظيمة، وتهدمت أكثر دورها[٥]، وفي سنة ٦٩٥هـ في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس وكان السلطان آنذاك الملك كتبغا ازداد الغلاء، وكثر الفناء، فلم يبقَ من الناس إلا القليل. وكانت الأسعار غالية وأقوات الناس نادرة، ويذكر أنه مات في هذا العام مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً[٦].

وفي عام ٧٠٢هـ وقعت زلزلة عظيمة بالديار المصرية؛ ويقال إنّ البحار تلاطمت بسببها، فكسّرت المراكب وتهدّمت الدور، ومات خلق كثير. ووقع شيء

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة المثنى، بغداد، بلا تاريخ، ١:١٤٥؛ باشا، ابن نباتة المصري، ٤٥.
(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١:٣٣٥-٣٣٦.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٢٩.
(٤) المصدر السابق نفسه، ١٣:٢٩.
(٥) المصدر السابق نفسه، ١٣:٢٥٢.
(٦) المصدر السابق نفسه، ١٣:٢٦٣.

من ذلك في الشام إلا أنه أقل ضرراً[١].

وفي سنة ٧٤٩هـ في زمن الملك الناصر بن الملك المنصور تواترت الأخبار بوقوع البلاء في أطراف البلاد، وذكر أنّ بلاد القرم عانت من البلاء، ومات كثير من أهل قبرص، وكذلك حصل في غزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفاً[٢]، وانتشرت الطواعين، وزاد عدد الوفيات في اليوم الواحد على المائة، ومما يستغرب أن الموت من النساء كان أكثر[٣].

وقد كانت هذه المصائب والأوبئة التي تحلّ بهم عاملاً على جمع طوائف المجتمع، وابتهالهم إلى الله أن يرفع عنهم الويلات، فيحدثنا ابن كثير أنّ اليهود والنصارى والسامرة خرجوا مع المسلمين يبتهلون إلى الله أن يرفع عنهم البلاء سنة ٧٤٦هـ، وفيهم الشيوخ والعجائز والأطفال، فما زالوا على حالهم حتى ارتفع النهار، وكان يوماً مشهوداً[٤].

وقد انبرى المقريزي ليحاول دراسة أسباب الغلاء ووصف أوضاع الناس في المجاعات وتحدّث عن بعض الأمراض الاجتماعية مثل الرشوة، وعن بعض العيوب في الزراعة مثل ارتفاع إيجار الأراضي الزراعية بسبب ظلم خدم السلاطين في الأرض، مما أدى إلى هجرة القرى والأراضي الزراعية[٥].

الحياة الثقافيّة

أخذ التتار بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس، ولكن الثقافة والحضارة العربية الإسلامية استمرت بعد سقوط بغداد، وذلك لأنه وجدت مراكز جديدة لا تقل في أهميتها عن بغداد مثل القاهرة التي أخذت تتبوأ مكانة بغداد في الماضي وأخذت تستقطب العلماء

(١) المصدر السابق، ١٤:٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٤:٢٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٤:٢٣٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٣:٢٣٨.

(٥) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، ٣٠.

الفارّين من بغداد وغيرها، وأخذت تنشر أنوارها على أرجاء العالم آنذاك، نذكر من هؤلاء العلماء الصدر البكري المولود سنة ٥٧٤هـ سمع بمكة من عمر الميانشي، وبدمشق من ابن طبرزد، وبخراسان من أبي روح، وباصبهان من أبي الفتوح[١]، ومنهم ابن خلكان المؤرخ المشهور، ومنهم ابن تيميه الحرّاني، ومنهم كمال الدين بن العديم، الذي هجر مدينة حلب في عهد الناصر بن قلاوون، فراراً من وجه التتار[٢].

ومن العلماء الوافدين ابن البيطار المالكي الأندلسي: نزيل القاهرة وهو من أعظم الصيادلة قبل العصر الحديث، ومن الوافدين ابن مالك الطائي الجياني نزيل دمشق، إمام النحو المشهور، وابن سعيد الغرناطي، وابن خلدون التونسي مؤسس علم الاجتماع، وابن منظور اللغوي[٣].

ومن الوافدين ابن دحية أبو الخطاب عمر بن الحسين بن علي بن محمد شيخ الديار المصرية في الحديث، وكان مولده ٥٤٤هـ ووفاته ٦٣٣هـ[٤].

ومنهم الإمام أثير الدين أبو حيّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي النِفريّ - نسبة إلى نِفْرة - قبيلة من البربر، نحويّ عصره ومقريه ومؤرخه وأديبه، ولد بمطخشارش مدينة من حضيرة غرناطة، في آخر شوال ٦٥٤هـ، وأخذ القراءات عن أبي جعفر بن الطباع، والعربية عن أبي الحسن الأبذي، وأبي جعفر بن الزبير، وابن أبي الأحوص، وابن الصائغ، وبمصر عن البهاء النحّاس وجماعة، وتقدم في النحو والتصريف والتفسير والحديث والتراجم[٥].

وتحدّث ابن خلدون في مقدمته عن أهم المراكز العلمية التي خلفت بغداد والبصرة، والكوفة، فقال: «وأمّا المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه

---

(١) باشا، ابن نباتة، ٦٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ٦٥.
(٣) مجلة «المجلة»، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط ١٩٦٧؛ شوقي ضيف: ٨.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٥٥.
(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦:١٤٥-١٤٧.

نافقة، وبحوره زاخرة، لاتصال العمران الموفور، واتصال السند فيه، وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أنّ الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان، وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما يليها من المغرب[1].

ومما ساعد القاهرة على أن تتبوأ هذه المكانة المرموقة بعد خراب بغداد أنها أصبحت مركز الخلافة الإسلامية في عهد السلطان الظاهر بيبرس، فقد بويع الخليفة المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله، وقد كان محبوساً ببغداد، حبسه التتار فلمّا أُطلق سراحه توجه لعرب العراق فأحضروه لمصر، وبايعه الناس، وهو الثالث والثلاثون من خلفاء العباسيين[2].

ومن العلماء المشهورين الذين برزوا في هذه الفترة ابن هشام، والذي قال عنه ابن خلدون: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»[3].

وقال عنه ابن خلدون «وصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصّلة، وتكلّم على المفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسمّاه بالمغني في الإعراب، فوقفنا على علم جمّ يشهد بعلوّ قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتدوا أثر ابن جني»[4].

وفي مجال اللغة برز عالم مشهور وهو ابن منظور الإفريقي القاضي المنشئ جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، حدّث بمصر ودمشق

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ٤٣٢.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ٥: ٢٩٧.

(٣) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية بالقاهرة، ١٣٢٧هـ، ٢: ٢٣٦.

(٤) ابن خلدون، المقدمة: ٥٧٤.

واختصر تاريخ ابن عساكر وله نظم ونثر[١]، وأضاف إلى معجمه الذي يقع في عشرين مجلداً والذي سمّاه، لسان العرب المادة الشعرية الغزيرة، بعد أن عكف على دواوين الشعر في العصرين الجاهلي والإسلامي عكوفاً حوّل أبياتها أو جمهور أبياتها كما يقول شوقي ضيف إلى بطاقات، وزّعها على المواد اللغوية المختلفة في معجمه[٢].

ازدهرت في هذا العصر الكتابة الديوانية، والتي كان الشهابُ الحلبي من فرسان حلبتها، وهذا النوع من الأدب يدور حول كتابة الرسائل السلطانية وكتابة التواقيع، وتكتب الرسائل باسم السلطان المملوكي، وعادة ما تكون بشأن تقليد الحكم، أو تعيين وزير أو أمير أو قاضٍ، وكان أغلب الكتّاب يحذون حذو القاضي الفاضل، الذي كان كاتباً لصلاح الدين ووزيراً وجليساً، وكان أعز عليه من أهله وأولاده[٣].

ومن العوامل التي جعلت هذا العصر عصرَ ازدهار في جميع مناحي الفكر -كما يرى شوقي ضيف- أنّ العلماء والأدباء بذلوا جهوداً شاقة ركّزوها على إحياء التراث العربي، وتمثّله تمثّلاً رائعاً، ودفعه في قوة إلى التجدّد الخصب المنتج[٤].

ولقد كان السلاطين والأمراء يعظّمون العلماء، ولا يصدرون قراراً في الغالب إلا بعد استشارتهم، وأخْذِ رأيهم، مع أنّ المماليك لم يكونوا أصحاب علم، فقد كان الظاهر بيبرس متقمّعاً تحت كلمة الشيخ عزالدين بن عبدالسلام، وقد قال عندما مات الشيخ «ما استقر ملكي إلا الآن»[٥].

وهذه الرواية تدل على مكانة الشيخ، حتى يُخيّل إليّ أنّ أتباعه في المجتمع أكثر من أتباع السلطان، لذلك خشيه السلطان، ويروي السيوطي أنّ الظاهر

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦:٢٦.

(٢) مجلة «المجلة»، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط ١٩٦٧؛ شوقي ضيف :١١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٢٧.

(٤) المجلة، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط ١٩٦٧م؛ شوقي ضيف :١٨.

(٥) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٣:٢٣.

بيبرس حضر مرّة إلى دار العدل في قضية بينه وبين أحد الأمراء أمام القاضي ابن بنت الأعز، فقام الناس له تعظيماً إلا القاضي، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام[١]، إنّ هذا التواضع الذي يبديه سلاطين المماليك يدلّ على التزامهم بالإسلام، واذا لم يكن التزاماً حقيقياً فهو يدل على الدهاء الذي به يحافظون على عروشهم، وقد سبق أن أشرت في الحديث عن الناحية السياسية إلى أن الظاهر بيبرس قد نقل الخلافة بعد أن انتهت في بغداد إلى القاهرة، ويُروَى أنّ الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد حضر مرّة عند السلطان لاجين فقام إليه السلطان وقبّل يده، فلم يزد الشيخ على قوله: «أرجوها لك بين يدي الله»[٢].

هذه الرواية وغيرها من الروايات المبثوثة في مصادر هذا العصر تدلّ على مكانة العلماء عند السلاطين من جهة، وتدل على عظم نفوس العلماء الذين زهدوا بما في أيدي السلاطين.

يروى أنّ السلطان برقوق لمّا أنشأ مسجده وقرّر فيه شيوخاً يتولّون التدريس كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرافي مُدَرِّس الحنفيّة وشيخ الصوفيّة، وقد بالغ برقوق في تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له السجادة بيده[٣].

ويروي المقريزي أنّ السلطان المؤيّد لما أنشأ جامعه قرر فيه عدداً من المدرّسين، كان من بينهم شهاب الدين بن حجر العسقلاني مُدرِّس الشافعية، فجاء إليه السلطان ليسمع درسه، فلمّا أقفل همّ ابن حجر بالقيام للسلطان، فمنعه المؤيد من القيام فلم يقم[٤].

يعدّ ابن تيمية من أشدّ العلماء صلابة وثباتاً في مواقفه، زيادة على مقدرته الفائقة في التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم، والتديّن، وقد كتب ابن الزملكاني على تصنيف له هذه الأبيات :

مَاذا يَقولُ الواصِفُون لَهُ   وصِفاتُه جَلّتْ عَن الحَصْـر

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ٢:٧٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١:١٦٢.

(٣) المقريزي، الخطط المقريزية، ٤:١٣٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٤:١٣٩.

هُوَ حُجَّةٌ لِلهِ قاهِـــــرَةٌ هو بَيْننا أُعجُوبَةُ الدَّهْـرِ
هو آيَةٌ في الخَلْقِ ظاهِرَةٌ أنوارُها أرْبَتْ على الفَخْرِ[١].

ويمكن القـول : إنّ هذه المكانة التي تبوّأها العلماء عند السلاطين كانت سبباً من أسباب التقدم العلمي والثقافي في عصر المماليك، لذلك توافد العلماء إلى مصر والشام في عهدهم من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي، وكذلك الكتّاب والشعراء. وقام السلاطين بتشجيع العلماء والكتّاب والشعراء، مع أنّ السلاطين على الأغلب لم يكونوا من العلماء والشعراء والأدباء.

من العوامل الاخرى التي ساهمت في هذا التقدّم العلمي والثقافي المساجد والمدارس، والدور الذي اضطلت به هذه المساجد والمدارس، فقد كانت المساجد في العصر الفاطمي دور عبادة وعلم في آن واحد، ولم يكن يُعْنى بالدراسات الدينية إلا في المساجد، والمدارس تكاد تكون معدومة[٢]، أمّا في العصر المملوكي فقد استمرت المساجد في رسالتها، وقامت الدارس وكثرت، فيروي المقريزي أن الظاهر بيبرس أول من أنشأ مدرسة كبيرة هي المدرسة الظاهرية ٦٦٢هـ، وكانت تدرّس المذهب الشافعي، والحنفي، والحديث الشريف، وقراءات القرآن، وبها مكتبة عظيمة تحوي أُمّات الكتب في مختلف التخصّصات[٣].

وكان يتولّى تدريس المذهب الشافعي بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، وتدريس الحنفيّة مجد الدين عبدالرحمن بن كمال الدين عمر ابن العديم، وتدريس الحديث الشيخ شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الحافظ الدمياطي[٤]، ومن المراكز العلميّة الشهيرة في هذا العصر الجامع الأزهر، بناه جوهر الصقلي وانتهى بناؤه ٣٦١هـ، وكانت فكرة بناء هذا الجامع تخليداً لجوهر الصقلي وقائده المعزّ ولينافسا به جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون،

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤:١٤٢-١٤٣.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣:٤١٣.
(٣) المقريزي، الخطط المقريزية، ٢:٣٧٨.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣:٢٥٦.

وليكون مركزاً من مراكز الشيعة يدرسون مذهبهم على علمائه، وعندما جاء الأيّوبيّون أبطل صلاح الدين خطبة الجمعة فيه، وفي سنة ٦٦٥هـ جدّد الأمير عز الدين أيدمر- بعد استئذان الظاهر بيبرس- جُدُرَهُ الواهية، وأعلى سقفه، وفي سنة ٧٠٢هـ قام بإصلاحه الأمير سيف الدين سلار، بعد أن ناله من الزلزال ما ناله[١]، وازدهرت الدراسة في الجامع الأزهر في عصر المماليك، لما وهبوا له من عناية فائقة، ولما أغدقوا عليه من أرزاق، وكانت تدرّس فيه علوم الدين ومذاهبه الأربعة، والحديث واللغة والأدب والوعظ، وتخرّج فيه كثير من العلماء، وكان السلاطين يعْنون بانتقاء شيوخه ومُدرِّسيه، وكثيراً ما كانوا يؤمونه لأداء صلاة الجمعة[٢].

ولقد كانت ظاهرة انتشار المدارس تدعو إلى التفكّر، حتى قال القلقشندي: «إنّ أكابر الأمراء بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها»[٣]، لذلك لا غرابة أن تجد شوقي ضيف يقول في هذا المجال «لا تكاد تخلو مدينة بل قرية كبيرة من مدرسة ترسل الشرر العلميّ والأدبيّ إلى كل ما يحيط بها، مما هيّأ للديار المصريّة الشاميّة نهضة ثقافيّة محقّقة»[٤].

ومن المدارس المهمّة في هذا العصر المدرسة التي بناها الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وتعرف بـ «جامع السلطان حسن» بين الرميلة وحدرة البقر[٥].

ويقول القلقشندي عنها « لم يُسبق إلى مثلها، ولا سُمع في مصر من الأمصار بنظيرها، ويقال إنّ إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع»[٦].

أمّا عن الدروس وأنواعها التي كانت تلقى في المساجد والمدارس، فكانت

---

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٣٢:٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٣٦:٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤١٦:٣.

(٤) مجلة «المجلة»، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط ١٩٦٧م؛ شوقي ضيف، ٨.

(٥) القلقشندي، هامش صبح الأعشى ٤١٥:٣.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٤١٥:٣.

الدروس الدينية مقدّمة على غيرها، كالفقه على اختلاف مذاهبه، وخاصة فقه الشافعيّة والحنفيّة، والحديث والأصول والكلام، ويأتي بعدها في الأهميّة علوم اللغة، ثم المنطق والهيئة والفلك[١].

أمّا عن مراحل التعليم فكانت حينذاك ثلاثاً: الأولى: ويمكن تسميتها بالمرحلة التمهيديّة لأنّ الطفل يتعلم فيها المبادئ الأولى في الخط والإملاء والحساب وحفظ القرآن الكريم، والثانية: وهي المرحلة التي يزداد حفظ الطالب فيها لكثير من الكتب والفنون، وفي هذه المرحلة تبدأ الإجازة بعراضة الكتب والتي سنوضحها فيما بعد، والثالثة: وهي مرحلة الدراسة العليا - كما تسمّى في عصرنا الحاضر- وفي هذه المرحلة لا بدّ من ملازمة الشيخ، فيختار الطالب الشيخ الذي يريده، ويظلّ يتلقّى العلم عنه، حتى يحصل على الإجازة بالفتوى أو التدريس والتي ستُوضّح فيما بعد[٢].

ويلاحظ الدارس لهذه المراحل التعليميّة أنّ الروح الدينية غالبة على منهجها، وهذه الظاهرة امتداد لما كان عليه الأمر في الدولة الأيّوبيّة التي تعَد بحق حركة تطهير ديني، فكانوا سُنّيّين متعصبين للمذهب الشافعي، وقاوموا المذهب الشيعي حتى عطّل صلاح الدين خطبة الجمعة في الجامع الأزهر، الذي بني ليكون مركزاً علمياً شيعياً، ومما دفع هذا الاتجاه إلى الأمام أنّ البلاد كانت تواجه خطرين جسيمين في العصر المملوكي وهما: خطر الفرنجة وتفاقم الحروب الصليبيّة، وخطر التتار، ويضيف محمود رزق سليم عاملاً ثالثاً لهذه العوامل التي أدّت إلى شيوع الروح الدينية هو إنشاء الخلافة العباسية الثانية في القاهرة[٣].

ولم يكن توجّه العلماء نحو الدين حسب، بل إنّ بعضهم جنح نحو الأدب فنظم ونثر كما هو شأن الشهاب محمود الحلبي، الذي فاق أقرانه بالمنظوم

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٢:٣٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٣:٢١٧.

(٣) المرجع السابق نفسه، ٣:٢١٧.

والمنثور، وسلك بعض الأدباء سبيل الأدب إلى ديوان الإنشاء، فلمع نجمهُ وازدهر قلمهُ، وكتب الرسائل الحاذقة.

كما هو شأن الشهاب محمود الحلبي أيضاً، الذي عمل في ديوان الإنشاء ما يقارب خمسين عاماً.

ولم تكن اهتمامات العلماء المماليك بالعلوم الإنسانيّة حسب، بل توجهوا نحو العلوم والفنون العملية كفن هندسة البناء، لذلك أُولعوا ببناء المساجد والقصور والقاعات والقلاع[1].

أمّا عن أساليب المدرّسين فيبدو أنّها كانت لا تخلو من الشدّة وقد أشار إلى ذلك الفاضل كمال الدين الأدفوي يقول :

إنّ الدُروسَ بمصْرِنَا في عَصْرِنا طُبِعَتْ على لَغَط وفرْطِ عِياطِ
ومباحثٌ لا تنتهي لنهايـــــةٍ جَدَلاً ونقلٌ ظاهرُ الأغـــــلاطِ
ومُدّرسٌ يُبدي مَبَاحثَ كلّهـــــا نَشأتْ عن التخليط والأخْلاطِ
ومحدّثٌ قدْ صارَ غاية علمــــــه أجزاءُ يَرْويها عَن الدّمياطـي
والفاضلُ النِّحْريرُ فيهمْ دأبُــــهُ قولُ أرسطا طاليسَ أوبقراطِ
وعلومُ دينِ اللهِ نادتْ جَهْــــرةً هذا زمانٌ فيهِ طيٌّ بساطي[2].

ويُلاحظ أنّ الأدفوي يشير إلى أهمّ ما كان يدّرس في هذه الفترة، ومنها علم الكلام ويبرز اهتمامهم بالحديث الشريف، الذي كان مناط اهتمامهم حتى أُنشئت مدارس خاصة به، عرفت لأول مرّة في التاريخ الإسلامي، ويُلاحظ مساهمة المرأةِ في العناية به وتبريزها في روايته ودرايته[3].

وقد أشار إلى ذلك الأدفوي في أبياته :

وفلانةٌ تروي حَديثاً عالياً وفلانٌ يَرْوي ذَاك عن أسباطِ

وقد كان للمرأة اهتمام في الجانب العلميّ والثقافيّ، وإنشاء المدارس منذ

---

(١) المرجع السابق، ٣١٩:٢.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٥٣٦:١.

(٣) باشا، أدب الدول المتتابعة : ١٥٢.

العصر الأيّوبيّ، فقد أنشأت ست الشام الخانوت أخت الناصر صلاح الدين مدرستين للشافعيّة، وهي الشّاميّة البرّانيّة، والشّاميّة الجوّانيّة(١).

ولم يكن اهتمام المماليك مقصوراً على جانب واحد من جوانب العلم والمعرفة، بل تعداه إلى جوانب كثيرة، فلا بد من إبراز دورهم في التاريخ، ويرى شوقي ضيف أن كتابة التاريخ ومباحثه بلغت في هذا العصر من الرقيّ ما لم تبلغه في أيّ عصر سابق، فظهر فيه كثير من المؤرخين العظام، واختلفت مناهجهم، فمنهم من كتب في التاريخ العالميّ، ومنهم من تناول التاريخ العربيّ الإسلاميّ، ومنهم من تناول تاريخ بعض الدول، ومنهم من تناول تاريخ بعض الأسر، ومنهم من اختصّ بدراسة سيرة بعض الشخصيّات، وكان للسيرة النبويّة الحظ الأوفر، وكثرت كتب التراجم، واهتمّوا بوضع المناهج الدقيقة لكتابة التاريخ ويمثّل على ذلك بمقدمة ابن خلدون التي تحمل منهجاً تاريخياً جديداً يفسّر التاريخ على ضوء الظواهر الاجتماعيّة، مما جعله يكشف عن علم جديد هو علم الاجتماع، كما يمثّل على ذلك بكتب أخرى مثل «معيد النعم ومبيد النقم» «وخطط المقريزي»(٢).

وممّا يميّز هذا العصر من الناحية الثقافية بروز دوائر المعارف الكبرى، وأشهر ما خلّفوه في هذا الجانب دائرتان هما: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، والأولى تقع في نيّف وثلاثين مجلداً، أمّا مسالك الأبصار فيقع في نيّف وعشرين مجلداً(٣).

عُرفت في هذا العصر الإجازات العلمية وهي ما تُسمّى في عصرنا الدرجات العلميّة، وقد عرفوا الإجازات بأنواعها ومنها: الإجازة بالفتيا، وتعني: أن يتدرّج الطالب في مراحل تعلمه حتى يختصّ بعلم من العلوم التي يحبّها، وينال إجازته العلميّة بعد أن يشهد له شيخ بأنه أتم دراسته، وأصبح أهلاً

(١) النعيمي (عبدالقادر محمد النعيمي ت٩٢٧هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٨٨م، ١:٢٧٧.

(٢) مجلة «المجلة»، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط، ١٩٦٧؛ شوقي ضيف، ١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٠.

للتدريس والفتوى، ويُذكر في هذه الإجازة اسم الطالب وشيخه المجيز ومذهبه وتاريخ الإجازة، وجرت العادة أن يكون المكتوب على الأغلب في قطع عريض إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون بقلم الرقاع أسطراً متوالية بين كل سطرين نحو أصْبع عريض[١].

وهناك نوع آخر من الإجازات يسمى الإجازة بعراضة الكتب، فيحفظ الطالب كتاباً في الحديث أو النحو، أو الأدب، أو الفقه، ثم يأخذ بعرضه على شيخه الذي يستمع إليه ويختبر حفظه في عدة أماكن من الكتاب، فإذا ثبت للشيخ أنّ تلميذه أجاد في الحفظ والإجابة كتب له الإجازة، وذكر فيها، عرض عليّ فلان[٢]، والنوع الثالث : هو الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات، ويكون هذا النوع بأن يكتب أحد طلاب العلم استدعاء يرفعه لأحد الشيوخ يطلب فيه الإذن والسماح له برواية كتاب من كتب الشيخ أو أكثر[٣]، ويقوم الشيخ بالردّ على هذا الاستدعاء، ويُلمح في هذا النوع التواضع الشديد الذي يبديه الشيخ، كما ورد في ردّ الصفديّ على القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي يقول «أراد أنْ يشرّف قدري ويعرّف نكري فطلب الإجازة منّي وأنا أحقُّ بالأخذ عنه»[٤].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤:٣٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٤:٣٦٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٤:٣٧٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٤:٣٧٦.

الفصل الأول

الشهاب محمود الحلبي

حياتـــه

أ- اسمه ولقبه وكنيته:

اسمه: محمود بن سلمان بن فهد شهاب الدين أبو الثناء الحلبي الدمشقي[1].

ذكر ذلك بعض المؤرخين، وذكر بعضهم الآخر أن اسم والده سليمان[2]، وأورد الصفدي رواية في كتابه «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» تخالف روايته في كتابه «أعيان العصر»، ولعلّ ذلك عائد إلى التصحيف[3]، وقد تابعه في ذلك ابن تغري بردي، وابن العماد الحنبلي.

والغريب أن هذه القضيّة لم تُبحث بحثاً كافياً، فاكتفى محقق كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» بذكر المصادر والمراجع التي ورد فيها اسم والده سلمان، دون أن يشير إلى المصادر والمراجع التي ورد فيها اسم والده

---

(١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م)، أعيان العصر وأعوان النصر، مكتبة السليمانية، استانبول، طبع بالتصوير عن مخطوط ١٠٨٩، ٣: ٢٤٩.

العمري، أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مكتبة السليمانية، استانبول، طبع بالتصوير عن مخطوط ٣٤٢٥، ١٢: ٣٠١.

ابن شاكر، محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ٤: ٧٢.

ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ١٢٤.

الذهبي، الحافظ (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيدين بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٤: ٧٣-٧٤.

ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤: ٣٢٤.

الحلبي، حسن التوسل، ١٧.

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢: ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩: ٢٦٤-٢٦٥.

ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٦٩.

(٣) الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ١: ٤١.

سليمان، علماً بأنّه أخذ بالرواية التي ترى أن اسم والده سليمان فقال: «هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي»، ولم يورد الرواية التي وردت في «الغيث المسجم»[1]، واكتفى محمود رزق سليم في ترجمته للشهاب محمود الحلبي بقوله: «محمود بن سليمان- وقيل سلمان-» دون أن يبحث القضيّة بحثاً مقنعاً[2]، واكتفى كذلك عمر موسى باشا في حديثه عن الشهاب محمود الحلبي بقوله: «محمود بن سلمان بن فهد بن محمود»[3]، ولم يذكر شيئاً يخالف أنّ اسم والده سلمان، وكذلك فعل جرجي زيدان، فذكر أنّ اسم والده سليمان، دون أن يناقش القضيّة[4]، وكذلك البغدادي ذكر أن اسم والده سليمان [5].

ألقابه:

لُقِّب الشهاب محمود الحلبي بألقاب كثيرة منها: الإمام[6]، وهو من الألقاب التي تطلق على الخلفاء في الأصل، كما يقال في المكاتبات منهم: «من عبد الله ووليّه الإمام الفلاني، ويقع أيضاً في ألقاب أكابر العلماء، وأصله في اللغة الذي يُقْتَدى به، ولذلك وقع على المجتهدين مثل الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة وهم: الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل[7] وهذا اللقب أُطلق على الشهاب محمود الحلبي لأنّه من أكابر العلماء في عصره.

ومن ألقابه، الشيخ[8]، وهو من ألقاب العلماء والصلحاء، وأصله في اللغة

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ١٧.

(٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي، ٣:١٢٤.

(٣) عمر موسى باشا، ابن نباتة المصري، ١٤١.

(٤) جرجي زيدان ، مؤلفات جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الجيل- بيروت- لبنان ١٤٠٢هـ/١٩٨٢، ٤١٩.

(٥) البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ٤٠٧.

(٦) الصفدي، أعيان العصر، ٣:٢٤٩.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:٨.

(٨) الصفدي، أعيان العصر، ٣:٢٤٩.

الطاعن في السن، ولُقِّبَ به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم[1]، وقد كان الشهاب محمود الحلبي من أهل العلم والصلاح.

ولقّب الشهاب محمود الحلبي بالعالم[2]، وهو من ألقاب السلطان، ويَعْني خلاف الجاهل، ثم هو في الحقيقة من ألقاب العلماء، ومن الألقاب المشتركة في الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام، ولكن المختصّ به هو صاحب العلم[3]، لذلك لا غرابة أن يُلقّب الأديب الشهاب محمود الحلبي به.

ولُقِّب بالعلاّمة[4]، وهو العالم للغاية، وقيل إنّه المختص بالمفتي[5].

ولُقِّب بالرئيس[6]، وهو من ألقاب عِليّة الناس وأشرافهم، ويقال فيه «ريّس»، وأصله من الرِّياسة، وهي رفعة القدر، وعلوّ الرتبة، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكتّاب[7].

ولقّب الشهاب محمود الحلبي بالصّدر[8]، وهو من ألقاب التجّار ونحوهم، والمراد من يكون صدراً في المجالس، وصدر كل شيء في اللغة أوّله[9]، ومن هنا لقّب الشهاب محمود الحلبي بالصدر، ولم تذكر المصادر التي بين يديّ أنه تعامل في التجارة أو زاول هذه المهنة.

ومن ألقابه القاضي[10]، وهو من الألقاب التي تُطلق على حكام الشريعة دون غيرهم، إلا أنّه تُوُسِّعَ في استعماله حتى أُطْلِق على بعض أرباب الأقلام[11]، ولكن هل كان الشهاب محمود الحلبي قاضياً؟ يجيب عن ذلك العمري فيقول:

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:١٧.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣، ٢٤٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:٢٠.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣، ٢٤٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:٢١.

(٦) الصفدي، أعيان العصر، ٣، ٢٤٩.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:١٣.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤:١٢٤.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:١٨.

(١٠) الصفدي، أعيان العصر، ٣، ٢٤٩.

(١١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:٢٣

«عُيِّن لقضاء الحنابلة بمصر فامتنع»[١].

ومن ألقابه الكبير[٢]، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام، وهو في الأصل لخلاف الصغير، والمراد: رفيع الرّتبة[٣]، وقد كان الشهاب محمود الحلبي كبيراً في علمه وتواضعه، صاحباً لديوان الإنشاء في دمشق حتى مات[٤].

ومن ألقابه الحافظ[٥]، وهو من ألقاب المحدّثين، وأصله من الحفظ ضد النسيان، وهو خاص بالمحدّثين لحاجتهم الماسّة إلى كثرة الحفظ لمتون الأحاديث وأسماء الرجال وغير ذلك[٦]، وقد كان له مشاركة في علم الحديث وحفظ المتون[٧].

ومن ألقابه البارع[٨]، وهو من ألقاب أرباب الأقلام، وهو من البراعة، وهي النهضة بالشيء والتقدم فيه[٩].

وقد ذكر عنه الصفدي أنّه «أتقن الفنّين نظماً ونثراً، وبرع في الحالين بديهة وفكراً»[١٠].

ومن ألقابه البليغ[١١]، وهو من ألقاب أرباب الأقلام، وأحسن ما يقع في ألقاب ذوي البلاغة من الكتّاب ونحوهم، وهو فعيل من البلاغة، وهي: تأدية كنه المراد بإيجاز لا يخلّ وإطناب لا يملّ[١٢].

وقد كان الشهاب محمود الحلبي كذلك، حتى قال عنه ابن حجر: «فاق

(١) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ٢٠٣:١٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٤:١٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٤:٦.

(٤) العمري، مسالك الأبصار، ٢٠٣:١٢.

(٥) ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ٨٢:٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠:٦.

(٧) العمري، مسالك الأبصار، ٢٠٣:١٢.

(٨) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٨٢:٧.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩:٦.

(١٠) الصفدي، أعيان العصر، ٢٥٠:٢.

(١١) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٨٢:٤.

(١٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩:٦.

الأقران في حسن النظم والإنشاء والكتابة»[١].

ومن ألقاب الشهاب محمود الحلبي حُجَّة الكُتّاب[٢]، ولم يذكر القلقشندي هذا اللقب بعينه، وإنّما وضّح المقصود بحجّة الأئمة، وحجّة البلغاء، وهو من ألقاب أرباب الأقلام، وقال عنه: «وهو بالكتّاب أمسّ»[٣].

وجدير بالشهاب محمود الحلبي أن يُلقّب بهذا اللقب، فقد كان كاتباً بارعاً في عصره، ولقب الشهاب الحلبي بـ(فرد الزمان)[٤]، وهو من ألقاب العلماء والصلحاء[٥].

والألقاب كما يرى القلقشندي لم تزل واقعة على أشراف الناس في القديم والحديث، فلقّب إبراهيم -عليه السلام- بـ (الخليل) ولقّب موسى -عليه السلام- بـ (الكليم)، ولقّب عيسى -عليه السلام- بـ (المسيح) ولقّب يونس -عليه السلام- بـ (ذي النون)[٦]، ودرج في عهد الدولة البويهية التلقيب بالإضافة إلى الدولة، فلقّب أبو الحسن علي بن بويه بـ(عماد الدولة)، وبقي التلقيب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله، فافتتح التلقيب بالإضافة إلى الدين[٧]. ثم تزايد التلقيب به حتى دخل فيه الكتّاب والجند والأعراب، وخرج عن الحدّ حتى تعاطاه أهل الأسواق، ومن في معناهم، ولم تصرْ به ميزة الكبير على الصغير، حتى قال بعضهم:

طلَعَ الدِّينُ مُستَغِيثاً إلى اللّـ ـهِ وقالَ العِبَادُ قَدْ ظَلَمُونِي
يتَسمَّوْنَ بي وحَقِّكَ لا أعْـ ـرِفُ مِنْهُم شَخْصَاً ولا يَعْرِفُونِي[٨]

وكان الكُتّاب في أواخر الدولة الفاطمية إلى أثناء الدولة الأيّوبيّة

---

(١) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.
(٢) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣١.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٦.
(٤) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣١.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٦.
(٦) المصدر السابق نفسه، ٥: ٤١٤.
(٧) المصدر السابق نفسه، ٥: ٤١٥-٤١٦.
(٨) المصدر السابق نفسه، ٥: ٤١٦.

يلقّبون ب (الفاضل) و(الرّشيد) و(العماد)، ثم دخلوا في عموم التلقيب بالإضافة إلى الدين، وفيما يتعلق بأرباب الأقلام فقد كان لكل اسم لقب، كقولهم في محمد: شمس الدين، وفي أحمد: شهاب الدين، وفي أبي بكر: زين الدين، وفي عمر: سراج الدين، وفي عثمان: فخر الدين، وفي علي: (نور الدين)، ثم ترك أعيانهم ذلك، لابتذاله بكثرة الاستعمال، وعدلوا إلى ألقاب أخرى، فقالوا في محمد: (بدر الدين) و(صدر الدين) و(عز الدين)، في أحمد: (بهاء الدين) و(صدر الدين) و(صلاح الدين)[1].

إنّ أكثر ما يهمّنا من هذه الألقاب «شهاب الدين» الذي أُطلق على الكاتب الأديب محمود الحلبي، وهو من ألقاب القضاة والعلماء[2].

والشهاب هو الشّعلة الساطعة من النّار، وهو النجم المضيء اللامع، ويقال: هو شهاب علم أو شهاب حرب[3].

أما التكنّي فإنّ الأقدمين أكثر ما كانوا يعظّمون بعضهم بعضاً في المخاطبات ونحوها بالكُنى، وقد بالغوا في ذلك، ثم رجع أمرهم إلى التعظيم بالألقاب، مع بقاء التعظيم بالكنى عند الملوك والقضاة والعلماء، وقد يُكنّى الرجل بغير أولاده[4]، وقد يكون للرجل كنيتان وأكثر[5]، وكُنّي الشهاب محمود الحلبي بـ(أبي الثناء)[6]. ولم تذكر المصادر التي بين يديّ أنّ له ولداً بهذا الاسم.

ب- مولده ونشأته

اتفق المترجمون من المعاصرين له ومن المتأخرين على تاريخ ولادته، فقد

---

(١) المصدر السابق، ٥: ٤٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٥: ٤٥٩.

(٣) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة شهب.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥: ٤٠٨.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٥: ٤٠٩.

(٦) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.

ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٤٩.

ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٦٩.

العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠١.

ذكر صاحب فوات الوفيات أنه ولد سنة ٦٤٤هـ[1]، ولم يذكر الصفديّ في أعيان العصر عند ترجمته له تاريخ ولادته، وكذلك لم يفعل العمريّ في كتابه «مسالك الأبصار» وقد يكون سبب ذلك أنّ الاهتمام الأكثر كان بتاريخ الوفاة، أما صاحب فوات الوفيات فيذكر أنه ولد بدمشق، مع أنه يعرّفه بـ(شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الدمشقي)[2].

عنى بتربيته والده، فقد كان فقيهاً حنبلياً. حفظ محمود الحلبي القرآن صبياً، وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين، مثل: ابن مالك في النحو، وابن الظهير الأربليّ في الأدب، وتدرّب في الأدب عليه، وأربى عليه، وإن كان قد تلا تلوه[3]، وبرع محمود الحلبي في الكتابة حتى فاق الأقران[4] مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء في دمشق يعيّنونه فيه، وهو في نحو الثلاثين من عمره[5].

ثم نقله الوزير شمس الدين بن السلعوس إلى مصر، وأقام فيها إلى أنْ توفي القاضي شرف الدين بن فضل الله، فجهز مكانه وأقام على المنصب في دمشق ثمانية أعوام[6].

كان الشهاب محمود الحلبي متواضعاً، مع أنّه بلغ منزلة عظيمة في دواوين الإنشاء، وقال عنه ابن حجر «كان مُحباً لأهل الخير، مواظباً على التلاوة والأدعية، والنوافل، وقوراً ساكناً»[7].

---

(١) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩: ٢٦٤-٢٦٥.
(٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٤٩.
(٤) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٣٧.
(٥) ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م، ٦٤٢.
(٦) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
(٧) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.

جـ- ثقافته

يحدثنا العمري عن ثقافته، ويذكر أهم جوانب هذه الثقافة الواسعة، فبالإضافة إلى الأدب الذي فاق فيه الأقران فقد كانت له مشاركة في علم الحديث، وحفظ المتون والرجال.

وكان له اطلاع على مذاهب الأمم في المِلَل والنحل وفرق الخلاف، ومواضع الاختلاف، وضبط التاريخ، واستحضار الوقائع، وذكر نوب الدهر وتصاريف الزمان، وأيام العرب والعجم ومعرفة النسب، ودول الخلفاء والملوك، وأحوال الوزراء والكتّاب والأعيان، وأسماء الكتب المصنّفة والمجامع المؤلفة قال فيه الأديب البليغ الطنغا الجاولي:

قالَ النُحاةُ بأنَّ الاسمَ عندَهُـمُ   غَيرُ المُسمّى وهذا القولُ مردُودُ
الاسمُ عينُ المُسمّى والدَّليلُ عَلى   ما قُلْتُ أنّ شهابَ الدِّينِ محمودُ[١]

ويرى شوقي ضيف أنه أكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة[٢].

كانت له معرفة بالخطوط، وكان ملمّاً بكتابة المكاتيب الحكميّة، وكانت له معرفة بالأمثال: الجاهلي منها والمولد، والملوكي والسوقي، وأمثال العوام والخواص، والعربي والعجمي[٣].

ووصفه ابن حجر بأنّه كان محباً لأهل الخير، وقوراً ساكناً، وله قصائد كثيرة تدخل في ثلاث مجلدات، وأما المقاطيع فقليلة، ونثره يدخل في ثلاثين مجلدة[٤].

وذكر صاحب فوات الوفيات أن الشهاب الحلبي قد تقدم ببلاغته وبديع كتابته وإنشائه وسكونه وتواضعه[٥].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩: ٢٦٤-٢٦٥.
الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٦١.

(٢) ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، ٧٨٢.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٤) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.

(٥) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

أتقن الشهاب محمود الحلبي قوانين ديوان الإنشاء مما لم يجمعه سواه، ولو تفرّد بواحد لكفاه[١].

وكانت للشهاب محمود الحلبي مكانة علمية وأدبية كبيرة في عصره، ويكفي للتدليل على هذه الأهمية أنّه عمل صاحباً لديوان الإنشاء[٢]، ولصاحب ديوان الإنشاء في ذلك العصر مكانة عالية يكاد لا يكون عند الملك أخصّ منه، ولا ألزم لمجالسته[٣].

ولم تكن أهمية هذا المنصب مقصورة على العصر المملوكي، فلم يكن يتولّى هذا المنصب في الدولة الفاطمية إلا أجلّ الكتّاب بالبلاغة.

وكان يخاطب صاحب ديوان الإنشاء بالأجلّ، وهو أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات، وله صاحب من الأمراء والشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة الشأن، يحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة[٤]. وقد ازدادت مرتبته في العصر المملوكي، فإليه ترد المكاتبات، وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان، وجميع ما يعلّم عليه السلطان من جليل وحقير في مضمونه، وإليه تُلقى أسرار المملكة وخفاياها، وقد كان يُعبِّر عنه في زمن بني أميّة بالكاتب، وفي زمن العباسيين بالوزير، وكان في الزمن الأول يُلَقَّبُ بصاحب ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات، وفي العصر المملوكي لقّب بصاحب ديوان الإنشاء، أو صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية[٥].

ولأهمية هذا المنصب فقد اشترطوا فيمن يتولاه شروطاً منها: أن يكون صبيح الوجه، فصيح الألفاظ، شديد الذكاء، متوقّد الفهم، محباً لأهل العلم

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٢) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٣٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١: ١٣٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١: ١٣٦-١٣٧.

والأدب. وأن يغلب هوى الملك على هواه ما لم يرَ في ذلك خللاً على المملكة[١].

وكاتب الإنشاء يجب ألا يستغني عن علم، ولا يسعه الوقوف عند فن، وقد قيل «إنّ صاحب ديوان الإنشاء يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون، حتى إنه يحتاج إلى ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة، فما ظنك بما فوق هذا وذاك؟»[٢].

ولكن حاجته إلى العلوم ليست في درجة واحدة، فهو بحاجة إلى اللغة مصدر الألفاظ، وإلى النحو الذي به يستقيم الكلام، وعلوم البلاغة على اختلافها[٣].

وقد فصّل القول فيها ابن الأثير، فذكر من العلوم والفنون التي على الكاتب أن يتعلق بها علم العربية من النحو والصرف، وذكر منها معرفة أمثال العرب وأيامهم، والوقائع التي حدثت، والاطلاع على المؤلّفات السابقة في هذا المضمار، ومعرفة الأحكام السلطانية، وحفظ القرآن الكريم، وقد جعله ابن الأثير النوع السادس[٤] بينما نلاحظ أن الشهاب محمود الحلبي جعله في المرتبة الأولى، وقال: «فأول ما يبدأ به من ذلك، حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبّر معانيه»[٥].

وقد جعل ابن الأثير حفظ الأخبار النبوية والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال في المرتبة السابعة بعد حفظ القرآن الكريم[٦]، بينما نرى الشهاب محمود الحلبي قد جعلها في المرتبة الثانية بعد حفظ القرآن الكريم، وقال: «ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية، صلوات الله على قائلها وسلامه وخصوصاً في السِّيَر والمغازي والأحكام»[٧].

وبعد ذكر هذه الأدوات التي على كاتب الإنشاء أن يلمّ بها، هل كان الشهاب

(١) المصدر السابق، ١: ١٣٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١: ١٨١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١: ١٨١.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٩.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٧٢.

(٦) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٩.

(٧) الحلبي، حسن التوسل، ٢٨.

محمود الحلبي ملماً بها حاذقاً لها؟ إن الجواب عن هذا السؤال نجده في شهادات تلاميذه، ومنهم العمري؛ فقد ذكر أنه لم يكن مثله في إعطاء كل مقام حقه، من غير زيادة أو نقص، وذكر ملاحم الحروب ورقّة الغزل للطف تخيّله، والاستعارات، وغرائب التشبيهات[١].

وكان الشيخ محمود الحلبي من الكَمَلَة، ويوضح الشيخ الصفدي معنى الكملة يقول: « الذين يقومون بالأدب علماً وعملاً في النّظم والنّثر، ومعرفة بتراجم أهل عصره، وممّن تقدّمهم على اختلاف طبقاتهم، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة[٢].

جمع محمود الحلبي بين النظم والنثر، ويعلّل أحد الدارسين هذه الظاهرة التي وجدت في هذا العصر بأنّ بعضهم كان يشغل مناصب إدارية وقضائية وكتابية، وهذه الوظائف بحاجة إلى علم ودراية في أمور الكتابة والإنشاء والتوقيع في الديوان[٣].

ويرى محمود رزق سليم أن لدى الشهاب محمود الحلبي خبرة واسعة في صناعة الإنشاء، هيّأتها له عدة ظروف واستعدادات أهمها: معاشرته لكثير من شيوخ الإنشاء، ومعرفته لمناهجهم ومذاهبهم ولثقافاتهم الواسعة التي ألمّوا بها، وعمله في ديوان الإنشاء مدّة تقارب نصف قرن، فهو لم يقعّد قواعدها إلا بعد أن مارسها عملياً، وقد لخصها بنقاط: الثقافة الواسعة، وحسن الملاحظة، ثم المران والخبرة وأخيراً الرغبة في التقنين والتشريع[٤].

وشهد الشعراء المعاصرون له بتفوقه فقال السرّاج الورّاق:

يا إمَاماً ألفاظُهُ الغُرُّ فِي الأ   سْمَاعِ تُزْرِي بالدُرِّ في الأَسْمَاطِ

(١) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٤.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٥.

(٣) باشا، عمر موسى، ابن نباتة المصري، ٣٠٧.

(٤) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، ٣: ١٣٩.

وشِهَاباً يُجَاوِزُ الشُّهبَ قَدْراً فَغَدَتْ عَنْ عُلاهُ ذَاتَ انْحِطَاطِ[1]

ويرى الصفديّ أنّ الشهاب الحلبي تقدم على غيره من أدباء عصره، فيقول: «لم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره، لأنه كان ناظماً، ناثراً، عارفاً بأيام الناس، وتراجمهم، ومعرفة خطوط الكُتّاب، وله الروايات العالية بأمّات كتب الأدب، ورأى الأشياخ وأخذ عنهم، وعُيّن في وقتٍ بالدّيار المصرية لقضاء الحنابلة، وهو أحد الكَمَلَة الذين عاصرتهم وأخذت عنهم[2].

والمتمعن في هذه الصفات يراها قريبة من الصفات التي اشترطها ابن الأثير في كاتب الإنشاء، فقد جعل المعرفة بأيام الناس ووقائعهم من مستلزمات كاتب الإنشاء، وهي صفة من صفات الشهاب محمود الحلبي، وجزء من ثقافته الواسعة المتنوّعة المصادر. نظم الشعر في المديح، والمديح النبوي، والوصف، والغزل، واللغز، والتهنئة، والإخوانيات، والرثاء، ووصف الحروب، والفخر والحماسة[3].

ومن خلال كلام تلميذه الصفدي يتبيّن لنا أنّ له باعاً طويلاً في المقامات، فقد قرأ عليه الصفدي مقامات الحريري[4].

وقرأ الصفدي عليه بعض ديوان المتنبي[5]، وقرأ عليه ألفية ابن مالك، ومن هنا يتبيّن أنّ الشهاب محمود الحلبي كان واسع الثقافة، تزوّد بمعظم جوانب الثقافة المعروفة في عصره، وكانت له آراء نقدية واضحة، لكن سنرجئ الحديث عنها إلى الفصل الذي يتحدّث عن آثاره الأدبية عند مناقشة كتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل[6].

---

(١) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢-٨٣.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥٠.

(٣) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، ٣: ١٣٩.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥١.

(٦) ينظر الفصل الثاني من هذا البحث.

د- أهم شيوخه:

يذكر الصفدي أن الشهاب محمود الحلبي سمع من الشيخ جمال الدين بن مالك(٢) وجمال الدين هو: محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الجياني النحوي، صاحب التصانيف المشهورة، مثل: الكافية الشافية وشرحها، والتسهيل وشرحه، والألفية التي شرحها ولده بدر الدين شرحاً مفيداً، ويذكر ابن كثير أنه من مواليد سنة ٦٠٠هـ، وأقام بحلب مدّة، ثم بدمشق، وكانت وفاته سنة ٦٧٢هـ(٣).

وذكر ابن فضل الله أن الشهاب محمود الحلبي قد أخذ النحو عن ابن مالك(٤).

ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم الشهاب محمود الحلبيّ، ابن عبد الدايم(٥)، وهو زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم، مسند الشام وفقيهها، ومحدّثها الحنبلي المذهب الناسخ، وهو من مواليد سنة ٥٧٥هـ، سمع بحران من شيخها ابن تيمية، وعني بالحديث، كان يكتب بسرعة خطاً حسناً، ويمكن أن نستنتج أنّ ابن عبد الدايم أثّر في الشهاب محمود الحلبي في هذا المجال تأثيراً واضحاً، حيث ورد أنّ الشهاب محمود الحلبي كانت له معرفة بخطوط الكُتّاب(٦). وعرف ابن عبدالدايم بكثرة الكتابة، بحيث كان يكتب في اليوم الكرّاستين والثلاثة إلى التسعة، وكتب تاريخ دمشق لابن عساكر مرّتين، وذكر أنّه كتب بيده ألفي مجلدة، روى عنه الأئمة الكبار، والحفّاظ المتقدمون والمتأخرون مثل: ابن دقيق العيد، وابن تيمية(٧).

ويلتقي التلميذ مع شيخه في المذهب، فقد كان الشهاب محمود الحلبي

---

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٤٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣: ٢٨٣.

(٤) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ١٨.

(٦) ابن حجر، الدرر، ٤: ٢٢٤.

(٧) ابن العماد، شذرات الذهب، ٥: ٣٤٠.

حنبلياً، حتى إنّه عُيّن لقضاء الحنابلة بالديار المصرية.

ومن شيوخه الرضى بن البرهان، وهو ابن البرهان العدل الصدر رضيّ الدين إبراهيم بن عمر بن مضر بن فارس المصري الواسطي التاجر السفّار، ولد ٥٩٣هـ، وسمع صحيح مسلم، وسمع منه خلق كثير بدمشق ومصر والثغر واليمن، توفي في الحادي عشر من رجب سنة ٦٦٤هـ[١].

ومن شيوخه الشيخ شمس الدين بن أبي عمر فقد أخذ الفقه عنه[٢]، وهو أبو محمد عبدالرحمن بن القدوة الزاهد أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي ثم الصالحي الحنبلي، وهو من مواليد سنة ٥٥٩هـ، وكانت له عناية بالحديث واهتمام بالخط، وانتهت إليه رياسة المذهب الحنبلي بل رياسة العلم في زمانه.

وينقل ابن العماد ما كتبه ابن تيمية عن وفاته حيث ذكر: «توفي سيّد أهل الإسلام في زمانه، وفريد عصره ووحيد زمانه»[٣]. فلا غرابة إذن أن نجد الشهاب محمود الحلبي قد أخذ عنه الكثير من صفاته، فقد كان الشهاب محمود الحلبي محباً للخير ولأهله، مواظباً على النوافل والتلاوة والأدعية، يستحضر ذلك، ويذكر الموت دائماً، وعنده خوف من الله تعالى وذكر للموت[٤]:

هَلْ بَعْدَ سَبْعينَ لي إلا التأهُّبُ مِنْ ... أجْلِ الرَّحيلِ بإسْراجٍ وإلْجَـــامِ
النّاسُ يَرْجُونَ ما قَدْ قَدَّمُوا لِغَـدٍ ... والْخَوفُ مِنْ سُوءِ ما قَدَّمْتُ قُدَّامي
ولَسْتُ أرْجُو سِوَى عَفْوِ الإلهِ وأنْ ... ألْقَى السَّلامَةَ في الأُخْرَى بإسْلامِي
بلْ وَحُبُّ الّذي أرْجُو ليَشْفَعَ لي ... غَداً إذا جِئْتُهُ أسْعَى بآثامِـــي[٥]

ومن شيوخه مجد الدين بن الظهير الأربليّ الحنفي[٦]، وهو العلامة مجد

---

(١) المصدر السابق، ٥: ٣١٥.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ١٨.
(٣) ابن العماد. شذرات الذهب، ٥: ٣٧٦-٣٧٩.
(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥٠.
(٥) سلام، محمد، زغلول، الأدب في العصر المملوكي، ٧٧.
(٦) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٤٩.

الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الأربليّ الحنفيّ، الأديب، ولد سنة ٦٠٢هـ بأربل، وسمع من السعاوي وله ديوان مشهور، وكانت وفاته سنة ٦٧٧هـ[١].

وهنا يبدو أنّ تأثّر الشهاب محمود الحلبي به اقتصر على الجانب الأدبي، فقد حذا حذوه في النظم، وسلك طريقه. إلا أن الصفديّ يرى أن التلميذ بذّ أستاذَه في هذا المضمار[٢].

وبالجملة نرى أن هذه النخبة من الشيوخ الأجلاّء قد كان لها الأثر الكبير على الشهاب محمود الحلبي في التديّن، وحب العلم، وتنوع الثقافة، فلم يقتصر على جانب واحد من جوانب العلم والمعرفة، ولكن تأثُّر الشهاب محمود الحلبي لم يكن تأثّر المقلّد، وإنما تأثّر الذكي النابه، الذي شهد له أصحاب الخبرة بتفوقه في مجالات عدة، ففي مجال الخطّ قال عنه الصفديّ:

يُنَمْنِمُ الخَطَّ لا يَجْتابُ أحْرُفَــــهُ   والوَشْيُ مَهْما حَكاها مِنْه يَجْتابُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقيماً بَعْدَما سَجَدَتْ   فيهِ المَعاني لقُلْتُ السَّطْرُ مِحْرَابُ[٣]

والأدلّة على نباهته كثيرة، فقد عُيّن لقضاء الحنابلة وهو صغير السِّنّ، ثم عُيِّن لكتابة الإنشاء وهو في الثلاثين، ويقول ابن حجر: إنه كان يذكر أن له إجازة من ابن خليل[٤].

هـ - أشهر تلاميذه

كان للشهاب الحلبي فضل على كُتّاب زمانه -كما ذكر ابن فضل الله العمري-، فقد تخرّجوا عليه وتدرّبوا بين يديه[٥].

وقد أشاد به تلاميذه فقال العمري: «كان كاتباً لا يُعرف له نظير، ولا

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ٥: ٣٥٩.
(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٤٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٠.
(٤) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.
(٥) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

يعرف مثله في الزمن الأخير»[1]. ولمّا كان الشهاب محمود الحلبي يحتل هذه المكانة المرموقة بين العلماء وفي أكثر من مجال من مجالات العلم والمعرفة، فمن الصعب أن نحدّد الذين تتلمذوا على يديه، ولكن قد يكون من المناسب أن نمثل على هذه الأعداد الكثيرة باثنين من الذين عُرف عنهما ملازمته، والأخذ عنه، وهما: العمريّ والصفديّ.

والعمري هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ) فهو يذكر وبصراحة فضل الشهاب محمود الحلبي عليه، وعلى كتّاب زمانه، ويقول: «... وهو شيخي في الأدب، وإن لم يكن لي أباً مثل أب لزمته منذ قدم دمشق حتى مات، أقرأ عليه، وأقرئ مما لديه»[2].

ويبدو أنه اتّصل به بعد عودته من القاهرة سنة ٧٠٨هـ، وتتلمذ على يديه طيلة المدة التي قضاها في دمشق إلى أن وافته المنيّة سنة ٧٢٥هـ.

ولد هذا العالم في شوال سنة ٧٠٠هـ، وسمع بالقاهرة ودمشق من جماعة، وتخرّج في الأدب بوالده وبالشهاب محمود الحلبي، وهو صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، في سبعة وعشرين مجلداً، توفي بالطاعون يوم عرفة[3]، ويذكر ابن كثير أنه كان يُشبّه بالقاضي الفاضل في زمانه، وكان يحب العلماء والفقراء، توفي بدارهم داخل باب الفراديس، وصُلّي عليه بالجامع الأموي[4].

ومن تلاميذه صلاح الدين أبو الصّفا خليل بن أيبك بن عبد الله الصفديّ الشافعيّ، ولد بصفد سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة، أخذ النحو عن أبي حيّان، والأدب عن ابن نباتة والشهاب محمود الحلبي، ولازم الشهاب محمود الحلبي، ومهر في الأدب، وكتب الخط المليح، وقال النظم الرّائق، وألّف المؤلّفات،

---

(١) المصدر السابق، ١٢: ٣٠١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٣٠٢.
(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ١٦٠.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤: ٢٤٠-٢٤١.

وباشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق، ثم ولي كتابة السر بحلب[1].

ويلاحظ من خلال ما ذكره ابن العماد عن الصفدي أنّ الصفدي أجاد في أخذه عن شيخه في الأدب، والنظم، والخط الذي كان له منزلة بين الفنون في ذلك العصر، وسلك طريق شيخه في العمل، فعمل في كتابة الإنشاء وأجاد فيها، ومن ميزات التعليم في هذا العصر أن الطالب كان يتلقى علومه على عدد من الأساتذة، فالصفدي أخذ الأدب عن الشهاب محمود الحلبي، بينما أخذ النحو عن أبي حيّان، فقد قرأ الصفدي المقامات الحريرية على الشهاب محمود الحلبي. ويذكر ذلك الصفدي قائلاً: «وكنت قد قرأت عليه المقامات الحريرية، وانتهيت منها إلى آخر المقامة الخامسة والعشرين في سنة ٧٢٣هـ»[2].

وقرأ عليه كتابه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل»[3]. وقرأ عليه بعض ديوان أبي الطيّب، وقرأ عليه ألفيّة ابن مالك[4]. وقرأ عليه بعض ما كتبه الشهاب محمود الحلبي مثل كتاب أنشأه في وصف الخيل[5].

وكان الشهاب محمود الحلبي يعلّمه كيف ينظم الأبيات في المعارضات، فمما قاله له بعد أن سمع بعض أبياته التي يعارضه فيها: «نفس جيد دالٌّ على التمكّن والقدرة، ولكن اجتهد إذا عارضت أحداً أن يكون قولك في وزنه ورويّه»[6].

وكان الصفدي كثيراً ما يُنشد أصحابه أبياتاً للشهاب محمود الحلبي، ثم يعارضها بأبيات من عنده، ولكنه يعترف في كل مرة بأن الشهاب محمود الحلبي شيخُهُ في الأدب، فلما طلب أصحاب الصفدي منه معارضة أبيات للشهاب الحلبي اعتذر في البداية وقال: «هذا يتعذّر؛ لأن هذا استوفى المعنى ولم يترك فيه

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٢٠٠.
(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٢.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٣.
(٥) الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ١: ٤١-٤٢.
(٦) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥٤.

فضلاً، وجودّ النظم، فألفاظه في غاية الفصاحة، وتراكيبه في غاية الانسجام»[1]. لكنه عاد فعارضها بأبيات في المعنى نفسه.

وقد كانت للشهاب محمود الحلبي مساجلات مع بعض شعراء عصره، نذكر منهم ابن نباتة، وهو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن عبد الرحيم بن نباتة، المولود سنة٦٧٦هـ، والمتوفّى سنة٧٦٨هـ[2]. وكان الشهاب محمود الحلبي أول ممدوحيه بعد الملك المؤيد[3]، وقد افتتح ابن نباتة باسمه كتابه «سجع المطوق» وترجم له ترجمة وافية ومدحه وأطرى عليه كلّ الإطراء، وقال: «ما أبدع محاسنَه وأبدع فنونَه التي كمْ بها عن الفكر محاسنه، وما شئْتَ مِنْ عربيّةٍ تفرّد فيها فِكرُه الذربُ، وانْتَسَبَتْ زَهْرَتُها إليه انْتِسابَ رَيْحانة لابن معدي كربٍ، وجاوَرَتْ مِنْ فِكْرِه لَيْثَ غابٍ أشبَ، إذْ جاوَرَتْ مِنْ غيرِه جُحْرَ ضَبٍّ خَرِب، ولُغَة هُوَ جَوْهَرِيّ تَنْكِيتِها، وَمَعانِي نُطْقٍ هُو المُفصِحُ بها، تَطوي الطائي فَلا يَنفعُ عندنا ذِكرى حبيبٍ، ولا يُستَحسنُ عبثُ الوليد، وتصانيفُ تملأُ الأذهانَ فَهْماً، وتَسَعُ فنونَ الآدابِ علماً، ومواقعُ أقلامٍ تُخرسُ الأفواهَ، توسعُها رَشْفاً ولثْماً، كتبت الأنداءَ براعتُه، وكتبت مصرَ والشامَ يراعتُه، فكِلا الإقليمين أثبتَ لأقلامه فضلَها، وكِلتا الجنتين آتت أُكُلَها، حللت بهذا حلةً ثم حلة بهذا، فطابَ الواديان كلاهُما، لا زالتْ هِمَمُ فضائِله تبغي صُعُوداً، وتُعْيِي جاحِداً، وتُتْعِبُ حَسُوداً، وتعلم الشّهب عنْ سِنانِه وسَناه أنْ ليس كلُّ شهابٍ محموداً»[4].

وقد امتدحه بعدّة قصائد كان منها قصيدته:

مَدحْتُكَ لا أبْغِي ثَراءً بَذَلْتَهُ	إلَيَّ ولكِنْ رِفْعَةً بثَراكا
بِعَيْشِكَ إلا مَا تَأمّلْتُ صَفْوَمَا	مَنَحْتُكَ مِنْ وُدِّي بِعَيْنِ رِضاكا

---

(١) المصدر السابق، ٣: ٢٥٦.

(٢) ابن حجر، الدرر، ٤: ٢١٦-٢١٨.

(٣) باشا، عمر موسى: ابن نباتة المصري، ١٤١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ١٤١-١٤٢، نقلاً عن سجع المطوق، مخطوط مصوّر في مجلد واحد بدار الكتب المصرية، رقم ٩٧٦٦ أدب، و٣٨ ، ٣٩.

فَأُقْسِمُ ما ضَمَّتْ كَحُبِّكَ أضلُعي ولا استَنْشَقَتْ رُوحي كَنَشْرِ هَواكا

أكادُ أُطيقُ السَّيْلَ أدفَعُ صدْرَهُ ولا أدَّعِي أنِّي أُطِيقُ جَفاكَا[1]

وهذه الأبيات تؤكد الحب المتبادل بينهما، فهذا ابن نباتة -مع علو شأنه وعظيم قدره- يؤكدُ ويُقسِمُ أن حبَّه وتقديرَه للشهاب محمود الحلبي مقدَّم على حبِّ الآخرين وتقديرهم، ولعل عجز البيت الرابع يشير إلى أن الشهاب محمود الحلبي كان عاتباً عليه، ولكن ابن نباتة يؤكد أنه يمكن أن يطيق السيل يدفعه بصدره، لكنه لا يطيق هجره وعتبه عليه.

و - أولاده وأحفاده

من أولاده الذين ساروا على دربه: إبراهيم بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي جمال الدين ولد سنة ٦٧٦هـ فهو أصغر من أبيه باثنتين وثلاثين سنة، فقد عاصره وأخذ عنه، وسمع عن الدمياطي، وحدّث عن أبيه وكتب في الإنشاء وعمل في كتابة السرّ في حلب مدة ستة عشر عاماً، ثم ناب في ديوان الإنشاء بمصر عن علاء الدين بن فضل الله العمري.

وفيه يقول الشريف ابن قاضي العسكر:

إنَّ مَحْمُوداً وابنَهُ بهما تَتَشَرَّفُ الرُّتَبُ

فَدِمَشْقُ بِذا سَمَتْ وبِهذا سَمَتْ حَلَبُ[2]

توفي يوم عرفة سنة ٧٦٠هـ[3].

ومن أولاده الذين سلكوا طريقه، ونهجوا نهجه، واهتموا بالكتابة الديوانية بشكل خاص محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الرئيس شمس الدين بن الشهاب محمود، ولد سنة ٦٦٩هـ، وهو أصغر من أبيه بخمسة وعشرين عاماً، لذلك لازمه وأخذ عنه الخط، وباشر كتابة السر، وكان يرافق النائب إذا

(١) ابن نباتة: جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نباتة (ت٧٦٨هـ): ديوان ابن نباتةالمصري، المطبعة اليوسفية بالقاهرة، ١٩٥٨، ٣٦٤.

(٢) ابن حجر، الدرر، ١: ٧٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١: ٧٢.

خرج للصيد، ثم تولى مكانه بعد موته، وأخذ عن والده التواضع، وأخذ عنه رقّة الغزل، ومات سنة٧٢٧هـ(١).

ومن أحفاده الذين تأثّروا به وعاصروه وأخذوا عنه محمد بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، المولود سنة ٦٩٩هـ . ولي بدمشق نظر الجيش، ونظر الأوقاف، وعرف بالجود، ومات سنة ٧٧٤هـ(٢).

ومنهم محمد بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم المصري تقي الدين، كان موقّعاً للدست بالقاهرة، توفي سنة ٧٧٧هـ(٣).

ومن أحفاده محمود بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي عز الدين بن شمس الدين بن الشهاب، ولد سنة ٧٠١هـ، وقد عرف أنه كان محدّثاً وسمع له بعض كبار العلماء(٤).

ومن أحفاده أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي. ولد سنة٦٩٣هـ، تعانى الكتابة كغيره من أفراد أسرة الشهاب محمود الحلبي، ففاق الرفاق في حسنها، ونظم الشعر وترسل، وتولّى السرّ بدمشق سنة ٧٢٩هـ، عوضاً عن محيي الدين بن فضل الله بعد أن نقل محيي الدين إلى مصر، حضر إلى القاهرة بصحبة النائب فخلع عليه الناصر، وكان كثير التجمّل في ملبسه ومأكله ومركبه، عظيم الهمّة، له نظم حسن، وفي سنة ٧٣٢هـ حضر إلى مصر فأقرّه السلطان في كتابة السر بمصر، وحجّ مع السلطان، فلما عاد طلب الرجوع إلى دمشق فوافق السلطان وفرح «تنكز» بعودته وعانقه وقال: «مرحباً بمن يحبُّنا ونحبُّه»، ثم عزله «تنكز» فكتب السلطان إلى «تنكز»: «إما أن تدعه يوقع قدّامك، وإما أن تجهزه، وإما أن ترتّب له ما يكفيه» فرتّب له راتباً، فلما أمسك «تنكز» باشر توقيع الدست، مات في

---

(١) المصدر السابق، ٤: ٢٥١-٢٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٤: ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٤: ٢٣٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٤: ٢٣٨.

القدس سنة ٧٤٤هـ[1].

ومن النساء زاهدة بنت إبراهيم بن محمود الحلبي وكانت محدّثة، توفيت في القرن الثامن للهجرة[2].

وواضح أن أسرة الشهاب محمود الحلبي أسرة لها مكانتها العظيمة في تلك الفترة، فقد عُرفت بالعلم والكتابة والتديّن والأخلاق الطيبة الحميدة، وقد شهد لهم بذلك بعض أدباء العصر المشهورين، فهذا ابن نباتة -مع علو شأنه وجليل قدره- يبعث نسخة توقيع من إنشائه إلى القاضي علاء الدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود عند موت أبيه يقول فيها: «رسم بالأمر الشريف لا زال يجبر ببرّه مصاب الأبناء بآبائهم، ويسرّهم بما يتجدّد في كواكب الشرف من علائهم، ويعتق قلوبهم من إسار الحزن حتى ينشأوا من الصغر على أنساب عقّتهم وولائهم أن يستقرّ اعتماداً على نجابته الشاهدة، ومخايل همته السائدة، واستناداً إلى أصالتها التي لا يبدي فرعُها إلا زكيّ الثمر، ولا يهدي بحرها إلا أنفس الدرر، ولا يخلف أفقها إلا كبيراً تستصغر الأبصار رؤيته، والذنب للطرف لا للكوكب في الصغر، وعلماً أنّه من أسرة شهابيّة لا يُهتدى في الإنشاء إلا بنورهم، ولا يُتَحدّث في العجائب إلا عن بحورهم، ولا ينبت أقلام البلاغة إلا عشبهم، ولا تعشب روضات الصحائف إلا سحبهم، ولا تُثْبت أفلاك الكتابة إلا كتبهم، صغيرُهم في صدور الإنشاء كبير، ومُلَقَّنُ آيات فضلهم يروي أعداد الفوائد عن «ابن كثير» وعليُّهم بعد «أبي بكر» تقول الحامد لسلفه وخلفه: منّا أمير ومنكم أمير، وأنّه اليوم «لا سيف إلا ذو الفقار» من أذهانهم، ولا فتى إلا علي من ولدانهم، وأنّ فرخَ البط سابح، وسعد القوم للأنداد ذابح، والله تعالى يزيد في فضله، ويتمّ عليه النعمة كما أتمّها على أبيه من قبله، ويفقّهه في السّيادة حتى يحسن في الفخار ردّ الفرع إلى أصله»[3].

---

(١) المصدر السابق، ١: ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) كحالة، رضا، أعلام النساء، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٩٥٩م، ٢: ٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٢٩٢-٢٩٣.

ز – وفاته:

يذكر الصفدي أن الشهاب محمود الحلبي أقام في القاهرة إلى أن توفي القاضي شرف الدين بن فضل الله بدمشق فجهز مكانه إلى دمشق فأقام فيها إلى أن توفاه الله ليلة السبت في الثاني والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وسبعمائة بدار القاضي الفاضل بدمشق داخل باب النطقانين، وصلي عليه ضُحى يوم السبت بالجامع الأموي، وكان ممن صلى عليه نائب الشام الأمير سيف الدين «تنكز» والأعيان خارج باب النصر، ودفن بتربته التي عمرها لنفسه بالقرب من مسجد ابن يعمور، وصلي عليه صلاة الغائب بمكة والمدينة(١).

ولا يختلف ابن شاكر الكتبي مع الصفدي غير أن ابن شاكر يحدد مكان دفنه في سفح قاسيون(٢) دون أن يشير إلى تاريخ وفاته، ويُخَيَّل إليّ أن ابن شاكر تأثر برواية الصفدي مع أن كليهما من وفيات ٧٦٤هـ، ولكن الصفدي لازمه أكثر، ويؤكد ذلك ابن حجر الذي يروي في معرض حديثه عن وفاة ابنه إبراهيم ابن محمود الحلبي أن الصفدي أخبر به(٣).

ويذكر ابن العماد أنّ وفاة الشهاب محمود الحلبي كانت ليلة السبت في الثاني والعشرين من شعبان، ويذكر أنّه دفن بتربته التي أنشأها بالقرب من اليعمورية(٤).

أما العُمَري فلا يفصِّل ذلك كثيراً، ويذكر أنه أقام في دمشق حتى مات(٥).

ويحدد الذهبي تاريخ وفاته بسنة خمس وعشرين وسبعمائة في دمشق عن إحدى وثمانين سنة ويقول «وصلّى عليه ملك الأمراء»(٦).

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥٠.

(٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

(٣) ابن حجر، الدرر، ١: ٧٢.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٧٠.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٦) الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيدين بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م، ٧٣-٧٤.

أما صاحب السلوك فلا يذكر تاريخ وفاته بالتحديد، غير أنه يحدِّد مكان الوفاة في دمشق، ويرى أنه مات بعد أن عُمِّر إحدى وثمانين سنة[١]. ولا يختلف ابن كثير في روايته مع سابقيه فيقول: «توفي ليلة السبت في الثاني والعشرين من شعبان في منزله قرب باب النطقانين، وهي دار القاضي الفاضل، وصلي عليه بالجامع ودفن بتربته التي أنشأها بالقرب من اليعمورية، وقد جاوز الثمانين رحمه الله»[٢].

إن المصادر التي بين يديَّ تكاد تجمع على سنة وفاته ومكانها، وقد تابع ذلك الذين كتبوا عنه فيما بعد[٣].

نختم حديثنا عن حياة الشهاب محمود الحلبي ومماته بقصيدة قيلت في رثائه، يقول الصفدي: «ولمّا مات -رحمه الله تعالى- كنت بالديار المصرية فقلت أرثيه ولم أكتب بها إلى أحد:

ما حُزْنُ قَلْبيَ في البَلْوى بِمَحْدُودِ ... وَلا فُؤاديَ في السُّلْوى بِمَعْدودِ
فلا تَذُمَّ امرأً يَبْكي الدِّماءَ عَلى ... أبي الثَّناءِ شهابِ الدِّينِ مَحْمودِ
يا ساريَ اللَّيْلِ يَبْغي الفَضْلَ مُجْتَهِداً ... ارجعْ وحُطَّ عَنِ المَهْرِيَّةِ القُودِ
ماتَ الإمامُ الذي كُنّا نَؤُمُّ لَهُ ... فيما نُؤَمِّلُهُ مِنْ غَيْرِ تَفْنيدِ
وَأَقْفَرَتْ ساحَةُ الآدابِ وانْدَرَسَتْ ... مَعالِمُ العِلْمِ مِنْهُ بَعْدَ تَشْييدِ
أما تَرى كَيْفَ كُتّابُ الأنامِ غَدَتْ ... أوْراقُهُمْ وهْيَ فيهِ ذاتَ تَسْويدِ
هُوَ الإمامُ الذي لمّا سَما كَرَماً ... ألْقَتْ إلَيْهِ المَعاني بِالأقاليدِ
طُوفانُ عِلْمٍ جَرَتْ فيهِ السَّفينَةُ مِنْ ... آدابِهِ واسْتَوَتْ مِنْهُ على الجُودِ
فلَيْسَ باغي مَعاليهِ بِذي ظَفَرٍ ... ولَيْسَ راجي أياديهِ بِمَرْدُودِ[٤]

(١) المقريزي، السلوك، ٢٦٩-٢٧٠.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤: ١٢٤.
(٣) زيدان، جرجي، مؤلفات جرجي زيدان الكاملة، ١٤: ٤١٩.
الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط٨، ١٩٨٩م، ١٧٢.
باشا، عمر موسى، أدب الدول المتتابعة، ١٤١.
البغدادي، هدية العارفين، ٦: ٤٠٧.
(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥١.

الفصل الثاني

آثار الشهاب محمود الحلبي الأدبيّة

أشار تلاميذه ومعاصروه ومنهم الصفدي إلى أنه كان ممن أتقن الفنّين نظماً ونثراً، وذكروا أن قصائده مطوّلة فائقة ليس يرتفع فيها ولا ينحط، وأنها تقع في ثلاثة مجلدات أو أربعة، ولم يجمعها أحد، وقد وصفها الصفدي بقول ابن الساعاتي:

نَاطِقَاتٌ بِكُلِّ مَعْنَىً يُضَاهِي نُكَتَ السِّحْرِ في عُيونِ المِلاَحِ

مِنْ نَسيبٍ يهزُّ عَاطِفَةَ المَجْدِ وَمَجْدٍ يُلِينُ قَلْبَ السَّمَـــاحِ

وأشار إلى نثره، وذكر أنه كثير جداً يقع في ثلاثين مجلّدة.[١]

واختلف الصفدي مع الشهاب الحلبي في المفاضلة بين نثره ونظمه، فكان الشهاب الحلبي يرى أن نثرَه أحسنُ من نظمه، ويرى الصفدي خلاف ذلك، فهو يرى أن نظمه أعذب في الأسماع، وأقرب إلى انعقاد الإجماع، مع أنه جوّد نثره، وأجراهُ على قواعد البلاغة، وذكر أنه كان في الديار المصريّة ينشئ ويكتب ولده إبراهيم فيجيء المنشور أو التوقيع فائقاً في خطه ولفظه[٢].

أشار ابن نباتة إلى تصانيفه ووصفها بأنها «تملأُ الأذهانَ فَهماً، وتسع فنون الآداب علماً، ومواقع أقلام تخرس الأفواه توسعها رَشْفاً ولثماً»[٣].

وعدّد العمري مصنفاته، بعد أن أشاد بمنزلته الأدبية، والعلميّة في عصره، ورئاسته لديوان الإنشاء، وذكر من هذه المصنفات «حسن التوسل إلى صناعة الترسل»[٤]وقد ذكره ابن حجر في درره[٥]. وأشار إليه ابن شاكر في فوات الوفيات[٦]،

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٠.

(٣) باشا، ابن نباتة المصري، ١٤٢.

(٤) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٥) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.

(٦) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

وتابع ابن حجر رأي الصفدي في قصائد الشهاب محمود الحلبي، وذكر أن قصائده طويلة وكثيرة تدخل في ثلاث مجلدات، ونثره يدخل في ثلاثين مجلّدة، وأما المقاطيع فقليلة.

وذكر من تصانيفه: كتاب «أهنى المنائح في أسنى المدائح» وهو ما أفرده من شعره في المدائح النبوية[١]، وأشار إليه أيضاً العمري وقال عنه «إنه من نظمه في المديح الشريف النبوي -زاده الله شرفاً- ولم يكن مثله في إعطاء كلّ مقام حقّه موفّى من غير زيادة ولا نقص[٢].

وتحدّث ابن العماد عن مصنفاته، وذكر أنه كان يكتب التقاليد الكبار والتواقيع بداهة، مما يدل على تمكّنه من هذا الفنّ وهذه الصناعة، التي زاولها خمسين عاماً[٣].

أمّا عن تواقيعه وتقاليده فيذكر ابن حجر أن بعض الراغبين جمع منها مجلدين[٤] وذكر ابن العماد أن له تصانيف في الإنشاء وغيره، ويذكر أن الفضلاء دوّنوا نظمه ونثره، وأنّ له من الفضائل ما ليست للقاضي الفاضل مثل القصائد المطوّلة الحسنة الأنيقة[٥].

وأورد ابن شاكر من تصانيفه: مقامة العشّاق[٦]، وذكر بعض الدارسين أنّها مفقودة[٧] ويرى ابن شاكر أنّ من الممكن أنّه حاكى فيها مقامة الشابّ الظريف[٨]. التي يصوّر فيها شغفه باللهو والتنزّه في الرياض، ولقاءه فيها ذات مرّة لعاشقين، وكيف حاورهما حواراً طريفاً»[٩].

---

(١) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.
(٢) العمري، مسالك الأبصار ١٢: ٣٠٣.
(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٦٩.
(٤) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٥.
(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ٦: ٦٩.
(٦) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
(٧) باشا، أدب الدول المتتابعة، ٧٧٠.
(٨) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
(٩) ضيف، عصر الدول والإمارات، ٨٠٣.

ويذكر ابن شاكر من مصنفاته «منازل الأحباب»، و«حسن التوسل إلى صناعة الترسل»، و«أسنى المنائح في أسنى المدائح»[1] ويورد عمر موسى باشا من تصانيفه «منازل الأحباب ومنازه الألباب» ويرى أنها في الهوى العذري[2] ويذكر أيضاً «ذيل على الكامل لابن الأثير»[3] وأشار إلى كتاب له مفقود وهو «الذيل على ذيل القطب لليونيني»[4].

ويذكر الزركلي من تصانيفه «ذيل على الكامل لابن الأثير» وهو مخطوط. «وأهنى المنائح في أسنى المدائح» وهو مطبـــوع، و«الذيل على ذيل القطب اليونيني» و«مقامة العشّاق» و «ومنازل الأحباب ومنازه الألباب» و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» وذكر أنه كان يكتب التقاليد الكبيرة والتواقيع بديهة، وقد جمع منها بعض الفضلاء مجلّدين[5].

وعدّد البغدادي من تصانيفه: «أهنى المنائح وأسنى المدائح»، وذكر له قصائد في مدح النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، و«حسن التوسل إلى صناعة الترسل» و «مقامات العشاق »و «منازل الأحباب ومنازه الألباب»[6].

وقد أورد القلقشندي نماذج من كتب التهنئة بالقضاء للشهاب محمود الحلبي من كتابه «زهر الربيع في الترسّل البديع»[7] ولم يرد ذكر هذا الكتاب في المصادر التي بين يديّ باستثناء ما أورده القلقشندي.

وقد أشار جرجي زيدان إلى تصانيفه وذكر منها: «منازل الأحباب ومنازه الألباب»، وأفاد أنها في الهوى العذريّ، وذكر أنّ منه نسخاً في برلين وليدن والمتحف البريطاني، وله مختصر في غوطا، وذكر أيضاً كتابه «حسن التوسل

---

(١) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

(٢) باشا، أدب الدول المتتابعة، ٧٧٠. وأشار إلى أنه يوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في برلين وليدن والمتحف البريطاني.

(٣) المرجع السابق نفسه، ٧٧٠، أشار إلى وجود نسخة من هذا الكتاب مخطوطة في برلين.

(٤) المرجع السابق نفسه، ٧٧٠.

(٥) الزركلي، الأعلام، ١٧٢.

(٦) البغدادي، هدية العارفين ،٦: ٤٠٧.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى ،٩: ١٨.

إلى صناعة الترسل» في الإنشاء، وذكر أنّ منه نسخاً في باريس وكوبرلي ونور عثمانية، وطبع بمصر ١٢٩٨هـ وغيرها. ويذكر له كتاب «أهنى المنائح بأسنى المدائح» في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأشار إلى أنه يوجد في كوبرلي وله كتاب «ذيل على الكامل لابن الأثير في برلين»[١].

كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل»

ومنزلته بين دساتير دواوين الرسائل الإسلاميّة.

أحسن المؤلف اختيار الاسم، فاسمه يوحي بالموضوع وينّم عنه، وقد كان غرضه من تأليفه أن يبيّن للناشئ المتأدب أفضل الوسائل وأنجع الطرق التي بها يستطيع أن يكون كاتباً منشئاً، وبيّن له الأدوات التي ينبغي أن يختارها، والمزايا التي عليه أن يتحلّى بها؛ ليكون في عداد الأدباء المنشئين[٢].

وقد استمد المعلومات والاتجاهات من عدّة مصادر، منها ما هو مستمدّ من التراث، ومنها ما هو مستمدّ من تجاربه الشخصية، ومنها ما هو مستمدّ من روح العصر وأوضاع الجيل، أمّا عن مصادره من التراث فتراه يورد بين ثنايا سطوره أسماء مؤلفات كثيرة يلمح الدارس أنّه استفاد منها، وتأثر ببعض آراء مؤلفيها، فذكر منها: المثل السائر لابن الأثير، بديع ابن المعتز، نقد الشعر ونقد النثر لقدامة بن جعفر، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وإعجاز القرآن للباقلاني، والنكت في إعجاز القرآن للرّماني، وبديع القرآن وتحرير التحبير لابن أبي الأصبع المصري، وسرّ الفصاحة للخفاجي، ومفتاح العلوم للسكاكي، وكثير من دواوين الشعر للمشهورين أمثال: المتنبي وأبي تمام وأبي نُواس وابن الرومي، وبعض كتب اللغة والنحو والصرف والأمثال، وبعض أشعار الجاهليين، أمثال: زهير بن أبي سُلمى وعنترة، ومن قبله امرؤ القيس، وخطب بعض الصحابة والتابعين،

---

(١) زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٤١٩.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك ،٣: ١٢٥.

وغيرها من الموضوعات الأدبية والتاريخية.

أمّا المصدر الثاني من مصادر هذا الكتاب فهو تجربته الشخصيّة، وهي من أهمّ هذه المصادر، ولعلّ فيما نورده من سطور من مقدّمته أن يكون معبّراً عن هذه التجربة الطويلة للشهاب محمود الحلبي في صناعة الإنشاء أو العمل في ديوانها فيقول: «فإنّه لمّا جعلَ اللهُ في كتابةِ الإنشاءِ رزْقاً باشرتُ بسببِهِ من وظائفِها ما باشرتُ، وعاشرتُ مِن أجلِهِ من أكابرِ أهلِها وأئمتِها مَن عاشرتُ، ورأيتُ من مذاهبِهِم في أساليبِهِم ما رأيتُ، ورويتُ من قواعدِها بالمجاورةِ والمحاورةِ ما رويتُ، واطّلعتُ فيها بكثرةِ المباشرةِ على طرائفَ، وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضايقَ أي مضايق، ونشأ لي من الولد وولد الولد من عاناها، وترشّح لها من بنيّ من لم أرضَ له بالتلبُّس بصورتها دون التحلّي بمعناها، فأحببتُ أنْ أضعَ لهم ولمن يرغبُ في ذلك في هذه الأوراق من فصولِها قواعدَ، وأُقيم لهم فيها ما لا يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهدَ، ليأتوا هذه الصناعةَ من أبوابِها، ويعلموا من طرقِها ما هو الأخصُّ بأوضاعِها، والأولى بها، وسمّيْتُه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل»[1].

هذا النص ينبئ عن خبرة الكاتب في هذه الصناعة، فقد عاشر أئمة الكتابة، وأخذ عنهم ولازمهم، وهذه الخبرة من أجود الخبرات والمعارف، لأنها جاءت عن طريق معاشرة كبار العلماء وأئمة البيان والإنشاء، ثم إنه بعد هذه الخبرة النافعة انتقل إلى مرحلة الممارسة العمليّة، ومزاولة هذه الصناعة، ليضيف إلى هذه الخبرة خبرات من نتاجه هو، فقد شارك الكتاب في مزاولة هذه الصناعة، وترقّى في مناصبها، حتى صار فارس حلبتها، وعميد أئمتها، ثم حقّ له بعد ذلك أن يكون مقعّداً لقواعدها، وإماماً لطلبتها، وراسماً لسياستها، ويلاحظ أنه أتقن الدور الذي أوكل إليه في كل مرحلة من مراحلها، فيوم كان طالباً ناشئاً لازم شيوخها وأخذ عنهم، ويوم كان موظفاً أتقن مهامها، حتى صار رئيسها، ويوم صار مشرّعاً أتقن قوانينها وقواعدها. وقد بيّن الغاية من تأليف

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٧١-٧٢.

هذا الكتاب وأشار إلى ذلك بصراحة، فقد أحبَّ أن يضع للناشئة ومنهم أبناؤه وأحفاده قواعد هذه الصناعة، وأساليبها ومستلزماتها وقوانينها.

فالكتابُ تعليميٌّ ذو رسالة نبيلة جليلة. ولم يكن الشهاب محمود الحلبي أول الناهجين هذا المنهج، فلقد سبقه عبدالحميد الكاتب، وهو من أوائل المهتمين بقواعد الكتابة، وتعليم الناشئة، فيقول من رسالته إلى الكتاب «أمّا بَعْدُ: حَفِظَكُم الله يا أهل هذه الصناعة، وحاطكم ووَفَّقَكُم وأرشدكم، فإنّ اللهَ -جلّ وعزّ- جَعَلَ الناسَ بعدَ الأنبياءِ والمُرسَلين -صلوات الله عليهم أجمعين- ومن بعد الملوك المكرّمين سوَقاً، وصرّفهم في صُنوف الصناعاتِ التي سبّب منها معاشَهم»[1] فعبدالحميد الكاتب من أوائل من سمّوا هذه الحرفة صناعة، ومن الواضح أن الفئة التي يخاطبها عبدالحميد الكاتب بأهل صناعة الكتابة ليسوا أدباء بالمعنى الذي تفيده هذه اللفظة، بل هم فئة عامّةٍ موظفي الدولة، وهم في تفاوت في مدى إحسانهم للترسل[2].

ويرى إحسان عباس أن هذه الرسالة ديوانية لما فيها من تحذيرات وأوامر وضعت في صيغة نصائح، وقد قرر فيها عبدالحميد الكاتب أهمية فئة الكتّاب، وأهمية موضعهم من الملك، فهم يمثّلون الحواس الأربع: السمع، والبصر واللسان واليد، وهذه مكانة رفيعة[3] وقرّر عبدالحميد الكاتب المستوى الذي يجب أن يكون عليه الكاتب، وهو يمثل صعيدين:

الأول: الصعيد الأخلاقي ويشمل: الحلم واللين في موضعه، والشدّة في موضعها، والعفاف والعدل وكتمان السرّ والوفاء عند الشدائد.

والثاني الثقافي ويشمل: الفقه، وعلم القرآن، والفرائض، واللغة العربيّة، والخط، والشعر، والتاريخ، والحساب[4]، ويرى إحسان عباس أن هذه العلوم الثمانية لا تستغرق العلوم جميعها، لكنها تمثّل الأساس الثقافي الذي يصلح أن

(١) عبّاس، إحسان، عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، دار الشروق، ط١ ،١٩٨٨، ١٨١.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١٨٢.

(٣) المرجع السابق نفسه، ١٨٤.

(٤) المرجع السابق نفسه، ١٨٤.

يُجْعَلَ مُتّكأً للمسؤولين[1].

يهدف عبدالحميد الكاتب من رسالته إلى دعوة الكتاب إلى التآلف والتعاون، ويرى إحسان عباس أنها نموذج للتآخي على أساس من أخلاق سلوكية وقيم تكفل ذلك كله، وتبدو النزعة الإنسانية واضحة في كل جزء منها[2].

وفي القرن السادس الهجري تطالعنا شخصية ذات ثقافة عربية عمادها القرآن الكريم والأدب والتاريخ والفقه، إلى جانب خبرته الطويلة في ديوان الإنشاء هو ابن منجب الصيرفي، صاحب كتاب «قانون ديوان الرسائل». فيه يتحدّث عن نظم الديوان، وما يجب أن يتوافر في رجاله، ويتحدّث عن الغاية من تأليف هذا الكتاب قائلاً: «رأيتهم أهملوا الكلام في الكتبة الجليلة قدراً، النبيهة ذكراً، الرفيعة شأناً، العليّة مكاناً، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى من قلّ من الأمم وجلّ، وكيف يجب أن يكون متولّيها، وما يخصّه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وما يجتنبه من القبائح والرذائل، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومعينيه، وأي الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوان الرسائل الذي يتولاه وينظر فيه ... فاستخرت الله وتوكلّت عليه ... وعوّلت على تصنيف هذا الكتاب وإيداعه ما تصل القدرة إليه من أنواع الترتيبات، وفنون الفضائل، وسمّيتُه «قانون الرسائل»[3].

ويرى الجويني أن المؤلف قد خصّص كتابه لفن الكتابة عن الملوك وإليهم، وضمّنه الآلات الثقافيّة والخلقيّة والعقليّة لرئيس ديوان الإنشاء وأتباعه، ممن يعاونونه في الديوان[4] ويرى أن المنتفع عملياً بهذا الكتاب هو الملك ثم كتّابُه،

(١) المرجع السابق، ١٨٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١٨٤.

(٣) الجويني،مصطفى الصاوي، ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري، الهيئة العامة للتاليف والنشر، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ٣٠٧. نقلاً عن الصيرفي ، ابن منجب بن سلمان (ت: ٥٤٢هـ أو بعد ٥٥٠هـ)، قانون ديوان الرسائل ، عني بنشره والتعليق عليه: علي بهجت، طبع مطبعة الواعظ بمصر، ١٩٠٥م، ٨٨-٩١.

(٤) المرجع السابق نفسه ٣٠٧.

يقول: «المنفعة بهذا الكتاب عظيمة القدر، جليلة الخطر، وأكثر الناس حظاً فيها، وأجزلهم نصيباً منها الملك؛ لأنه إذا تتبع ما فيه، واستخدم الكتابة حضرته من يشهد هذا الكتاب باستصلاحه لها، وكان جامعاً للخلال التي شرط وجوب كونه فيها أمن بذلك من اختلال أمور كثيرة من دولته، واضطراب أسباب جمة من مملكته، ودخول العيب والنقيصة على من يختاره لخدمته»[1].

ولا أرى مبالغة في وصف المؤلف للفائدة المتوخّاة من كتابه، فالكتاب يُعنى بقوانين إدارة شؤون الدولة من الداخل والخارج، وهي مهمّة بحاجة إلى معرفة واسعة، وثقافة عالية، وفطنة وكياسة، وفائدة الكتاب ليست مقصورة على أبناء عصره، وإنما ينتفع بهذا الكتاب كل من يتصفّحه، ويعمل بمقتضاه على مرور السنين وكرور الأحقاب والأعوام، والكتاب يمكن أن يكون بمثابة المعلم، الهادي لهم إلى سنن الصواب[2].

وفي حديثه عن الأدوات الثقافية والخصائص الفنيّة، والاعتبارات النفسية الروحية اللازمة لأهم الوظائف الديوانية نلمس أن الشهاب محمود الحلبي يلتقي معه في كثير من النقاط والأدوات، وسوف يتم توضيح ذلك بالتفصيل، فمن أهم الوظائف الكتابية في الديوان وظيفة متولي ديوان الرسائل، وأهم الأدوات اللازمة لمتولي هذه الوظيفة في نظر الصيرفي: حفظ كتاب الله تعالى، ومداومة قراءته له لشدة حاجته إليه[3] وهذه الأداة هي الأولى عند الشهاب محمود الحلبي والتي على الناشئ المتأدّب الأخذ بها إذا ما أراد أن يصبح كاتباً، وقد قال: «فأول ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله -تعالى- وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبّر معانيه»[4].

والاثنان يلتقيان مع عبدالحميد الكاتب الذي يُعدّ من أوائل المهتمين بقواعد الكتابة، فقد قرر في رسالته التي وجهها لكتّاب عصره أنه ينبغي على

(١) المرجع السابق، ٣٠٩، نقلاً عن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ٩٩-١٠٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٣٠٩، نقلاً عن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ٩٩-١٠٤.

(٣) المرجع السابق نفسه، ٣٠٨.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٧٢.

من أراد مزاولة هذه الصناعة أن يبدأ بعلم كتاب الله، ومما قاله: «تنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والآداب، وتفهموا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ»[1]، ويلتقي مع الثلاثة ابن الأثير صاحب كتاب «المثل السائر» المتوفّى سنة (٦٣٧هـ) في هذه الأداة وهي حفظ القرآن الكريم، ولكن ابن الأثير جعلها الأداة السادسة من الأدوات التي يفتقر إليها الكاتب فقال: «فإذا ركّبَ الله تعالى في الإنسانِ طَبعاً قابلاً لهذا الفنّ فيفتقر حينئذٍ إلى ثمانيةِ أنواع من الآلات»[2]وعدّدها وذكر النوع السادس وهو حفظ كتاب الله، والتدرّب باستعماله، وإدراجه في مطاوي الكلام[3].

لقد التقى هؤلاء العلماء على هذه الأداة المهمّة من أدوات تعلّم الكتابة، فأول من أشار إليها من الأربعة عبدالحميد الكاتب ثم الصيرفي ثم ابن الأثير ثم الشهاب محمود الحلبي وهذا دليل على أهمية هذه الأداة التي أجمع عليها بعض واضعي قواعد هذه الصناعة. ثم إنه لا يُستبعد أن يكون اللاحق منهم قد اطلع على قواعد هذه الصناعة في مؤلفات من سبقه، وقد رأينا على سبيل المثال الشهاب الحلبي يستشهد بأقوال ابن الأثير في ثنايا سطور كتابه حتى قلنا: إنّ المثل السائر يُعدُّ مصدراً من مصادر الشهاب الحلبي في كتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل.

أمّا الأداة الثانية من أدوات صناعة الكتابة فهي حفظ أخبار الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- فقال عنها الصيرفي «ويكون حافظاً لأخبار الرسول والأئمة من ذريّته -صلّى الله عليهم أجمعين- قيماً بها أو بأكثرها»[4].

ويهمنا من الاستشهاد قوله: «ويكون حافظاً لأخبار الرسول -صلّى الله

---

(١) عباس، عبدالحميد الكاتب، ٢٨٣.

(٢) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبدالكريم (ت:٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م: ١: ٢٨.

(٣) المصدر السابق نفسه ١: ٢٩.

(٤) الجويني، ملامح الشخصيّة المصريّة، ٣٠٨.

عليه وسلّم- أما بقية العبارة «والأئمة من ذريّته ..الخ» فقد تكون بسبب تشيّعه، إن صحّ أنّه كان شيعياً، ولسائل أن يسأل، لماذا لم يأخذ عبدالحميد الكاتب بهذه الأداة، ولم يعدّها شرطاً لازماً على الكاتب الذي يريد أن يزاول هذه الصناعة؟

ويجيبنا إحسان عباس بقوله: إنّ هذه الرسالة صدرت في فترة لم يكن فيها الاهتمام بتدوين الحديث قدْ بدأ[١].

قرر الحلبي هذا الشرط، وجعله أيضاً الشرط الثاني حين قال:«ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبويّة -صلوات الله على قائلها وسلامه- خصوصاً في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها»[٢].

أمّا ابن الأثير الذي سبق الشهاب محمود الحلبي فقد جعل شرطه الثامن على المتأدّب حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال[٣].

اشترط الصيرفي على من يتولى ديوان الرسائل أن يكون راوياً لأخبار الملوك، وأيام العرب ووقائعهم، وأخبار العجم وسائر الأمم، وما جرى في أيام الملوك الماضين، وما حدث من وزرائهم وكتّابهم وقوّادهم وأخبارهم، فإنّه أحوج الناس إلى ذلك[٤]، وهذه الثقافة يمكن أن تُسمّى الثقافة التاريخية الواسعة.

وقد عدّ عبدالحميد الكاتب علم التاريخ من العلوم الثمانية، التي تمثّل الأساس الثقافي الذي يصلح أن يكون متكأً للمسؤولية[٥]، ويعني مسؤولية الكتابة.

أمّا ابن الأثير فقد دمج شرطين في شرط واحد فقال: «وأمّا النوع الثالث معرفة أمثال العرب، وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام»[٦] ويهمنا من هذا الشاهد: الجانب التاريخي الذي يختصّ بأيام العرب

---

(١) عباس، عبدالحميد الكاتب، ١٨٤.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٢٦.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٩.

(٤) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣٠٩.

(٥) عباس، عبدالحميد الكاتب، ١٨٤.

(٦) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٤٠-٤١.

ووقـائـعـهم وهو الـشـرط الـثـالث الذي على الـنـاشئ الذي يـريد أن يـزاول مـهنة الكتابة الأخذ بـه.

يقابل هذا الشرط عند الحلبي قوله: «ثم النظر في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم، وتسمية الأيام التي كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى»[١] ولمّا كان كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» كتاباً تعليمياً فقد أورد فيه بعض الأمثلة التي يمكن أن يتخذها الناشيء نموذجاً يحاكيه.

وأورد شرطاً آخر يتعلق بالثقافة التاريخية فيقول: «ثم النظر في التـواريخ، ومـعـرفـة أخـبـار الدول لما في ذلك من الاطلاع على سـيـر الملوك، وسياساتهم، وذكر وقائعهم ومكائدهم في حروبهم»[٢].

ويلاحظ أن الصيرفي قد جعل معرفة الحلال والحرام أداةً من الأدوات التي على الكاتب أن يلمّ بها، حتى إذا ما سئل عنها أجاب، بينما لا نلمس هذا الشرط واضحاً عند الحلبي، علماً بأن الشهاب الحلبي كان فقيهاً، وقد درس الفقه على ابن المنجا وغيره[٣].

وعدّ عبدالحميد الكاتب الفقه من أوائل العلوم اللازمة للكاتب[٤] وليس غريباً أن يجعل الصيرفي معرفة الحلال والحرام واجباً على الكاتب، فقد كان الفقه جزءاً من ثقافته[٥].

عدّ عبدالحميد الكاتب معرفة الشعر وعلومه من الأساسيات التي لا غنى للكاتب عنها[٦].

وكذلك الصيرفي جعل هذه الأداة ضرورية للكاتب، وقال«يجب أن يكون حافظاً للأشعار، راوياً للكثير منها، يستشهد بما عساه يحسن الاستشهاد به في

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٨٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٨٩.
(٣) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.
(٤) عباس، عبدالحميد الكاتب، ١٨٤.
(٥) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣٠٦.
(٦) عباس، عبدالحميد الكاتب، ١٨٤.

بعض المواضع، فان للمنظوم من البهجة في النفس، والوقع في القلب ما ليس للمنثور، وربما حلّ منه ما يحتاج إليه فأتى به منثوراً في أثناء رسائله، فكم معنى بديع رائع قد حظي به المنظوم دون المنثور، وإن كمل لأن يكون محسناً لنظم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته، وأكمل لأدواته[1]، ويؤكد الجويني أن ابن منجب الصيرفي قد أفاد من عبدالحميد الكاتب في رسالته إلى الكُتّاب[2].

ولكن الصيرفي يهتم بالجانب الفني فقد اشترط الخبرة بنثر المنظوم، وهذه طريقة كانت سائدة في عصره، ثم إنّه استحسن لا بل فضل أن يكون الكاتب ناظماً للشعر، ونلمح عنده الإيمان بأن الشعر أفضل من النثر، ويعلّل الجويني كثرة ما أُثر عن هذا العصر من المجموعات الشعرية بسبب إيمانهم أنّ الشعر هو الينبوع الذي يستقون منه معانيهم، وقد يكون هذا السبب في إقبالهم على حلّ المنظوم نثراً[3].

أمّا ابن الأثير فقد جعل الآلة الرابعة من الآلات التي يفتقر إليها الكاتب: الاطّلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منْه والمنثورة، والتحفظ للكثير منه[4]، وأخذ يعدّدُ الفوائد المتوخاة من ذلك ومنها: إنّه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم، وتصبح المعاني ملقاة بين يديه يأخذ منها ما يريد ويترك ما لا يريد، وهنا نلمح تركيز ابن الأثير على المعاني، ثم إنّ اطلاعه على المنظوم والمنثور يشحذ قريحته ويذكي فطنته[5].

جاء الشهاب محمود الحلبي، واشترط على الكاتب الذي يريد أن يزاول صناعة الكتابة أن يحفظ أشعار العرب، ويطالع شروحها، ويستكشف غوامضها، ويتوفر على ما يختاره العلماء منها، ومثل عليها بالحماسة والمفضّليات والأصمعيات وديوان الهذليّين، ولكن الفوائد المتوخّاة من حفظ الأشعار في نظر

---

(١) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣٠٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٣٠٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ٣١٠.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١: ٤٦.

الشهاب الحلبي ليست الفوائد نفسها عند ابن الأثير، فهي عند الحلبي الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل وانتزاع الأمثال، والاحتذاء في اختراع المعاني، والاطّلاع على أصول اللغة وشواهدها، ويذكر الأمثلة على ذلك من أقوال الصحابة وأخبارهم، ويذكر بعض شعراء العرب الذين كانوا يضمّنون قصائدهم بأنصاف أبيات للعرب ويذكر بعض أشعارهم[1].

واشترط أيضاً حفظ جانب جيّد من أشعار المحدثين كأبي تمّام وابن الرومي والبحتري والمتنبّي، وعلّل ذلك بدوران الصناعة في كلامهم، ودقّة توكيد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة، وبخاصة المتنبي الذي كأنّه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم، وقد يُكتفى بالبيت الواحد عنده في الدلالة على المقصد، أو بلوغ الغرض[2].

ولم يكتف بحفظ الشعر بل طالب الكاتب بالنظر في رسائل المتقدمين دون حفظها، لما في النظر فيها من تنقيح القريحة وإرشاد الخاطر، والنسج على منوال الجيّد، ويعلّل النهي عن حفظها بمخافة أن يتكل الخاطر على ما في حاصله، ويستشهد على ذلك بما كتبه عبدالحميد الكاتب عند ظهور الخراسانية بشعار السواد فقد قال: «فاثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة، وتصحو هذه السكرة، فسينضب السيل، وتمّحي آية الليل».

ويستشهد بأقوال كثيرة منها لأبي نصر العتبي وبديع الزمان الهمذاني والقاضي الفاضل، ولكنه فضّل حفظها لمن أراد المحاضرة دون الإنشاء[3].

ومن هذه الاستشهادات الكثيرة نلمح سعة ثقافة الشهاب الحلبي، وسعة اطلاعه على دواوين الشعراء ورسائل الكتاب.

أما علوم اللغة العربية فقد جعلها عبدالحميد الكاتب من العلوم المهمّة والأساسيّة التي تلزم كاتب الرسائل، وقال:« وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجل

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٨٩-٩١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩٢-٩٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩٣-٩٥.

والفرائض ثم العربيّة فإنها ثقاف ألسنتكم»[1].

وكذلك الصيرفي فقد اشترط على الكاتب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللغة أكثرها، فإنّه أحوج الناس إلى هذه العلوم، فإنْ كان مبَرِّزاً فيها قيّماً بها على الكمال فزيادة في فضله»[2].

واهتمّ ابن الأثير كثيراً بهذه الأداة ووضعها في المرتبة الأولى، وقال عن علم النحو: «إنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخطّ، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرّة اللحن، ولكنه لم يشترط الإلمام بكل جزئياته وفروعه، بل اشترط معرفة النحو إذا كان ضابطاً لمعاني الكلام حافظاً لها من الاختلاف»[3].

وكذلك بالنسبة للصرف فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تفسد عليه معاني كلامه وإنما تفسد عليه الأوضاع، وقد ذكر أمثلة وضّح فيها أنّ بعض كبار القراء يخطىء في الصرف، مثل نافع بن أبي نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدراً، قال في معايش: معائش بالهمز، ولم يعلم الأصل في ذلك، وإذا كان هذا شأن أولي العلم فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها؟[4].

واشترط الشهاب محمود الحلبي هذا الشرط وقال: «ويتبع ذلك قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل لها المقصود من معرفة العربية، وعليه أن يكبّ على الإعراب ويلازمه ويجعله دأبه ليرتسم في فكره، ويدور على لسانه وينطلق به عقال قلمه وكلمه ... فإنه لو أتى من البلاغة بأتم ما يكون ولحن ذهبت محاسن ما أتى به، ونصحه بقراءة ما يتهيأ من كتب مختصرات اللغة، مثل: "الفصيح" و «كفاية المتحفظ» وغير ذلك من كتب الألفاظ[5].

ومن الأدوات التي يلتقي عليها بعض واضعي قواعد هذه الصناعة الخطّ

---

(١) عباس، عبدالحميد الكاتب، ٢٨٣.

(٢) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣٠٩، نقلاًعن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ٩٩-١٠٤.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٩-٣٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١: ٣٢- ٣٣.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٨٠-٨١.

فيقول عبدالحميد الكاتب «وأجيدوا الخطّ فإنّه حليةُ كُتُبِكُم»[١] واشترط الصيرفيّ على الكاتب ألاّ يتوجّه عليه لحن في الخط[٢]. والغريب أن الشهاب محمود الحلبي لم يهتمّ بالخطّ ولم يجعلْه شرطاً على من أراد مزاولة الكتابة، ووجوه الاستغراب تتأتّى من عدة أمور: أولها: إنّ الشهاب محمود الحلبي كان له إلمام بمعرفة خطوط الكتّاب[٣] وقد كتب المنسوب ونسخ الكثير[٤] وكان له إجادة نظر في معرفة الخطوط، ذكر ذلك تلميذه العمري[٥].

وثانيها: إنّ هذا العصر كان يعطي الخط اهتماماً كبيراً. وخصّص عبدالرحيم بن علي بن شيت القرشي (ت: ٦٢٥هـ) -وهو من المهتمين في وضع قواعد الكتابة- باباً منفرداً في كتابه «معالم الكتابة ومغانم الإصابة» للحديث عن وضع الخطّ وحروفه وبري القلم وإمساكه مما لا يستغني الكاتب عنه[٦].

يرى الشهاب محمود الحلبي أنّ من الأدوات المهمة التي على الكاتب الأخذ بها: النظر في الأحكام السلطانية، فان الكاتب قد يؤمر بأمر يحتاج فيه إلى أن يعرف كيف يُخلصّ قلمه على حكم الشريعة المطهّرة، مثل تولية القضاء والحسبة وغير ذلك[٧].

وكان ابن الأثير قد أخذ بهذه الأداة وعدّها ضرورية لازمة لمن أراد مزاولة الكتابة، فهو يرى أنّه لا بدّ من معرفة الأحكام السلطانية: الإمامة والإمارة والقضاء والحُسْبَة، وغير ذلك، لأنه يحتاجها إذا أراد أن يكتب تقليدات الملوك والأمراء والقضاة[٨].

إنّ تأثُر الشهاب محمود الحلبي بابن الأثير واضح، وقد سبق إلى هذا

---

(١) عباس، عبدالحميد الكاتب، ٢٨٣.

(٢) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣٩.

(٣) ابن شاكر، فوات الوفيات، ٤: ٨٢.

(٤) ابن حجر، الدرر، ٤: ٣٢٤.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ١٢: ٣٠٣.

(٦) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٤١٣.

(٧) الحلبي، حسن التوسل، ١٠٠.

(٨) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٤٦.

الحكم القلقشندي في صبح الأعشى في معرض حديثه عن العلوم التي يحتاجها الكاتب وعدّد منها: علم المعاني والبيان والبديع، وذكر أن ابن الأثير اقتصر على ذلك، وتبعه الشهاب محمود الحلبي،[١] وأكدّ ذلك في العصر الحديث محمود رزق سليم في معرض حديثه عن الأدوات التي تلزم الكاتب، ولكنه يرى أن الشهاب الحلبي قد زاد على الأدوات التي وردت عند ابن الأثير، فقد صرف الشهاب محمود الحلبي عناية كبرى إلى دراسة النحو، وحفظ مفردات اللغة وقراءة نثر المتقدمين، ومنه خطب الصّحابة وغيرهم من البلغاء، ولم يدعُ ابن الأثير إلى قراءة النثر، وذلك لاعتقاده أن الشعر هو ينبوع المعاني[٢]. وكان الشهاب محمود الحلبي مجدّداً عندما دعا إلى قراءة رسائل المتقدمين دون حفظها، وفي حديثه عن الألوان البلاغية تحدث عنها باعتبارها أداة من الأدوات التي ينبغي للناشئ معرفتها، فهي إذن المسألة الثالثة عشرة، ولكنها تفترق عن الأدوات السابقة بأنها من المكمِّلات لهذا الفن، وقال: «فهذه أمور كليّة لا بدّ للمترشّح لهذه الصناعة من التصدّي للاطّلاع عليها، والانكباب على مطالعتها والاستكثار منها، لينفق من تلك المواد، وليسلك في الوصول إلى تلك الصناعة بذلك الجواد وإلاّ فليعلم أنه في واد والكتابة في واد، وأما الأمور الخاصة التي تزيد معرفتها قدره، ويزين العلم بها نظمه ونثره فإنها من المكمِّلات لهذا الفنّ[٣].»

وقد عدّها من المكمِّلات لأنّ صاحب الذهن الثاقب والطبع السليم قد لا يضطر لها، مع أن العالم بها متمكّن من أزمة المعاني، يقول عن علم، ويتصرف عن معرفة وقد أشار إلى علم المعاني والبيان والبديع[٤].

تحدث ابن الأثير عن أركان صناعة الكتابة، وأكّد في الركن الخامس على ضرورة احتواء الكتاب على معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية، ولكنه يفضّل أسلوب الحلّ -أي حل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة- على

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٠٠.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٣: ١٣٦.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ١٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٠٠.

أسلوب التضمين[١].

ويرى أن يأتي هذا الحل بأسلوب ليس فيه تكلُّف، ويذكر أنّه أنشأ تقليداً لبعض الملوك، احتوى على خمسين من معاني الآيات والأحاديث[٢].

ويلاحظ على أدب هذا العصر أننا نجد الأدباء يتوجهون فيه نحو القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد سبق وأن أشرت إلى اهتمام الشهاب محمود الحلبي بالقرآن حينما جعله الأداة الأولى من أدوات الكتابة اللازمة للكاتب، فهو يكثر من اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، ويكثر من ضرب الأمثلة التي تشعر أنّ حديثه عن مزايا حفظ القرآن الكريم، وما يعود منه على المتأدِّب أبعد من حديثه عن الاقتباس، لذلك فقد تحدّث في القسم الأول عن ضرورة حفظ القرآن الكريم، ثم عاد يتحدّث عن الاقتباس. إن هذه القناعة بأهمية حفظ القرآن الكريم عند الشهاب محمود الحلبي، وعند غيره من واضعي قواعد الكتابة إنّما جاءت من إيمانهم الراسخ بأن هذا القرآن معجز في صياغته ونظمه.

اطّلع الشهاب محمود الحلبي ومن قبله ابن الأثير على آراء عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن إعجاز القرآن لا يُتَصَوَّر أن يكون في الألفاظ منفردة، إذ هي مادة اللغة عامة، ثم إنّ الألفاظ المفردة ليست بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، ولايمكن الحكم على لفظة بأنها فصيحة إلا من خلال النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جَاراتها، فالألفاظ بمعزل عن المزية إلا في تأليف الكلام وتنظيم أجزاء الصورة وجلاء الفكرة بوسائل الصياغة اللغوية، ثم يقرر عبدالقاهر أنّ البلاغة والفصاحة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني[٣]. وقد قاده تفكيره إلى وضع نظرية النظم ليؤكد أن إعجاز القرآن الكريم بنظمه وصياغته، ويعرّف عبدالقاهر النظم بأنه« وضع كلامك الوضع

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ١:٨٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١:٩٠.

(٣) الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، صححه ووقف على طبعه: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ٣٥-٤٠، هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٧م، ٢٥٨-٢٥٩.

الذي يقتضيه علم النحو، وقد وسّع دائرة النحو وجعله يشتمل على ما يدرس الآن في علم المعاني من الفصل، والوصل، والتعريف، والتنكير، والتقديم والتأخير والحذف والإظهار، والإضمار، وكثير من المحسّنات البديعيّة والبيانيّة[١].

تأثر الشهاب محمود الحلبي بهذه النظرية، وراح يستشهد برأي الجرجاني الذي يرى: أن المعاني تختلف باختلاف الألفاظ، فقولهم :« عبدالله قائم» إخبار عن قيامه، وقولهم:« إن عبدالله قائم» جواب عن سؤال سائل، وقولهم:« إن عبدالله لقائم» جواب عن إنكار منكر لقيامه، ونتيجة لهذا التأثُّر فقد عقد الشهاب محمود الحلبي فصلاً تحت عنوان « القول في النظم». بدأ حديثه فيه عن تعريف النظم قائلاً: « هو توخّي معاني النحو فيما بين الكلم، وذلك بأن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، بأن تنظر في كلّ باب إلى قوانينه، والفروق التي بين معاني اختلاف صيغه، وتضع الحروف مواضعها، وتراعي شرائط التقديم والتأخير ومواضع الفصل والوصل، ومواضع حروف العطف على اختلاف معانيها، وتعتبر الإصابة في طريق التشبيه والتمثيل»[٢].

وتراه يعلي من شأن نظرية النظم، وإنّه لافضل مع عدمه، ولو بلغ الكلام في غرابة معناه إلى ما بلغ، وأنّ سبب فساده ترك العمل بقوانين النحو، واستعمال الشيء في غير موضعه، ثم الجمل الكثيرة إذا نظمت نظماً واحداً فهي على قسمين: النوع الأول: ألاّ يتعلق البعض بالبعض فلا يحتاج واضعه إلى فكر ورويّة في استخراجه، بل هو كمن عمد إلى اللآلئ ينظمها في سلك. والنوع الثاني: أن تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض، وهنا تظهر قوة الطبع، وجودة القريحة واستقامة الذهن[٣]. ثم شرع يتحدث عن الإيجاز وقد قسّمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، وذكر أمثلة كثيرة على كل نوع من القرآن الكريم، وتحدّث عن تقوية المعنى بإظهار البرهان، أو بالقَسَم، -وقد سمّاه العزيمة-

---

(١) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ٦٤.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ١٧٩

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٧٩.

أو بالتكرار[١].

عقد الشهاب محمود الحلبي فصلاً خاصاً بالتجنيس، وذكر من البداية أنّه يتشعّب شعباً كثيرة، فمنه: المستوفي التام، وهو أن يأتي المتكلم بكلمتين متفقتين لفظاً، مختلفتين معنى، وقد مثّل على ذلك بأبيات شعرية، وكان الأولى أنْ يمثّل بعبارات وسطور نثرية، لأن الشهاب محمود الحلبي قصد من كتابه أن يكون مرشداً ومعلماً للكُتّاب، وقد مثل على ذلك من قوله:

يا نَسْمَةً أذْكَرَتِنِي طِيبَ عَهْدِهِم   ما كانَ ضَرَّكِ لَوْ أذْكَرْتِ إنْسانــا
أيْقَظْتِ جَفْني وَما هَمَّ الرُّقادُ بِهِ   فَأيْقِظِي في الدُّجا أجْفانَ أجْفانا[٢].

وواضح أن التجنيس في آخر كلمتين من البيت الثاني، وكأن الشهاب محمود الحلبي تأثّر ببيت أبي العلاء المعرّي الذي يقول فيه:

تَقُولُ أنْتَ امْرُؤٌ جَافٍ مُغالَطَةً   فَقُلْتُ: لا هَوَّمَتْ أجْفانُ أجْفانا[٣]

ومنه التجنيس الناقص، وهو مثل الأول، غير أنّ إحدى الكلمتين تخالف الأخرى في هيئة الحركة، كقوله:- صلى الله عليه وسلم- «اللهم كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلُقي». ومنه: المذيل أو التجنيس الناقص والزائد، وهو أن تأتي بكلمتين متجانستي اللفظ متفقتي الحركات، غير أنهما يختلفان بحرف، إمّا من آخر الكلمة مثل: «فلان حام حامل لأعباء الأمور» وإما من أوّلها كقوله تعالى: «والتفّت الساق بالساق إلى ربّك يومئذٍ المساق»[٤].

ومنه المركب وهو على ضربين الأول: ما تشابه لفظاً وخطاً، والثاني المتشابه لفظاً لا خطّاً[٥] ومن أنواع المركب المقرون والمرفوء ومنه المزدوج ومنه المصحّف، ومنه المضارع ويسمّى المطمّع والمطرف ومنه المشوّش، ومنه تجنيس

---

(١) المصدر السابق، ١٨٠-١٨٣.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٣-١٨٥.
(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٤٧.
(٤) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٧-١٨٨، «والتَفّتِ السّاقُ بالسّاقِ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساقُ»، القيامة/٢٩-٣٠.
(٥) المصدرالسابق نفسه، ١٨٨.

الاشتقاق، ويسمى الاقتضاب، ومنه المشابه وبعضهم يسميه المغاير، ومنه: تجنيس التصريف، ومنه التجنيس المخالف ومنه تجنيس المعنى[١] والشهاب محمود لا يكتفي بذكر هذه الأنواع بل تجده يأتي بنماذج وأمثلة على كل نوع، ويختم هذا القسم بقوله « إنما يحسن التجنيس إذا قلّ وأتى في الكلام عفواً في غير كدٍّ ولا استكراه، ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركّة، ولا يكون كقول الأعشى:

وقد غَدَوْتُ إلى الحَانوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مُشَلّ شلولٌ شَلْشلٌ شَوَلُ[٢]

وهذا يؤكد ما ذهبت إليه في أن الشهاب محمود الحلبي كان اهتمامه بالمعنى وأما الجناس وغيره من المحسنات البديعية، فلا قيمة له إلا إذا جاء عفو الخاطر، غير متكلّف، وقد تأثر في هذا الرأي بعبدالقاهر الجرجاني فقد قال: « فإنّك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقّه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه »[٣] وقد تحدث ابن الأثير عن التجنيس، ووضح سبب تسميته قائلاً: « إنّما سُمّي هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد[٤] وهو يرى أن التجنيس الحقيقي ما كان فيه اللفظ واحداً، والمعنى مختلفاً، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء » ويمثل على القسم الحقيقي بقوله تعالى: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة» ويذكر أنّه لا يوجد في القرآن الكريم من الجناس الحقيقي سوى هذه الآية[٥].

وإنّ من العلماء من يسميه "الترديد" أي أنّ اللفظة الواحدة ردّدت فيه[٦] ويذكر من الأقسام الستّة المشبهة بالتجنيس النوع الأول: وهو أن تكون الحروف

(١) المصدر السابق، ١٨٨-١٩٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٩٨-١٩٩.

(٣) الجرجاني، أسرار البلاغة، ٤-٧.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٤١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١: ٢٤١، الآية «وَيَوْمَ تَقومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤفكون» الروم/٥٥.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٢٤٨:١.

متساوية في تركيبها، مختلفة في وزنها، ويمثّل على ذلك بالحديث الشريف «اللهم كما حسّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي»[١] وقد أورد الشهاب محمود الحلبي المثال نفسه على التجنيس الناقص[٢].

والقسم الثاني من المشبه بالتجنيس عند ابن الأثير: هو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، ويمثّل عليه بقول الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- «الخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الخَيْرُ»[٣]. وقد أورد الشهاب محمود الحلبي المثال نفسه على التجنيس المضارع أو المطمع، وهو عنده أن يؤتى بالكلمة ويُبدأ بأختها على مثل أكثر حروفها، فتطمع في أنها مثلها فيخالفها بحرف، ويسمى المطرف أيضاً، وهو أن يجمع بين كلمتين متجانستين، لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقاربة سواء وقع آخراً أم حشواً[٤].

والقسم الثالث من المشبّه بالتجنيس عند ابن الأثير هو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى« والتفّت الساقُ بالساق إلى ربك يومئذ المساق »[٥].

وقد أورد الشهاب الحلبي الآية نفسها مثالاً على التجنيس المذيّل، أو التجنيس الزائد والناقص، وهو عنده: أن يجيء بكلمتين متجانستي اللفظ متفقتي الحركات غير أنّهما يختلفان بحرف إما من آخرهما وإمّا من أولهما[٦].

وقد أورد ابن الأثير مثالاً آخر على هذا النوع وهو الآية الكريمة« وَهُم يَحْسَبُونَ أنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً »[٧]. بينما نجد الحلبي يورد هذا المثال على نوع آخر وهو التجنيس المصحّف، ويقال له تجنيس الخط، وهو عنده أن تأتي بكلمتين

---

(١) المصدر السابق، ١: ٢٤٨.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٦.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٤٩.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٢-١٩٣.

(٥) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٥١.

(٦) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٧-١٨٨.

(٧) ابن الأثير: المثل السائر، ١:٢٥١، الآية «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» الكهف/١٨.

متشابهتين خطاً لا لفظاً[1].

والقسم الرابع من المشبه بالتجنيس يسمى المعكوس، وذلك ضربان: أحدهما عكس الألفاظ، والآخر عكس الحروف.

وأورد أمثلة على الأول منها: عادات السادات سادات العادات[2]، ويرى أنّ قدامة بن جعفر الكاتب سمّاه التبديل، وذلك لأن مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدّماً في جزء كلامه مؤخراً في الثاني، وبما كان مؤخراً في الأول مقدّماً في الثاني، ويذكر أنّ قدامة مثّل عليه بقول بعضهم: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك[3].

والضرب الثاني من هذا القسم هو عكس الحروف، ومثّل عليه بقول أحدهم:

جَاذَبْتُها والرِّيحُ تَجْذِبُ عَقْرَباً مِنْ فَوْقِ خَدٍّ مِثْلِ قَلْبِ العَقْرَبِ
وَطَفِقْتُ أَلْثُم ثَغْرَهَا فَتَمَنَّعَتْ وَتَحَجَّبَتْ عَنِّي بِقَلْبِ العَقْـرَبِ

وواضح أن قلب حروف عقرب هو برقع، ويذكر ابن الأثير أنّ هذا الضرب نادر الاستعمال لصعوبة مجيئه[4]. وقد أورد الحلبي هذا النوع وجعله قسماً من التجنيس المخالف: وهو أن تشتمل كل واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى، وهذا النوع سمّاه جناس العكس، ومثّل عليه بقول الرسول- صلّى الله عليه وسلّم-: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة « اقرأ وارقأ» والشاهد في اللفظتين الأخيرتين، فالثانية تقرأ مقلوبة اقرأ[5]. والقسم الخامس من أقسام المشبه بالتجنيس عند ابن الأثير "المجنّب"، ويكون بأن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى، والجنيبة لها، كقول بعضهم:

أَبَا العَبَّاسِ لا تَحْسَبْ بِأَنِّي لِشَيْءٍ مِنْ حُلَى الأَشْعارِ عَارِي
فَلِي طَبْعٌ كَسَلْسَالٍ مَعِيـنٍ زُلالٍ مِنْ ذُرَا الأَمْجَادِ جَـارِي

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٢.
(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٥٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١:٢٥٥.
(٤) المصدر السابق نفسه، ١:٢٥٧.
(٥) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٧.

ولكنه عاد وقال: إنّ هذا النوع بلزوم ما لا يلزم أولى[1].

ويورد الشهاب الحلبي المثال نفسه شاهداً على التجنيس المزدوج، ويقال عنه المردّد المكرر[2].

والقسم السادس من المشبه بالتجنيس عند ابن الأثير هو: ما يساوي وزنه تركيبه، غير أنّ حروفه تتقدم وتتأخر، ويمثل عليه بقول أبي تمام:

بِيْضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ فِي مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

ويمثل عليه من الكلام المنثور بقول الرسول- صلّى الله عليه وسلّم- يقال لصاحب القرآن « اقرأ وارقَ، ورتّل كما كنت ترتُّل في الدنيا، فإنّ منزلَتَكَ عند آخر آية تقرأ» والشاهد في اللفظتين "اقرأ" و" ارق"[3].

وأوردالحلبي المثال الأول- قول أبي تمّام- شاهداً على التجنيس المخالف، وهو أن تشتمل كل واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها[4].

أمّا المثال الثاني وهو الحديث الشريف الذي أورده ابن الأثير شاهداً على النوع السادس من المشبه بالتجنيس، فقد أورده الحلبي مثالاً على جناس العكس[5].

- ووجه الخلاف- كما يبدو في رسم الكلمة الأخيرة، فقد أوردها ابن الأثير على هذه الصورة (ارقا)، وأوردها الحلبي على هذه الصورة (ارقَ).

من خلال ما تقدم يمكن الخروج باستنتاجات، من أهمها: أنّ الشهاب محمود الحلبي اطّلع علىَ ما كتبه ابن الأثير، وأفاد منه، لكنه لم يكن مقلّداً له، بدليل أنّ آراءهما لم تتفق في أكثر ما أوردناه، وإن تشابهت الشواهد فقد اختلفت التسميات، وتلمس أيضاً أنّ علم البديع ومنه الجناس قد تطور في عصر الحلبي، وأشار إلى هذا التطور شارح خزانة الأدب لابن حجة فقال: «وإذا ما انتقلنا إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين نجد أنهما قد امتازا بإيلاء

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ١:٢٥٨.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ١٩١-١٩٢.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٥٨.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١٩٧.

العلماء والشعراء والأدباء علم البديع عناية مابعدها عناية[١] وقد كان ابن الأثير يقصر الجناس على نوع واحد وهو الجناس الحقيقي أو المتماثل، أما بقية الأنواع فهي عنده مشبّهة بالجناس، بينما لم يأخذ بهذا الرأي الشهاب محمود الحلبي، ثم إنّ ابن الأثير لم يطلق على أغلب هذه الأنواع أسماء بينما لاحظنا أنّ الشهاب محمود الحلبي يطلق على كل نوع اسماً، ويذكر لبعضها أسماء أخرى وردت عند العلماء الآخرين.

ثم نلمس عدم الاتفاق على أنواعه، وقد أشار إلى ذلك ابن حجّة وقال: «وأمّا حدود أنواع الجناس فقد اختلفت فيها عبارات البديعيّين»[٢] .

وكذلك سبقه إلى هذا الرأي ابن الأثير فذكر أن العلماء من أرباب هذه الصناعة قد اختلفوا فيه وتصرّفوا فغرّبوا وشرّقوا، لا سيما المحدثين منهم، وصنّف الناس فيه كتباً كثيرةً وجعلوه أبواباً متعددة، واختلفوا في ذلك[٣].

وسبق ابن رشيق ابن الأثير والشهاب الحلبي في الحديث عن التجنيس، وذكر أنّ التجنيس ضروب كثيرة منها المماثلة، وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ومثّل عليه بأمثلة كثيرة منها: قول أبي نُواس في ابن الربيع:

عبّاسُ عبّاسٌ إذا حَضَرَ الوَغَى ... والفَضْلُ فَضْلٌ والرَّبِيعُ رَبِيعُ [٤]

وأورد الشهاب محمود الحلبي الشاهد نفسه مثالاً على المستوفي التام[٥].

وأورد ابن الأثير الشاهد نفسه مثالاً على التجنيس الحقيقي.[٦]

---

(١) ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي (ت ٨٣٧هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩١، ١: ٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١:٥٨.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١:٢٤١.

(٤) ابن رشيق: الحسن القيرواني الأزدي، (ت ٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٢م ١:٣٢٢.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٤.

(٦) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٤٥.

وذكر ابن رشيق التجنيس المحقق، وهو ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن، وهو عند قدامة أفضل تجنيس، ويسميه الجرجاني «التجنيس المطلق»، ويرى ابن رشيق أن التجنيس إذا ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة فيه[١].

حرص الشهاب محمود الحلبي على أن يقدم كل ما عنده من آراء صائبة وأفكار ناضجة، تُمكِّن المتأدب من مزاولة صناعة الكتابة، على بصيرة وحسن دراية، ومن هذه الآراء حديثه عن حسن الابتداءات، وقد بدأ حديثه بإسناد هذه التسمية إلى ابن المعتز، وهذا يؤكد أنّه اطلع على كتب ابن المعتز، وبخاصة بديع ابن المعتز، وذكر أنّ المتأخرين فرغوا من هذه التسمية براعة الاستهلال، ويعرف براعة الاستهلال قائلاً: «هي أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيّنة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده، والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ليبني كلامه على نسق واحد، دلّ عليه من أول وهلة علم بها مقصده، إمّا في خطبة تقليد أو دعاء كتاب[٢].

ويمثل على براعة الاستهلال بما كتبه أحدهم يريد أن يخبر الأمير بأن بقرةً ولدت حيوانا على شكل إنسان، فقال:« أمّا بعد، حمداً لله خالق الأنام في بطون الأنعام»[٣].

ويستشهد بقول أبي تمام في فتح عمورية:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[٤].

ويورد أمثلة كثيرة من المنظوم، وكان ينبغي أن يكثر من الأمثلة النثرية لأن الكتاب غايته تعليم صناعة الكتابة، ويحذّر من الابتداء بشيء يتطيّر منه، ويمثل على ذلك بقول ذي الرُّمة: «ما بَالُ عَيْنِك منها الماء ينسكبُ» وبغيره من الأبيات الشعرية[٥].

---

(١) ابن رشيق، العمدة، ١:٣٢٩.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥٠-٢٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢٥١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٢٥١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٢٥١.

وسبقه إلى الحديث في هذا الموضوع ابن رشيق، فذكر حسن الافتتاح، ولطف الخروج، وحسن الخواتم، وذكر أنّ حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس[1]، وحذّر من التعقيد في الابتداء، فإنه أول العيّ، ودليل الفهّة[2].

ويرى أنّ الفطن الحاذق هو من يختار للأوقات ما يناسبها، وعليه أنْ يستميل المخاطبين، وأن يتفقد ما يكرهون سماعه، فيتجنب ذكره، وذكر أنّ للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء، وإنّ ذلك استدراج لما بعده[3].

ومن الشعراء من لايجعل لكلامه بسيطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريد مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع، والكسع والاقتضاب، ويشير إلى أن القصيدة إذا كانت على تلك الحال كالخطبة البتراء والقطعاء، وهي التي لا يُبتدأ فيها بحمد الله[4].

وأشار ابن الأثير إلى هذه القضية وقال: «وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إنْ كان فتحاً ففتحاً، وإنْ كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني[5]. وذكر من قبيح الابتداءات قول ذي الرُّمّة «ما بال عينك منها الماء ينسكبُ»[6]. وقد أشير إلى هذا الاستشهاد عند الحلبي[7] وذكر ابن الأثير من الابتداءات الموفقة قول أبي تمّام:

(١) ابن رشيق، العمدة، ١:٢١٧.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١:٢١٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١:٢٢٢.
(٤) المصدر السابق نفسه، ١:٢٣١.
(٥) ابن الأثير، المثل السائر، ٢:٢٢٣.
(٦) المصدر السابق نفسه، ٢:٢٢٣.
(٧) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥٠.

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ   فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[١]

وأورد الشهاب الحلبي الشاهد نفسه على الابتداءات الموفقة.

وسبقهما ابن رشيق إلى ذكر بعض الأمثلة والشواهد وهذا يشير إلى أن اللاحق من الأدباء تأثر بما كتبه السابق[٢].

تحدّث الشهاب محمود الحلبي عن براعة التخلّص، وفسّرها قائلاً : «هو أن يكون التشبيب أو النسيب ممتزجاً بما بعده من مدح وغيره، غير منفصل عنه» وأورد ثلاثة أمثلة على ذلك من أشعار العرب[٣] وكذلك نجد ابن الأثير يفصّل القول في هذه القضية، وتبدو النزعة التعليمية في كلامه واضحة وبارزة، فيقول: «وينبغي لك أيّها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليها جلّ همّتك، فإنّه مهم عظيم من مهمات البلاغة»[٤].

ثم إن ابن الأثير لم يقصر التخلص على الخروج من موضوع النسيب أو التشبيب، وإنما أشار في حديثه عن هذا الموضوع إلى أنّ مؤلف الكلام يأخذ في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذْ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه، ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، والأمر يختلف بالنسبة للناثر لأنه مطلق العنان يمضي حيث شاء، لذلك فهو شاق على الشاعر أكثر منه على الناثر[٥].

وذكره ابن رشيق وقال: «إنّ أولى الشعر بأن يسمّى تخلّصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه»[٦].

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ٢: ٢٢٩.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١:٢٢٢.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥٤.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ٢:٢٤٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٢:٢٤٤.

(٦) ابن رشيق، العمدة، ١:٢٣٧.

ويذكر أن العرب كانوا يقولون عند فراغهم من نعت الإبل، وذكر القفار (دعْ ذا) و(عدّ عن ذا)، ويأخذون فيما يريدون، وإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متّصلاً بما قبله، ولا منفصلاً بقوله (دعْ ذا) ونحو ذلك سمّي طفراً وانقطاعاً»(١).

وفي براعة التخلص يشير ابن أبي الأصبع إلى زهير فيقول: «وأمّا في الشعر فأتمّ الناس براعة في التخلص، وأول من أحسن ذلك من القدماء في غالب ظني زهير، فقد قال:

إنَّ البَخِيل مَلُومٌ حَيْثُ كانَ   وَلكِنَّ الكَرِيمَ عَلى عِلاّتِهِ هَرَمُ (٢)

أمّا براعة القطع، وهو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسّل أو الخطيب أو الشاعر مستعذباً حسناً، لتبقى لذته في الأسماع، وقد مثّل على ذلك الشهاب الحلبي بقول أبي تمّام:

- أبْقَتْ بَنِي الأَصْفَرِ المِمْراضِ كَاسْمِهِمُ   صُفْرَ الوُجوهِ وَجَلَّتْ أوْجُهُ العَرَبِ(٣)

وهذا الذي سمّاه ابن رشيق حسن الختام أو الانتهاء، وذكر أنّه قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشعر مفتاحاً له، وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه(٤)، ويتحدث ابن أبي الأصبع عن حسن الخاتمة قائلاً: «ويجب على المتكلم شاعراً كان أو ناثراً أن يختم كلامه بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع؛ ولأنها ربما حفظت من سائر الكلام» وعلى الكاتب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها»(٥).

تحدّث الشهاب محمود الحلبي عن السجع، وذكر أنّ كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها، لأنّ الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها، ولا يتم ذلك إلا بالوقوف، وقد قسّمها أربعة أقسام:

---

(١) المصدر السابق، ١: ٢٣٩.
(٢) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٧٦٣.
(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥٥.
(٤) ابن رشيق، العمدة، ١: ٢٣٩.
(٥) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٥٤٣.

الترصيع والمتوازي والمطرف والمتوازن، ومثّل على كل نوع من الأنواع من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

إنّ رأيه في السجع يشابه رأيه في التجنيس الذي يجب أن لا يكون على حساب المعنى، بل يرى أن تكون المعاني مناسبة لألفاظها، من غير أن يكسو اللفظ الشريف المعنى السخيف، أو على الضد، بل يصاغان معاً صياغة تناسب وتلاؤم[1].

ويوصي ابن أبي الأصبع بأن يجيء السجع مفيداً غير مقصود، فقد كان ذلك طريقة فرسان الكلام « فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان، وإن عزّ ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه وتباينت في التقفية مقاطعه، فقد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بتة، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق عن غير قصد ولا اكتساب، وإنما كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم مناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متماثلة، وتلك طريقة الإمام عليّ -عليه السلام- ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هارون، وإبراهيم بن العباس، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وأبي عثمان الجاحظ، وغير هؤلاء من الفصحاء البلغاء »[2].

ويمثّل على ما جاء مطبوعاً غير متكلف من أقوال الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- ويورد قوله في وصف القرآن الكريم، ثم يعقب قائلاً: فانظر إلى انسجام هذه العبارة وما فيها من البديع غير المقصود، تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل، فصلوات الله وسلامه على من بعث بجوامع الكلم، وأوتي هذه الفصاحة الرائعة، وعلى آله وصحبه وسلّم»[3].

وأورد الجرجاني أمثلة كثيرة على السجع من أقوال الرسول -صلّى الله

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٢٠٦-٢١٣.

(٢) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٧٥٢-٧٥٣، نقلاً عن ابن أبي الأصبع، قانون ديوان الرسائل، ٢١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ٧٥٣، نقلاً عن ابن أبي الأصبع، قانون ديوان الرسائل، ٢٢٦.

عليه وسلّم- مثل: «لا تزال أمّتي بخير ما لم ترَ الغنى مغنماً، والصدقة مغرماً». وقوله: «أيّها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وبعد أن يورد هذه الأمثلة يقول: فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع، وترك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرّ به، وأهدى إلى مذهبه، ولذلك أنكر الأعرابي -حين شكا إلى عامل ألماً- بقوله: «ملأت ركابي، وشققت ثيابي، وضربت صحابي»، فقال له العامل، ويسجع أيضاً، إنكار العامل السجع، حتى قال: فكيف أقول؟ وذاك أنّه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ، ولم يره بالسجع مُخِلاً بمعنى، أو محدثاً في الكلام استكراهاً، أو خارجاً إلى تكلف واستعمال لما ليس بمعتاد في عرضه»[1].

ويرى ابن الأثير أنّ السجع هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد، وقد فسّر ذمّ بعض العلماء للسجع على أنّه بسبب عجزهم عن الإتيان به، ودليله أنّه ورد في القرآن الكريم كثيراً، حتى جاءت سورة الرحمن كلها مسجوعة، وورد هذا الأسلوب بكثرة في كلام الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

ويوضح رأيه في السجع قائلاً: «وإذا صوّرت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع، ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان، إنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه.

وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر، وتُنْقِص منه، فإذا فعلت ذلك فإنّه هو الذي يذمّ من السجع ويستقبح، لما فيه من التكلّف والتّعسّف، وأما إذا كان محمولاً على الطّبع غير متكلّف فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكمال»[2].

وهكذا نرى أن الأربعة يجمعون على أن يكون السجع غير متكلف، وإنّما

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٩-١٠.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٩٨.

يأتي عفو الخاطر، وليس على حساب المعنى، وهذا ما عناه الشهاب محمود الحلبي بقوله: «وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسو اللفظ الشريف المعنى السخيف، أو على الضد، بل يصاغان معاً صياغةً تناسُبٍ وتلاؤم حتى لا يكون الكلام كما قيل:

وبَعْضُ قَريضِ المرْءِ أولادُ عِلّةٍ يكدُّ لسانُ الناطقِ المُتَحَفِّظِ[1]

وكان الجرجاني واضحاً في الشروط التي اشترطها على من أراد أن يأخذ بهذا الأسلوب، فذكر منها: ألاّ يكون مخلاً بالمعنى، وألا يكون محدثاً في الكلام استكراهاً، وألاّ يعمد إلى التكلف، وألاّ يكون خارجاً عن المألوف في الاستعمال، أي في أساليب اللغة العربية وقواعدها.

عقد الشهاب محمود الحلبي فصلاً تحدث فيه عن الفِقَر المسجوعة، ومقاديرها، وبدأ حديثه عنها قائلاً: «قصر الفقرات تدل على قوة التمكّن، وإحكام الصنعة، وأقل ما يكون من كلمتين كقوله تعالى: (يا أيُّهَا المُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)». ويرى أنّ أمثال ذلك كثيرة، غير أنّ الأكثر ما زاد على ذلك، ويورد أمثلة من أقوال بديع الزمان،[2] وتحدث عن الفقر المختلفة، ويرى أنّ الثانية يُفَضّل أن تكون أزيد من الأولى بقليل، وإذا وجدت فقرة ثالثة، يُفَضّل أن تكون أزيد من الثانية بأقلّ المثل، وفي هذه الحالة يفضّل أنْ تتساوى الأولى والثانية في الطول.

تحدّث الشهاب محمود الحلبي عن أسلوب الحل، وذكر أنه باب يتسع على المجيد مجاله، وتتصرف في كلام العارف به رويّته وارتجاله، وقد اشترط على من يتصدى له أن يكون كثير حفظ الأحاديث النبوية، والآثار والأمثال والأشعار، فقد قدّم حفظ الأحاديث الشريفة، ولكنّه عاد يتحدث عن حلّ المنظوم قائلاً:

«وكيفية الحل: أن تتوخى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه، ثم يرتب تلك الفرائد ترتيب متمكن، وفي حله يمكن أن يستخدم بعض أنواع البديع،

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٢١٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢١٣.

إذا أمكن ذلك، من غير أن يتكلفها، وهنا يتضح رأي الشهاب الحلبي في البديع وألوانه، فهو يحبّ البديع ويمتدحه، لكنه يشترط ألاّ يكون متكلفاً[١].

ويشترط في الحل بالمعنى أن تكون ألفاظه غير قاصرة عن ألفاظ المحلول، ويمثل بقول ابن الأثير في ذكر العصا التي يتوكأ عليها الشيخ الكبير: «وهذه لمبتدأ ضعفي خبر، ولقوس ظهري وتر، إذا كان إلقاؤها دليلاً على الإقامة فإنّ حملها دليل على السفر، والمحلول قول بعضهم:«كأنَّنِي قَوْسٌ رامٍ وهِيَ لي وَتَرُ»[٢].

ومثّل على الحل بقوله في حل بيت ابن الرومي في وصف الحديث:

وحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ لوْ انّهُ لمْ يجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ

«وكفى السيوف فخراً أنّها للجنّة ظلال، وإلى النصر مآل، وإذا كان من بين الحديث سحر فإن بيان حديثها عمّن كلّمته هو السحر الحلال»[٣]

- ويرى الشهاب الحلبي أنّه يمكن نقل المحلول إلى أي معنى، ويحذّر من الاعتماد في جميع كتاباته على الحل مخافة أن يتكئ خاطره على ذلك[٤].

وهكذا تلمس أنّ الشهاب محمود الحلبي يريد من الكاتب أن يشق طريقه بنفسه، فهو يدعو إلى الاعتماد على الطبع السليم، مع الأخذ بأنواع المحاسن البديعية من غير تكلّف، وسبق أن أشار إلى ضرورة الاعتماد على الطبع في حديثه عن عدم حفظ رسائل المتقدمين، حتى لا يتكئ خاطره على ذلك[٥].

تحدّث ابن شيت عن الحل والنظم وهما: حل المنظوم ونظم المحلول، وأشاد بالاستشهاد، وذلك: «لأنّ الاستشهاد بالبيت في مكانه من أحسن الأشياء في الكتابة»، وأورد مثالاً على نظم المحلول من قول الرشيد: «ما أدري هل التفاح خمراً انعقدت، أم الخمرة تفاحاً انحلت»، فنظمه بعض الشعراء قائلاً:

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٢٦.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٢٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٢٩.
(٥) المصدر السابق نفسه، ٩٣.

أترى التفّاحَ خَمْراً جُمِّدَتْ	أمْ تَرى الخَمْرَةَ تُفّاحاً أذيبـــــا
كُلّما أبْصَرْتُ هاتيكَ وَهذا	في كِلا الوَضْعَيْنِ شاهَدْتُ عَجيبا

ويرى الجويني أنّ حلّ المنظوم ونظم المنثور مذهب أدبي قديم، أخذ به الكتّاب أنفسهم على مرّ العصور[1].

وسبق أن تحدث ابن رشيق عن نظم المثل، ورأى أنّ هذه الظاهرة في الشعر نُبَذٌ تُسْتَحسَن، ونكت تستظرف مع القلة وفي الندرة، فأما إذا كثرت فهي دالّة على الكلفة، فلا يجب أن يكون الشعر مثلاً كله وحكمة[2].

وتحدث ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» عن التضمين، وبيّن أنّ العلماء اختلفوا فيه، فمنهم من يراه حسناً، ومنهم من يراه معيباً، والتضمين عنده قسمان: كلّي وجزئي، والكلي أن تذكر الآية أو الخبر بجملتهما، والجزئي أن تدرج بعض الآية أو الخبر في ضمن الكلام.

ويفضّل ابن الأثير ألاّ تؤخذ الآية بكمالها وكذلك الخبر، بل يؤخذ جزء منها[3]، وتراه يكثر من التمثيل على ذلك من خطب عبد الرحمن بن نباتة، مثل قوله: «فيا أيّها الغفلة المطرقون،أما أنتم بهذا الحديث مصدّقون، فمالكم منه لا تشفقون، فورَبِّ السماء والأرض إنّه لحقٌّ مثلما أنّكم تنطقون»[4].

ويعقد ابن شيت باباً في كتابه «معالم الكتابة» تحت عنوان «في الأمثال التي يدمجها الكاتب في كلامه ويستشهد بها نظماً عند توغله في القول واقتحامه»، ويستهل هذا الباب بقوله: «فإن الله قد ضربها للناس في كتابه، وردّدها في أثناء خطابه»، وإيراد البيت الشعري في مكانه، والتمثيل بالمثل السائر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة، وأعظم فنونها.

من القواعد التي أولاها الشهاب محمود الحلبي اهتمامه وأوصى الكتاب بالأخذ بها «مناسبة المقال للمقام» فقال: «ومما يتعيّن على الكاتب استعماله،

(١) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٤٢٩-٤٤٣.
(٢) ابن رشيق، العمدة، ١: ٢٨٥.
(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٢: ٢٢٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٢: ٢٢٨.

والمحافظة عليه، والتمسك به إعطاء كل مقام حقّه»[1].

ولعلّ بشر بن المعتمر قد سبقه إلى هذه الفكرة، فقد أشار إلى قضية مهمّة في صحيفته وهي «موافقة الكلام لمقتضى الحال ومع ما يجب لكل مقام من المقال»[2]. وفي حديثه عن معرفة مقاصد الكلام ذكر أنّ أول ما يحتاجه بعد الجدّ حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول. وذكر أنّ لكل مقام مقالاً، ومفاده أنّ على الشاعر أن يراعي الموقف فشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع[3].

وقد أظهر محمود رزق سليم إعجابه بالقواعد والقوانين التي رسمها الشهاب محمود الحلبي لكتّاب الديوان، وقال: «ومنه يتبيّن لنا حسن بصره بأمور عصره، وسعة حيله بملابسات جيله، وقد بسط لنا نماذج متعددة، وشرح لنا مناسباتها وملابساتها، وحدّد لنا أحوالها، وبيّن لنا ما تقتضيه هذه الأحوال من ضروب القول وأوجه البيان»[4].

وأشار الصيرفي في كتابه إلى وجوب أن يعرف الكاتب الفرق بين مخاطبة الملوك الإسلامية وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملّة واللسان، لأن مخاطبة من يتكلم باللسان العربي معروفة الطرائق تستعمل فيها الأسجاع، وتنميق الألفاظ مع ضبط المعنى وحسن التأليف، أما مخاطبة غير العرب فيجب أن يكون محرراً من الزينة والمجاز لتسهل ترجمته، ويقدم الصيرفي أموراً مهمة في معرفة شروط الترجمة من لغة إلى أخرى، مثل أن يكون المترجم ملمّاً باللغتين، ويرى أن يقوم الشخص الملمّ باللغتين بنقل الكتاب إلى غير العربي، ويشير إلى أن هذه المرتبة، أي مرتبة الكاتب الذي يكتب للملوك المخالفين للسان أعلى المراتب[5].

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٠.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١: ٢١٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١: ١٩٩.

(٤) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٣: ٢٢٩.

(٥) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٢١٣-٢١٤.

ويشير محمد غنيمي هلال إلى رأي النقاد العرب في ضرورة أن يلتزم الناثر بالصدق، وأن يهدف إلى غاية، خطيباً كان أم قائماً بأمر الرسائل الرسمية، ويرى أن الخطابة والكتابة مختصتان بأمر الدين، ولكل منهما مساس بأمر العقيدة. ويراد بالصدق: الوقوف عند حدود الأخلاق والمواضعات الاجتماعية السائدة، والهدف رهين بآراء الخليفة أو الإمام فيما يتعهد به من مواعظ ومن آراء ونصائح، أو فيما يدير من تدبير شؤون مملكة في تقليد المناصب أو عقد الصلات بينه وبين سواه من الملوك والأمراء، فصدق الكاتب وهدفه مردّهما إلى العرف، وأخيراً مردهما إلى أنهما يقعان موقع ما ينتفع به في تنظيم شؤون الدولة[1].

ويطبّق الصيرفيّ مقياس الصدق فيرى أن الكاتب ذا الأصل الكريم يصدر منه أعلى الكلام طبقة، مما يليق بمقام الملوك ومراتبهم، وذلك لأنه ناشئ عن انفعال صادق من صاحبه، نابع من بيئته، ويطبق الصيرفي مقياس الصدق على كاتب الملك المكاتب غيره من الملوك إذ يشترط أن يكون من ملّة الملك، وعلى مذهبه، ليصدق في دفاعه عنه، وربما يحتاج إلى تفخيم ملة ملكه والدفاع عنها[2].

وتمثّل الشهاب محمود الحلبي قاعدة «لكل مقام مقال» في كتبه وتقاليده، فهو يرى أن على الكاتب إذا كتب في أوقات الحروب إلى نواب الملك وإلى مقدّمي الجيوش والسرايا أن يتوخّى الإيجاز والألفاظ البليغة الدالّة على القصد، من غير تطويل ولا بسط، وأن يتجنّب تهويل أمر العدوّ مخافة أن يضعف القلوب، ولا يلجأ أيضاً إلى تهوين أمره مخافة أن يقعوا في الغرور، والاستهانة بأمر العدو[3].

وهذه الإرشادات التي يسديها الشهاب محمود الحلبي تنمّ عن ثقافة عسكرية متقدّمة ألمّ بها، وأشار إلى ما يكتب عن الملك في أوقات الحروب وحركات العدو، وهو يرى أن على الكاتب في هذا المقام أن يبسط القول في وصف العزائم وقوة الهمم وشدة الحميّة[4].

---

(١) هلال، النقد الأدبي الحديث، ٢١١.

(٢) الجويني، ملامح الشخصية المصرية، ٣١٢.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٠-٣٣١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٣٢.

الفصل الثالث

الدراسة الموضوعية لنثر الشهاب محمود الحلبي

كان الشهاب محمود الحلبي كاتباً- كما يقول العمري- لا يعرف له نظير، ولا يعرف مثله في الزمن الأخير، تعيّن بدمشق، فكان للكتّاب والدا[1]. وقد أتقن قوانين الديوان مما لم يجمعه سواه، ولو تفرّد بواحد كفاه، وبه انتفع كتّاب زمانه، وتخرجوا عليه، وتدربّوا بين يديه[2] وقد قضى أكثر من نصف عمره يعمل في ديوان الإنشاء، لذلك لا غرابة أن نجد أهم موضوعاته النثرية.

أولاً: الرسائل الديوانيّة:

هي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة وشؤون الرّعية [3]، ويشتمل هذا النوع من الرسائل على التقاليد والتواقيع والمناشير والتفاويض والمراسيم والعهود، انتشرت هذه الكتب بين الناس، واحتفظوا بها لأهميتها، إذ إنّها مظهر من مظاهر الصلة بين الحاكم والمحكوم،[4] وقد أشار الشهاب محمود الحلبي إلى كثرتها وقال: «وفي أيدي الناس مما كتبت فيه شيء كثير»[5].و أهم أنواع الرسائل الديوانيّة: كتب التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع

والتقاليد: جمع تقليد، يقال: قلّدته أمر كذا، إذا ولّيته إياه.وتشتمل على طرّة ومتن، وعنوان الطرّة: « تقليد شريف لفلان بكذا » ويختلف هذا العنوان بحسب رتبة المقلَّد، أما المتن فقد قيل :إنّ التقاليد كلّها لا تفتتح إلا بالحمد لله،

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ١٢، ٣٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢، ٣٠٣.

(٣) القيسي، فايز عبدالنبي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ١١١.

(٤) باشا، أدب الدول المتتابعة، ٧٩٣.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٩.

ثم يقال بعدها: أمّا بعد، ثم يذكر ما سنح من حال الولاية وحال المولّى[١].

أمّا المراسيم فهي على نمط التقاليد، ولا تختلف عنها إلا في أمرين:

الأول: لا يكتب شيء من المراسيم في قطع الثلثين بل في قطع النصف، ويقال في المرسوم: أن يستقر، ولا يقال أن يفوض ولا أن يقلد، وأضاف القلقشندي إلى هذين الأمرين أمرين آخرين، هما: أنه لا يُقال في الصدر «أما بعد»، بل «بعد» ولا يقال «على أجمل العوائد وأتمّ القواعد» بل يقال: «على عادة من تقدم وقاعدته»[٢]

والتفاويض: جمع تفويض وهو مصدر فوّض الأمر، إذا ردّه إليه. ويكتب بها إلى الذين هم دون أرباب التقاليد، وهي من نمط التقاليد غير أنه يقال في تعريفها: «تفويض شريف لفلان بكذا»[٣] أما التواقيع فهي جمع توقيع، وهو اسمٌ لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدم، ثم أصبح علماً على نوع خاص مما يكتب في الولايات. وعنوانها «توقيع شريف لفلان بكذا» وقد خُصّت أخيراً بالمتعمّمين[٤]، ومنها رسائل العهود، وهي رسائل ديوانية يدبّجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده، وتُعرف حينئذٍ بعهد الولاية، وتُكتب أحياناً على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان لثائر أو خارج على الدولة أو لدولة مجاورة زالت أسباب الخلاف معها، وتعرف حينئذ «بعهد الأمان»[٥].

كانت كتب التواقيع تجهّز إلى البلاد كلّها، وتحمل منها نسخ كثيرة لتوزّع فيها، وهي صورة طبق الأصل عن التوقيع الأصلي، وهذه التواقيع تُوضّح بعض مظاهر الحياة الهامّة، وتسجّل مظهراً من أدب هذا العصر وعلاقته الوثيقة بالحياة السياسية، وهي ذات طابع رسمي وظيفي أكثر منها ذاتية أو تأملية،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ١٠١-١٠٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١١: ١٠٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١١: ١١٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١١: ١١٢-١١٤.

(٥) القيسي، أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري، ١٩٧.

وهي تعكس صورة الحاكم المثالي كما يُفترض أن يكون، وصورة القاضي النزيه[1].

وأورد الحلبي من تقاليده تقليداً كتبه إلى متملك سيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده: «الحمد لله، الذي خصّ أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملك، وفضّل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل، وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول»[2].

يعكس هذا التقليد اعتزاز الكاتب بالدولة، وتبجيله لها، وإسرافه في الثناء عليها، وهذاالتقليد كغيره من التقاليد الأخرى يرتبط بالجانب السياسي للدولة.

وهذا جزء من نسخة تقليد بالوزارة كتب به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة من إنشائه:

«الحمد لله الذي شدّ أزر مُلكنا الشريف بمن أضاء في أُفق الدين علمه، وشيّد قواعد عدلنا المنيف بمن أعلتْ منارَ الحق آياتُه في أحكام الممالك وحلمه، ووطّد أركان دولتِنا القاهرةِ بمنْ يفعَلُ في نكايةِ أعداء الله فعلَ الحربِ العوانِ سلمُه، وأجرى الأرزاقَ في أيامنا الزاهرة على يد من كفّتْ أقلامه كفَّ الحوادثِ فلا عدوانَ تفشّى ظُلمُه، ولا عاد يُخشى ظلمُه، وصان ممالكَنا المحروسة مَنْ إنْ صرف إلى نكاية أعداء الله حدّ يراعه لم ينبْ موقعُه، ولم يعْفُ كَلْمُه»[3].

فهذا التقليد ينبئ من بدايته أنه تقليد بوزارة، فمن العبارة الأولى «الحمد للّه الذي شدّ أزر ملكنا الشريف بمن أضاء في أفق الدين علمه» يتضح أنه يعني وزيراً، فهو الذي يشد أزر الملك، ثم إن الحديث عن صاحب قلم ورأي وإدارة، يتصرف في أرزاق الناس.

وهذه نسخة توقيع بتدريس الحديث بالجامع الحاكمي من إنشائه للشيخ قطب الدين عبد الكريم «الحمد لله الذي أطلعَ في أفق السنّةِ الشريفةِ من أعلام

---

(١) باشا، أدب الدول المتتابعة، ٧٩٦.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ٢٧٣.

علمائها قُطباً، وأظهر في مطالعها من أعيان أئمتها نجوماً، أضاء بهم الوجود شرقاً وغرباً، وأقام لحفظها من أئمة أعلامها أعلاماً أحسنوا عن سندها دفاعاً، وأجملوا عن متونها ذباً»[١].

فالحديث من بدايته عن السنّة الشريفة، وعن إمام من الأئمة، وعن السند والمتن، وهي من مصطلحات علم الحديث الشريف.

واشترط الحلبي في التقاليد والتواقيع والتفاويض أن يراعى فيها عدة أمور منها: براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال، أو قدر النعمة، أو لقب صاحب التقليد واسمه، بحيث لا يكون المطلع أجنبياً من هذه الأحوال، ولا بعيداً عنها ولا مبايناً لها، ثم يستصحب ما يناسب الغرض، ويوافق المقصد من أول الخطبة إلى آخرها، ويفضل أن يشتمل التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير:

الأول الخطبة، والثاني موقع الإنعام في حق المقلّد، وذكر الرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف المقلّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة وبعد صيت وسمعة وشجاعة إن كان نائباً، ووصف العدل والرأي والتدبير والمعرفة لوجده الأموال، وعمارة البلاد وصلاح الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً. وكذلك في كل رتبة بحَسَبِها[٢].

والقسم الرابع: في الوصايا وهذه هي القاعدة في مثل ذلك، ومنها أن يراعي المناسبة، وما تقتضيه الحال، فلا يعطي أحداً فوق حقه، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله، ويراعي أيضاً مقدار النعمة والرتبة، ويتجنب التعريض بالمعزول، وذلك لأن التعريض به يورث الأحقاد والضغائن، ويدل على ضعف الرأي في اختياره، ولكن يمكن أن يصف الثاني بالأوصاف التي تناسبه من غير تعريض بالأول.

وعلى الكاتب أن يجتهد في اختيار المعاني والألفاظ، وذلك لأن مثل هذه

---

(١) المصدر السابق، ١١: ٢٤٠.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٨.

الكتب تشيع وتذيع، ولا عذر لمقصِّر في ذلك[1].

ثم إن الكلام فيما يكتب في الولاية قد يكون جميعه بلفظ الغيبة، مثل أن يقال: عهد إليه بكذا، أو قلده بكذا، أو فوض إليه كذا.

وقد يكون جميعه بلفظ الخطاب، مثل أن يقال: وقد عهد إليك بكذا، أو قلّدك كذا، أو فوّض إليك كذا، ثم يقال: ونحن نوصيك بكذا، أو فعليك بكذا، ونحوه، وقد يصدّر بلفظ الغيبة، ثم يلتفت منها إلى الخطاب، وقد يكون العكس[2].

كتب الشهاب محمود الحلبي كتاباً في الحثّ على لزوم الطاعة وذمّ الخلاف إلى متملك سيس[3] عند كسرة التتار، بعد قيامه معهم في المصاف، ومساعدته إياهم وقال: «بصَّره الله برشده، وأراه مواقع غيّه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده، وأسلاه بسلامة نفسه عمّن روّعته السيوفُ الإسلاميةُ بفقده، صدرت تعرّفه أنّه قد تحقق ما كان من أمر العدو الذي دلاّه بغروره، وحمله التمسك بخداعه على مجانبة الصواب في أموره، وأنهم استنجدوا بكل طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة، وقلوب خائفة، وذلك بعد أن أقاموا مدّةً يشترون المخادعة بالموادعة، ويسرّون المصارمة في المسالمة، ويظهرون في الظاهر أموراً، ويدبّرون في الباطن أموراً، ويعدون كلَّ طائفةٍ من أعداءِ الدين ويمنّونهم، وما يَعِدُهُم الشيطانُ إلا غُروراً، وكنّا بمكرهم عالمين، وعلى معاجلتهم عاملين، وحين تبيَّن مرادهم، وتكمّل احتشادُهم، استدرجناهم إلى مصارِعِهم، واستجررناهم ليقربوا في القتل من مضاجِعِهِم»[4].

وقال من عهد السلطان: «وجَمَع بِكَ شملَ الأمّة بَعْدَ أنْ كَادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهُم، وعضدكَ لإقامةِ إمامته بأولياء دولتك الذين رضيَ اللهُ عنهُم،

---

(١) المصدر السابق، ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) سمّاها ياقوت سيسية، وذكر أن عامة الناس فيها يسمونها «سيس»، وهي من المدن العظيمة، تقع بين أنطاكية وطرسوس. ياقوت الحموي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ٣: ٢٩٧-٢٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٥٩-٢٦٢.

وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أُمروا به من طاعتكَ وهم فارِهُون، وقلّبوا لك الأمر حتى جاء الحقُّ، وظهر أمرُ اللهِ وهم كارهون»[١].

يلاحظ أن الكلام جاء بلفظ الخطاب: «جمع بك»، «عضدك»، دولتك». حرص الكاتب على إبراز النهج الذي تسير عليه الدولة، فهي دولة مجاهدة تلتزم بقواعد الشرع وأحكامه.

وقال من عهد السلطان الملك المنصور لاجين: «وجعل عدوّه وإنْ أعرضَ بجيوشِ الرعبِ مَحْصوراً، وكفاهُ بالنَّصْرِ على الأعداءِ التوغّلُ في سفكِ الدماءِ فلم يسرفْ في القتلِ إنَّهُ كان مَنْصوراً»[٢]، وهكذا يندر أن تجد تقليداً لا يشير إلى الجهاد.

ومن الأمور التي على الكاتب مراعاتها معرفة الفرق بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات، ليرتّبها ويفرق بينها فرقاً يقفه على الواجب، وينتهي به إلى الصواب، فيخاطب كلاً بما يستحق من الخِطاب، فلا يَصِحُّ أنْ يُخاطَبَ الرئيسُ خِطابَ المرؤوسِ.

ويمثل القلقشندي على الفرق بين الألفاظ من خلال الألفاظ والتعابير التالية: «أصدرنا» و «أصدرناها»، فأصدرناها أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه، ومن ذلك الفرق بين «نبدي لعلمه» وبين «فوضّح لعلمه»، فنبدي لعلمه أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه، ومن ذلك الفرق بين «علمه الكريم» وبين «علمه المبارك»، ومن ذلك الفرق بين «ومرسومنا لفلان بكذا» وبين «والمرسوم له بكذا»، فمرسومنا أعلى بالنسبة إلى المكتوب عنه، وذلك لاشتمالها على نون الجمع المقتضية التعظيم[٣]. وكذلك الفرق بين «والمسؤول» وبين «والمستمدّ» فإن المسؤول أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه. وكذلك الفرق بين «بلغنا» وبين «أنهي إلى علمنا» وبين «اتصل بنا»، فالأخيرة أعلى من «أنهي إلى علمنا» و «أنهي

---

(١) المصدر السابق، ١٢: ٢٣٨، الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٢٣٩، الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٧٠.

إلى علمنا» أعلى من «بلغنا». وكذلك الفرق بين «أنهى فلان كذا» وبين «عرّفنا كذا»، فعرّفنا أعلى بالنسبة إلى رافع الخبر. وكذلك الفرق بين «وردت مكاتبته» وبين «وردت علينا مكاتبته»، فوردت علينا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة الواردة[1]. وكذلك الفرق بين «عرضت علينا مكاتبتك» وبين «وقفنا على مكاتبتك»، فوقفنا على مكاتبتك أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة. وكذلك الفرق بين «شكرت الله تعالى على سلامته» وبين «وتوالى شكري لله تعالى». وكذلك الفرق بين «رغبت إلى الله تعالى» وبين «ضرعت إلى الله تعالى» فضرعت أعلى من رغبت. وكذلك الفرق بين «وقابلت أمره بالطاعة» وبين «وامتثلت أمره بالطاعة» فامتثلت أمره أعلى من قابلت أمره. وكذلك الفرق بين «وشفعت له» وبين «وسألت فيه»، فالسؤال أعلى في حق المسؤول من الشفاعة. وكذلك الفرق بين «وخاطبت فلاناً في أمره» وبين «وتحدثت في أمره» فتحدثت أشد في تواضع المتكلم من خاطبت. وكذلك الفرق بين «تشريفي بكذا» وبين «إسعافي بكذا» وبين «إتحافي بكذا» فالإسعاف أعلى رتبة من التشريف، وإتحافي دون تشريفي. وكذلك الفرق بين «نزل عنده» وبين «نزل بساحته» فالساحة أعلى. وكذلك الفرق بين «فيحيط علمه بذلك» وبين «فيعلم ذلك» فيحيط علمه أعلى[2].

وللشهاب محمود الحلبي من الأجوبة عن الكتب السلطانية نسخة جواب عن وصول خيل من الإنعام السلطاني قال منها: «وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وتتخذ صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها». ويصف هذه الخيل وصفاً دقيقاً، إلى أن ينتهي من الوصف، ويقول: «فترقّى المملوك إلى رتب العز من ظهورها، وأعدّها لخطبة الجنان، إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها، وكلف بركوبها فكلما أكمله أعاد، وكلما أملّه شره إليه، فلو أنه زيدُ الخيل لما زاد، ورأى من آدابها ما دلّ على أنها من أكرم الأصائل وعلم

(١) المصدر السابق، ٦: ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٦: ٢٧١-٢٧٢.

أنها ليومَيْ سِلمه وحربه جُنّة الصائد وجُنّة الصائل، وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه، وأعدّها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه، والله تعالى يشكر برّه الذي أفرده في الندى بمذاهبه، وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه[1].

ويلاحظ أنه يخاطب على لسان النائب (المرؤوس) الرئيس وهو السلطان، والعبارات التالية شاهدة على ذلك: «فترقّى المملوك إلى رتب العز من ظهورها»، وهو يعني النائب، و«قابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه، وأعدها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه» وقد كان الكلام عن السلطان بلفظ الغيبة مثل قوله: «والله تعالى يشكر برّه الذي أفرده في الندى بمذاهبه» يلمس الدارس لرسائل الشهاب محمود الحلبي الديوانية بخاصة حرصه على نشر فضائل الدولة وبث أخبارها وإنجازاتها، يقول من نسخة توقيع برئاسة الطب: «... وملهم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلى من أنفق في خدمة الطبيعة أيام عمره، فكان بلوغ الغاية في علمها نتيجة خدمته»[2]. فالكاتب يشير إلى أن الدولة ممثلة بالسلطان تؤمن بأن من واجبها أن تجتهد في اختيار رئيس الطب، ليقوم بأمانة أرواح البشر، وقد أوضح التوقيع أهمية مهنة الطب التي موضوعها الأبدان القائمة بالعبادة، والأجسام القائمة بما يتعاقب عليها من الحوادث والزيادة، والنفوس التي لا بديل لها ولا عوض[3].

ولقد أوضح الكاتب بعض مهام رئيس الطب، فعليه أن ينعم النظر في اختيار القائمين على هذا العمل الجليل، وأن يتأكد من مقدرتهم العلمية أولاً، وتديّنهم ثانياً، وأمانتهم ثالثاً، والكاتب من خلال حديثه عن هذه المهنة يورد أسماء بعض المشهورين في عالم الطب في التاريخ الإسلامي مثل «الرازي» و «الفارابي». وهذه التواقيع تعكس صورة المسؤول المثالي سواء أكان سلطاناً أم طبيباً، فالدولة ممثلة بسلطانها توصي بأن يتم اختيار القائمين على مهنة الطب

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٨٨-٣٩١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ٣٧٥.

(٣) المصدر السابق نفسه ١١: ٣٧٥

من الأكفياء، وإذا تحقق ذلك فإنه يحصل على رضا الله تعالى ورضا رسوله، لأنه أشفق على الأمة وصان النفوس بأن وقف في وجه من تقدم لهذا العمل بغير حقه، ويلاحظ أن المسؤولين كانوا يتشددون في اختيار القائمين على مهنة الطب، وكانوا يخضعونهم للامتحانات، ومما قاله الشهاب محمود الحلبي في ذلك: «ولا يصرِّف أحداً في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التزكية، وليشفعها بالامتحانات[١]. ثم هو يقدِّم بعض النصائح والإرشادات للأطباء، منها: إذا صادف الطبيب حالة عجز عن معالجتها فليلجأ إلى من هو أوفق منه بالتقديم وأعلم، ثم يوصي بتقوى الله، فإنها ملاك الأمور كلها.

وهكذا يواصل الكاتب بث فضائل الدولة ونزاهتها في أغلب رسائله الديوانية، ويشير إلى أن الدولة حريصة على أن تقتصر الخطابة على فرسانها والقادرين عليها، فيقول: «ونحمده على ما منحنا من صَوْنِ صهوات المنابر إلا عن فرسانها، وحفظ درجات العلم إلا عمّن ينظر بإنسان السنّة، وينطق بلسانها». ويعلي من شأن الخطابة فهي من أشهر شعائر الإسلام، فيقول: «هي الرتبة التي يزيد تبصرة على مر الدهور بقاؤها»، وتراه بعد أن يسهب في الحديث عن أهمية الخطابة، يذكر أهم المواقف التي فيها يُحتاج إلى الخطابة مثل قوله: «ويقيمها في فروض الكفايات، ويستنزل بها موادّ الرحمة، إذا ضنّ الغيث على الأرض بوبله»[٢]، ويبرز دور المسجد الجامع بدمشق ويبيّن حسن اختيار القائم عليه، ويشيد بصفاته، وتلمح المبالغة في الصفات التي وصفه بها، فهو فرد الآفاق وواحد العصر، وإمام علماء زمانه.

وتعكس التواقيع والمراسيم بعض السياسات الإدارية المتبعة في هذا العصر، كتعيين الأمراء للقبائل الكبيرة، ومن ذلك المرسوم الذي كتبه الحلبي بإمرة حسام الدين مهنا بن عيسى لآل فضل ومنه: «الحمد لله الذي أرهف حسام الدين في طاعتنا بيد من يمضي مضاربه بيديه، وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى

---

(١) المصدر السابق، ١١: ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٦٩-٧٠.

من لا يصلح أمر العرب إلا عليه» فمصلحة الدولة السنيّة في المقام الأول، وحتى هذه المنزلة العظيمة لم ينلها إلا بسبب طاعته للدولة ودفاعه عنها، فهو يقول: «وجعل حسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرق العدوّ إلى أطراف البلاد المحروسة إلا وردّه الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه».

ومن التقاليد التي يظهر فيها الحرص على حفظ الدولة وأطرافها، وبثّ فضائلها وإبراز أهميتها، تقليد كتبه للأمير استدمر بنيابة السلطنة بحلب، فتراه يبرز أهمية حفظ ثغور الدولة المسلمة من بداية التقليد، فيقول: «الحمد للّه حافظ ثغور الإسلام في أيامنا الزاهرة بمن يفترّ عن شنب النصر سيفه»[1]. وهذه الرتبة التي نالها كانت بسبب جهاده، وصدق نضاله وإخلاصه وطاعته للدولة، فهو «الكميّ الذي كم له في جهاد أعداء الله من موقف صدق يضل فيه الوهم، وتزل فيه القدم»[2]. وهذه الظاهرة واضحة في تقليدين الأول بنيابة صفد[3] والثاني بنيابة غزّة[4].

ثانياً: كتب الحروب والفتوح والتهاني:

أشار الشهاب محمود الحلبي إلى هذه الكتب التي ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك، وإلى مقدّمي الجيوش والسرايا، واشترط أن تتميز بالإيجاز والألفاظ البليغة، واشترط على الكاتب أن يتجنّب تهويل أمر العدوّ، لأن ذلك يضعف القلوب، وأن يتجنب تهوين أمره حتى لا يحصل الغرور، ومن ذلك صورة كتاب أنشأه إلى مقدم سرية كشف، ولم يكتب به «لا زال أخفّ في مقاصده من وطأة ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وأسرع في تنقله من سحابة صيف، وأروع للعدى في تطلّعه من سلة سيف، حتى يعجب عدو الدين في الاطلاع على عوراته من أين دعيّ وكيف، ويعلم أن من أوّل قسمته اللقاء

(١) المصدر السابق، ١٢: ١٤١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢: ١٤٣.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٢٠٢-٢٠٥.
(٤) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٢٠٩-٢١٣.

حصل عليه في مقاصده الحيف، أصدرناها إليه تحثه على الركوب بطائفة أعجل من السيل، وأهول من الليل، وأيمن من نواصي الخيل، وأقدم من النمر، وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر، وأروغ في مخاتلة العدى من الذئب الحذر، وعلى خيل تجري ما وجدت فلاة، وتطيع راكبها مهما أراد منها سُرعة أو أناة، تتسنم الجبال الصمّ كالوعل، وإذا جارتها البروق عدت وراءها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل، وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه، إن جرى فكَسَهُم، وإن خطر فكَوَهُم»[١].

ويلاحظ أن الشهاب محمود الحلبي استعمل لفظة «أصدرناها» وهي أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه للتصريح فيها بالضمير العائد على الرئيس الذي صدرت المكاتبة عنه، ويختم رسالته بوصايا يقول فيها «ولا يسرف في الإقامة إلا إذا علم أن الخير في السرف، وليحرز جمعهم ويسبق إلى التحرز منهم بصرهم وسمعهم، وينظرهم بعين منعها الحزم أن ترى العدو الكثير قليلاً، وصدها العزم أن ترى العدو الحقير جليلاً، بل ترى الأمر على فصّه وتروي الخبر على نصّه، وإن وجد مغرراً فليأخذ خبره إن قدر على الإتيان بعينه، وإلا فليذهب إثره»[٢].

والشهاب محمود الحلبي يلتزم بالقواعد التي أقرها في البداية فهو يوصي القائد أن ينظر إلى العدوّ نظرة واقعية دون تهويل لأمره أو تحقير لشأنه، حتى يُعِدّ ما يلزم للقائه، وهو يرسم صورة نموذجية للقائد العسكري الفطن، الذي يتّسم بالواقعية والحذر الشديد والحزم. وأشار إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم، واشترط على الكاتب «أن يبسط القول في وصف العزائم، وقوّة الهمم، وشدة الحميّة للدين، وكثرة العساكر والجيوش، وسرعة الحركة ومعاجلة العدوّ، والوثوق بعوائد الله في الظفر، وتقوية القلوب منهم، وبسط آمالهم، وحثهم

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣١.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ٧:١٨٩.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٢.

على التيقظ والحذر الشديد، واشترط عليه أن يبرز ذلك في أمكن كلام وأجلّه، وأقربه من القوّة والبسالة، وأبعده عن اللين والرقة، وألزمه بالمبالغة في وصف الإنابة إلى الله تعالى، واستنزال نصره وتأييده، وحذّره من التصريح بسؤال بطلان حركة العدوّ، ورجاء تأخره، لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم، واستشعار الخوف منهم[1]. وهذه القواعد التي يرسمها الشهاب الحلبي للكتّاب تنمّ عن ثقافته ومعرفته الدقيقة بالظروف العسكرية إبّان الحروب، ولا غرابة في ذلك فهو رجل دولة يشعر بمسؤوليته وواجبه اتجاه الجيوش الإسلامية من جهة، واتجاه السلطان الذي أوكل إليه مهمة إنشاء الكتب الرسمية في هذه الظروف الصعبة.

وكتب كتاباً سلطانياً إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدو قال فيه: «أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن: يا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام، فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنفت من الغمود، والأسنّة قد ظمئت إلى موارد القلوب، فتشوّقت إلى الارتواء من قلبها، والكماة قد زأرت كالليوث إذا دنت فرائسها»[2].

والشهاب الحلبي يمتثل للقواعد التي رسمها للكتّاب، فهو يبسط القول في وصف عزائم الجنود المسلمين، ويصف من خلال ذلك أسلحة المعركة، ويلاحظ أنّ رسائل الشهاب محمود الحلبي الحربية أقرب ما تكون إلى الخطب الحربية التي يكون هدفها بث الحماس في نفوس المقاتلين، وتراه يشير إلى كثرة العساكر، فيقول من الرسالة السابقة: «والجيوش كاثرت النجوم أعدادها»، ويشير في هذه الرسائل إلى الملائكة التي ترافق الجيوش الإسلامية، ويصور ما

---

(١) المصدر السابق، ٢٣٢.
القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٠٧.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٢٣٣-٢٣٤.

حلّ بالأعداء من القتل والعذاب فيقول من الرسالة السابقة: «وما بقي إلا طي المراحل والنزول على أطراف الثغور، ونزول الغيث على البلد الماحل، والإحاطة بعدوّ الله من كل جانب ... وإحالة وجودهم إلى العدم».

ويرسم صورة معبّرة لحال العدو بعد الهزيمة، وهي صورة لحومهم الموزّعة بين ذئاب الفلا وضباعها، وبين عقبان الجو ونسوره. ويوصي القائد في نهاية رسالته بحفظ أطراف البلاد وضمّها، وبجمع من تفرق من الرعايا في الأماكن المخوفة، ويوصيه بالاحتياط الذي هو من أكد المصالح الإسلامية وأهمها.

كتب التهاني بالفتوح:

يعمد الكاتب فيها إلى بسط الكلام والإطناب في شكر نعم الله، والتبرّي من الحول والقوّة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر وما منح من الثبات، وتعظيم ما يسرّ من الفتح.

ويرى الحلبي أنه كلما توسّع الكاتب في وصف الواقعة كان أحسن وأدعى إلى سرور المكتوب إليه، ولا بأس بتهويل أمر العدو، ووصف جمعه وإقدامه، لأن في تصغير أمره تحقيراً للظفر به والنصر عليه[1].

ويفضّل الميل فيها إلى الإسهاب والإطناب، وتكثير الألفاظ المترادفة ليعرفوا قدر النعمة الحادثة، وتزيد بصائرهم في الطاعة، وبالتالي تقوى قلوب الأولياء وتضعف قلوب الأعداء[2].

وتتضح أهمية هذه القواعد إذا علمنا أن هذه الكتب والرسائل تقرأ في المحافل والمشاهد العامة، وبالتالي يكون تأثيرها كبيراً على السامعين.

وكتب الشهاب محمود الحلبي في جواب ابن الأحمر -صاحب غرناطة- :

«أما بعد حمد الله الذي أيدنا بجنوده، وأنجز لنا من نصر الأمة صادق وعوده،

---

(١) المصدر السابق، ٣٢٥.
القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٣٠٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٣٠٥.

وخصّنا في استدامة الفتوح بمزايا فريدة، وأيدنا بنصره، ونصرنا بتأييده، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد أشرف رسله، وخاتم أنبيائه، وأكرم عبيده، وأعز من دعا الأمم وقد أنكرت خالقها إلى الإقرار بتوحيده، وعلى آله وصحبه الذين أشرق أفق الدين منهم بكواكب سعوده»[١].

وقد أتى الكاتب بحسن الافتتاح بالحمد لله، وهذه التحميدات جاءت دالة على موضوع الرسالة، فالتحميد هنا على تأييد الله لهم بجنوده وإنجازه لوعده بنصر الأمة، وعلى استدامة الفتوح، وقد أعقب الحمد لله الصلاة والسلام على رسوله، وعلى آله وصحبه، وهذا يؤكد وجود النزعة الدينية التي تعدّ بارزة في رسائل الشهاب الحلبي. ويتابع رسالته قائلاً: «فإنا أصدرناها ونعم الله بنا مطيفة، ومواقع نصره عندنا لطيفة، وجند تأييده لممالك الأعداء إلى ممالكنا مضيفة، وثغور الإسلام بذبّنا عن دين الله منيرة، وبإعلائنا منار الهدى منيفة، ونحن نحمد الله على ذلك حمداً نستدرّ به أحلاف الظفر، ونستديم به موادّ التأييد على من كفر، ونستمد به عوائد النصر التي كم أقدمها علينا إقدام، وأسفرَ لَنا عَنْها وجهُ سفر، ونهدي إليه ثناءً تعبق بنشر الرياض خمائلهُ، وتنطق بمحض الوداد مخايلُه، وتشرق في أُفُق مناظره غدواتُه وأصائلُه، تشافه مجده بمضومنِه، وتطارحُ فخرُه بمكنونِه، وتجلو على حضرتِه العليّةِ عقائلُ الشّرف من أبكارِ الهناءِ وعونِه، وتبدي لعلمِه الكريمِ ورودَ كتابِه الجليلِ مُسفراً عن لوامعِ صفائِه، ومنبئاً بجوامع ودِّه ووفائِه، مشرقاً بلآلئ فوائدِه، محدقاً بروضِ كرمِه الذي سعد رأي رائده، محتوياً على سرورِه بما بَلَغَهُ من أنباءِ النصرةِ التي سارتْ بها إليه سرعانُ الركبانِ، وذلّتْ بعزّ ما تلي منها عليه عبّادُ الصلبانِ، وطبق ذكرها المشارقَ والمغاربَ، ومزّقتْ مواكبَ أعداءِ الله التتارِ وهم في رأي العين أعدادُ الكواكبِ، وخلطت التربَ بدمائهم حتى لم يبح بها التيمُّمُ، ومزجت بها الفرات حتى ما تحلّ لشاربٍ، وهي النصرة التي لا يدرك الوصفُ كنهَها، ولا تعرف لها البلاغة مشبهاً فتذكر شبهها، ولا يتسع نطاق النطق ذكرها ولا تنهض

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٥-٣٣٦.

الألسنةُ على الأبدِ بشكرها، وأن التتارَ المخذولين أقبلوا كالرِّمال واصطفوا كالجبال، وتدفّقوا كالبحار الزواخر، وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر، فصدمتهم جيوشُنا المنصورة صدمة بدّدت شملهم، وعلّمت الطيرَ أكلهم، وحضرتْهم في الفضاء، وطالبتْ أرواحَهم الكافرة بدين دينها، وحصدتْ منهم سيوفُنا ما يخرج عن وصف الواصف، ومزّقت بقيَّتَهم في الفلوات، فكانوا كرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»[1].

والكاتب يسهب في وصف الواقعة، فقد طبق ذكرها المشارق والمغارب، ويفصل الحديث عن النصر، وتعظيم ما يسّر الله من فتح، ويتحدث عن جيش الأعداء التتار، ويهَوِّلُ أمْرَه قائلاً: «وهم في رأي العين أعدادُ الكواكبِ»، ثم يصور هولَ الواقعة، وما حلّ بالأعداء من تقتيل، فاختلطت دماؤهم بالتراب، حتى لم يعد الترابُ صالحاً للتيمُّم، وامتزجت الدِّماءُ بالفرات حتى ما تحلُّ لشاربٍ، هذه النصرة يصعب وصفها، وهي نعمة جزيلة، لا تنهض الألسنة على الأبد بشكرها؛ ويبالغ في وصف جيش الأعداء قائلاً: «قد اصطفوا كالجبالِ، وتدفقوا كالبحارِ، وأقبلوا كالرِّمالِ، وتوالوا كالأمواج»، ويشيد بقوة الجيوش الإسلامية فقد بدّدت شملهم، وعلّمت الطيرَ أكلَهم، وحصدتهم السيوفُ المنصورةُ، ويُسهبُ في وصف ما حلّ بالأعداء من جراء حربهم مع الجيش الإسلامي، واصفاً حالَهم «فقد هلك طاغيتُهم أسفاً وحسرةً على من فقد في هذه الواقعة، وجاء أخوه من بعده والخوف يُضعضِعُ أركانَه».

والكاتب ينسب النصر إلى واهبه، والجلد إلى معطيه، ويشكر الله على نعمه التي لا تُحصى، فهذه الواقعة لا تنهضُ الألسنةُ على الأبدِ بشكرها، بينما يُبدي الأعداء ما أظهره الله عليهم من الذّلّ الذي جعلته تلك النصرةُ خالداً في أعقابهم[2].

وقد يضطر الكاتب أن يكتب لغير المسلمين، كأن يكتب إلى ملك غير مسلم لكنه غير محارب، يخبره بما أحرزته الجيوشُ الإسلاميةُ من ظفرٍ على

(١) المصدر السابق، ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٣٦.

الأعداء، فعليه حينئذ أن يذكر من أسباب المودة ما يقتضي المشاركة في المسار، وأن يبالغَ في وصفِ ما حلّ بالأعداء من قتلٍ وأسر، وأن يُرجع سبب النصر إلى الله[١].

وقد كتب الشهاب محمود الحلبي كتاباً لبعض ملوك البحر يقول فيه: «صدرتْ هذه المكاتبة مبشرةً له بما منحنا اللهُ من نصرة أجزلَ الصفاء منها سهمه» فالرسالة في البداية تتضمن البشرى لهم وإن لم يكونوا مسلمين، وقد أشار إلى أن أخبار هذا النصر تبهج الملك، ثم يصف ما حلّ بالتتار، فالأرض لم تجفّ من دمائهم، والفرات تكاد تشف للمتأمّل عن أشلائهم. وبعدها يوضح أن ما حل بهم كان بسبب الشيطان الذي خذلهم وزيّن لهم رأيَهم، وأنساهم مصارعَ إخوانهم.

ويتحدث الكاتب في هذه الرسالة على لسان السلطان فيقول: «ونحنُ في ذلك نوسعُهم إمْهَالاً، ونبسُطُ لهم في التوغّل آمالاً، ونأخذ أمرَهم بالأناة، استدراجاً لهم لا إهْمَالاً»[٢]. وهنا يعبر عن اعتزازه بحذر المسلمين وتيقّظهم، ثم يصور شدة الهجمة على الأعداء، فوثبوا إليهم وثوبَ الليثِ إذا ظفر بصيده، وصدمتْهُم الجيوشُ المنصورةُ، وحكّمت السيوفَ في مقاتِلهم، ويسهب في الحديث عن كسرة الأعداء وهزيمتهم، ويعكس في رسالته بعض القيم الإسلامية مثل: الحلم والعفو عند المقدرة كما في قوله: «وصَفَحْنَا عمّنْ نافَقَنا ووافقهم ولولا ذلك لما نجا، ورجا عواطفَنا في الإبقاء على نفسِه وبلادِه فأجابه حلمُنا».

وتلمح صورة الاعتزاز بالقوة حتى في الدعاء الذي يفترض أن يكون في الأصل لصالح المرسل إليه، لكن الكاتِب جعله لصالح المسلمين، كما في قوله: «فليأخذ الملك حظّه من هذه البشرى التي تسر قلب الوليّ المحبّ بوادرها، وتشرح صدر الصفيّ المحقِّ مواردها ومصادرها، والله تعالى يبهجه عنا بسماع أمثالها، ويديم سروره بما جلوناه عليه من مثالها»[٣].

وهذا يؤكد صدق انتماء الكاتب للأمة، وأنه رجل إعلامها، وباثُّ فضائلها، فهو يدعو للأمة باستمرار النصر حتى وهو يخاطب ملكاً غير مسلم. وهذا الشعور يلمحه القارئ من بداية الرسالة.

---

(١) المصدر السابق، ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٣٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٤٠.

ثالثاً: الرسائل الإخوانية شبه الرسمية:

سمّاها الشهاب محمود الحلبي الكتب الإخوانية، وذكر أن الكاتب فيها مطلق العنان، يُخلى بينه وبين قوّته فيها أو ضعفه، واستدرك وقال: «لكن على كل حال يراعى كل مقام بِحَسَبِه»[١] وهذه العبارة الأخيرة تفيد أن هذه الرسائل ليست إخوانية أو ذاتية بحسب مفهومها في العصر الحاضر.

وذكر القلقشندي أنّ لها موقعاً خطيراً، إذ تشترك الكافّة في الحاجة إليها، ويرى أن الكاتب الحاذق يغرب في معاني هذه الرسائل، ويلطّف مبانيها، ويتصرف خلاف ما يتصرف في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغيّر ولا تتجاوز، ويعني بها الكتب الرسمية[٢] وهذه الكتب الإخوانية شبه الرسمية تنوّعت بحسب المناسبات والأغراض، وكان من أهمها:

<u>كتب التهاني</u>: هذه الكتب تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب ومنازلهم من الصناعة ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطيّة، وأغراضها ومعانيها متشعبة.

ومما يجب مراعاته فيها: مرتبة المكتوب إليه، والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما، بما لا يُتسامح بمثله[٣].

والرسالة بهذا المفهوم ليست حرّة ذاتية، لذلك سمّيت بالإخوانية شبه الرسمية فهي تراعي، البعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب[٤]، فقد يكون المخاطب وزيراً أو أميراً، وقد تنوعت كتب التهاني حسب المناسبات والأغراض وكان منها:

<u>التهنئة بولاية القضاء</u>: وللشهاب في ذلك تهنئة، منها:

«أنفذَ اللهُ تعالى أحكامَه، وشكرَ إحسانَه وإنعامَه، وخلّده ناصراً للشريعةِ المطهّرةِ

---

(١) الحلبي، <u>حسن التوسل</u>، ٢٨٢.

(٢) القلقشندي، <u>صبح الأعشى</u>، ٩: ٣.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٩:٤.

(٤) القيسي، <u>أدب الرسائل في الأندلس</u>، ١٠٠.

وأدامَه، وجدّد سعدَه وأسعدَ أيامَه، وجعله المسترشدَ والمقتفي بأمرِ الله، والراشدَ والمستنجدَ والمستنصرَ والناصرَ، والعاضدَ والحاكمَ القائمَ بأمرِ الله، ليكونَ مِن القُضاةِ الثلاثةِ الواحد »[1].

ابتدأ الشهاب محمود الحلبي تهنئته بمقدمة تناسب الموضوع الذي يتحدث عنه، راعى فيها براعة الاستهلال، فجاءت واضحةَ المعاني، والقارئ يلمح موضوع التهنئة من العبارة الأولى في قوله:« أنفذ الله- تعالى- أحكامه» فالأحكام تصدر عن القاضي وهي الأحكام الشرعية ويواصل الكاتب تهنئته قائلاً « المملوك يقبّل اليدَ العاليةَ تبرّكاً بتقبيلها، وأداءً لواجب تعظيمها وتبجيلها، ويهنىء المولى بما خصّه اللهُ تعالى مِن مضاعفةِ نفاذِ كلمتِه، ورفعِ منزلتِه، وإمضاءِ أحكامِه الشريفةِ وأقضيتِه، وتقليده أمورَ الإسلامِ، وتنفيذِ أوامرِه في الخاصِّ والعامِّ، ويهنّئ المولى من ردّت أمورُه إليه، وعوّل في ملاحظة مصالحه إليه[2] ».

وتراه يقدم للقاضي النصيحة بعد الإشادة بعلمه المقرون بعمله قائلاً له: « ويقظةٌ مولانا جديرةٌ بزيادة الاهتمام والاحتياط التامّ بملاحظة طلبةِ العلم والمشتغلين والفقهاءِ والمدرّسين، وسبر أحوال النّواب، وأن لا يكفيه الاعتماد على حسن البزة، وطهارة الأثواب، بل يمعن في الاطلاع على ما يعتمدونه النظر، ويلاحظ كلاً منهم إنْ غابَ عن مجلسه أو حضرَ، فمن رآه يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ولايقربُ إلاّ بالتي هي أحسنُ مالَ اليتيم، فيحقق له من العناية أملاً، ولا يضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً »[3].

فلم تقتصر التهنئة على مشاركة المهنأ الفرحة والسرور، بل إن الكاتب يرسم الطريق الأمثل للقاضي النزيه، الذي يتابع مرؤوسيه متابعةً تكشف عن مسيرة طلبة العلم والفقهاء والمدرّسين والنّواب، والكاتب يهنّئ بالمولى من ردّت

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩:١٩.

أموره إليه، وحصل على حقّه.

ومن ذلك تتبيّن أهميّة القضاء في هذا العصر، وتتضح مسؤولياته الكبيرة، ويكشف عن اهتمام الدولة بمصالح الرعيّة، ورعاية الدين، وتسيير مصالح الطلاب والفقراء.

ومن التهاني: التهنئة بكرامة السلطان وأجوبتها، ومنها: التهنئة بالإنعام والمزيد ولُبس الخِلع، وله تهنئة في ذلك يبدأها بقوله: « أدام اللهُ أنصارَه، وجعلَ التقوى شعارَه، وألبَسَه من المحامد أكرمَ حُلَّة، ونوّلَه من المكارم أحمد خَلَّة، ولازالت الخِلعُ تتَشرّفُ إذا أفيضَتْ عليه، والمدائحُ تُستَطابُ بذِكْرِه لا سيّما إذا أنْشِدَتْ بَيْنَ يَدَيْه »[١].

يحرص الشهاب محمود الحلبي على أن تكون المقدّمة مناسبة لموضوعه حرصاً يدفعه إلى أن يأتيَ بعبارات توحي بهذا الموضوع فقوله في هذه المقدمة الدعائية « وألبسه من المحامد أكرم حلة » إشارة إلى موضوع التهنئة بالإنعام والمزيد ولُبْسِ الخِلع، وكذلك قوله « ولا زالت الخلع تتشرف إذا أفيضت عليه ».

ويدخل في الموضوع قائلاً « الخادم ينهي إلى علم المولى أنّه اتّصل به خبرٌ أهدى إليه سروراً، ومنحه بهجةً وحُبوراً، وهو ما أنعَم به المولى السلطان- خلّد اللهُ سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه من تشريفِه بخِلعته، وما أسبغَه عليه من وارفِ ظلّهِ، ووافرِ نعمتِه، وأبداه من عنايته بالمولى ومحبّته"[٢].

يحرص الكاتب على مخاطبة الرئيس بلغة المرؤوس، فالكاتب يعبر عن نفسه بلفظة "الخادم" ويعبّر عن الرئيس بلفظة "المولى" وهذا الالتزام بأسلوب الخطاب يجعل الدارس يميل إلى تسمية هذا النوع من الرسائل بالرسائل شبه الرسمية.

يفصح الكاتب عمّا ناله من فرحة وسرور وتشريف باستقبال هذه النعمة، وهي الخلعة التي خلعها عليه السلطان. ثم يصف هذه الخلعة قائلاً:« فإنّه بلغه أن هذه

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٧.

الخِلعَة كالرياض في نضارتِها وحسنِ بهجتِها، وأنّها كلما برقت برق لها البصر، وظنّها لحسنها حديقة وقد حدّق إليها النظر، وقد جمعت ألوان الأزهار ، وأربى ناسجُها في اللطف على نسمةِ الأسحار، وأسكنت حبُّها حباتِ القلوب التي في الصدور، وسَمَتْ عن المدح برائق المنظوم وفائقِ المنثورِ، وأنّ ابن سليمان لو رآها لاعترف بأنّ في لُبسها لكل فتى شرفاً لا ريب فيه ».

وهذا الإطراء والدقة في الوصف لهذه الخلعة هو في حدّ ذاته تعبير عن الإجلال والاحترام الزائد للمولى، ولا تخلو هذه الأوصاف من المبالغة والتهويل فهذه الخلعة لو ألقاها أبو العلاء المعري على وجهه لارتدّ إليه بصره، ويختم الكاتب رسالته كعادته بالدعاء قائلاً: نوّله الله في كل يوم مسرّة وبشرى، وأجرى له على الألسن حمداً وشكراً، وجعله لكل خير أهلاً، وشكر له تفضّلا شاملاً وفضلا، ومتّعه من العافية بلباس لا يبلى إنْ شاء الله تعالى»[١]. والكاتب يحرص كل الحرص على ترابط أجزاء رسالته فكما حرص على ارتباط المقدمة بموضوع الرسالة يحرص كل الحرص على ارتباط الخاتمة بموضوعها، فالدعاء للمولى بالمسرّة والبشرى هو لما أدخله إلى قلب الخادم من مسرة وبشرى بهذه الخلعة القيّمة .

ومن أنواع التهنئة <u>التهنئة بالخلاص من الاعتقال.</u>

يبدو أنّ هذا النوع أقل رسمية من سابقه، فترى الكاتب يعبّر عن مشاعره بوضوح اتجاه المرسل إليه، فيقول محمود الحلبي من تهنئة من هذا النوع: « جدّد الله سعده، وضاعف جدّه، وأنجح قصده، وأعذب منهله ووِرده، ولا انفكت الأيام زاهيةً ببقائه، والأنفس مسرورةً بارتقائه إلى رتب عليائه[٢] ».

فهذا الدعاء يتضمن حب السعادة للمرسل إليه وبعد هذه المقدمة الدعائية يدخل في الموضوع قائلاً:

« أصدرها تُفْصِحُ عن شوقٍ يَعْجِزُ عن سَوْقِهِ الجَنان، ويَقْصُر عن طوله

(١) المصدر السابق، ٩: ٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣٠.

اللّسان، وسرور تزايد حتى أبكاه، ولاعج بمشاهدة طلعته السعيدة أغراه، وتهنّيه بما جَدَّد اللهُ له بعد الاعتقال من الفَرَجِ والفَرَحِ، ومنّ به بعد ضيقِ الخواطرِ من الابتهاجِ والمرح» وهنا يبدو أن الكاتب يخاطب شخصاً ذا رتبة عادية فهو يكشف عن مشاعره، فهذه الرسالة تكشف عن شوق للمرسل إليه وسرور تزايد حتى أبكاه، والعواطف لا تكون مكشوفة إلى هذا الحد في الغالب إلا إذا كانت اتجاه صديق أو قريب. وتبدو التهنئة صريحة في هذه الرسالة وبخاصة في قوله: «وتهنيه بما جدّد اللهُ له بعد الاعتقالِ من الفرجِ والفرحِ»، ويلاحظ أن الكاتب لا يغفل عن التحميد فيقول: « فالحمدُ لِلّه الذي عوَّضَه عن مأتمِ الحزنِ بما تمّ من السرور ».

ويبين وقع المصيبة على الأهل والمحبين قبل الفرج فيقول:« فإن القلوبَ شعفها حبّه وشغفها، وضاعف لتعويقه أساها وأسفها، بحيث اعترى المناطق قلق وعلاها اصفرار، وعُطِّلت يدُ كلِّ غانيةٍ من الحُليّ، فما ضمّها قُلْبٌ ولا سوار [1] ».

وتعكس هذه الرسالة بعض العادات في ذلك المجتمع، فالنّساءُ يعبّرْنَ عن حزنهن بإلقاء الحُليّ والأساور من أيديهن، ويبدو أن المعتقل من أصحاب العلم فقد ندبته الجوامعُ وبكته المنابرُ، ويختم رسالتَه بالدعاء قائلاً: خلّد اللهُ سعادتَه، وسهّل له من خيري الدنيا والآخرة قَصْدَه وإرادتَه بمنّه وكرمه»[2]. ويلاحظ أنّ الدعاء في النهاية جاء قصيراً، ولكنه جمع فيه سعادة الدارين وخيرهما.

ومن هذا النوع <u>الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه.</u>

وفي هذا النوع يجب أن تكون أجوبة هذه الرّقاع مودعة من الثناء على المهنّي لمحافظته على رسوم المودة وقيامه بشروط الخلّة ما تقتضيه رتبته ورتبة المجيب، وأنه مشارك له في متجدد النعمة، مفاوض في حديث المسرة، والتيمّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسن موقعه عند المبتدئ بالهناء، ويضعه بحيث وضع نفسه من الاختصاص بمن كاتبه[3].

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣١.

وله جواب هناء بخِلعة يقول منه:

«أدام الله عــلاءه، وشكر آلاءه، وضاعف سناءه، وحَمِـد مِنَنَه التي أثقلت لكل مُعْتِقٍ ظهراً، وخفّفت همّاً، وأنالت لكل وليٍّ نصيباً من عوارفِها وقِسْماً، المملوكُ يُنهي إلى العِلمِ الكريمِ ورودَ المُكاتبةِ التي كَسَتْها يدُه حلّةَ جمال، وألبستها ثوب إفضال، وأعدّتها بكرمِها، وحَسُنَتْ وجهَها بلسان قلمِها، فأمطرتْه سحابَ جودٍ أربىَ على السّحابِ الهَتُونِ، وأوقَفَتْه منها على ألفاظٍ كأمثالِ اللؤلؤِ المكنونِ، فاجْتَنى ثمارَ الفضائلِ من أغصانِها، واجْتَلى عروسَ محاسنِها وإحسانِها وفَهِمَ ما أشارَ إليه من التهنئةِ بالخِلعةِ التي أنعمَ المولى بها على خادمِه وتصدّق، وحقّق الأملَ في مكارمه وصدّق، وإنعامُه- خلّد اللهُ دولتَه، وأعزّ نُصْرَتَه قد كَثُر حتى أخْجَلَه، وميّزه على كثيرٍ من مماليكِ بيتِه العالي وفضّلَه، وأنالَه من المنزلةِ ما سما بها على أمثاله، ورقي بها بعدَ رِقّةِ حالِه»[1].

بدئت هذه الرسالة بمقدمة دعائية تضمنت إشارات واضحة لموضوع التهنئة، فالموضوع هو جواب عن تهنئةٍ، لذلك أشار الدعاء إلى شكر الآلاء، وحمد المنن التي أنالت لكل ولي نصيباً.

ويستعمل الكاتب عبارة «المملوك ينهي إلى العلم الكريم» وعبارة ينهي إلى العلم أعلى مرتبة من عبارة «بلغنا» و«ينهي إلى علمنا» أقل من «اتصل بنا» واستعمل عبارة "العلم الكريم" والكريم أعلى من "المبارك" لأن في الكريم عراقةَ أصلٍ قد توجد في المبارك وقد تتخلف عنه[2]، وقد أشاد بالمهنّي وبتهنئته وذكر أنه تلقّى منه التهنئة بالخلعة التي أنعم المولى بها عليه، ثم يشيد بالمولى وهو السلطان، ويدعو له بأن يخلّد الله دولته، ويعزّ نصرته، ويشيد بأفضاله عليه، فقد ميّزه على كثير من مماليك بيته العالي وفضّله، وبوّأه منزلة سما بها على أمثاله.

ويختم رسالته بالدعاء للسلطان قائلاً:

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٣١-٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٦: ٢٦٩-٢٧٠.

« فالله يخلّدُ سلطانَه، ويثبت بالسعادة أركانَه» ويشرك المهنّي بهذا الدعاء والثناء ويقول: وهذا سعادة مولانا ومساعدته ومعاونته ومعاضدته، فإنه كان السببَ في الاتّصال ببابه أولاً وآخراً، وممن أغاثه بذلك وأعانه عليه باطناً وظاهراً، ويضمّن رسالته بيتاً من الشعر في نهاية الرسالة:

وكلُّ خَيْرٍ توخّاني الزّمانُ بهِ فَأنْتَ بَاعِثُهُ لي أوْ مُسَبِّبُهُ [1]

ويبدو حرص الكاتب على المبالغة في الثناء، فالمخاطب سبب نعمته وباعث خيره.

ومن أنواع التهاني : التهنئة بقدوم من سفر.

وله في ذلك تهنئة منها: «أدام الله ظِلّه، ورفَعَ محلّه، وشكر إنعامَه وفضلَه، وأعز أنصارَه، وضاعَفَ اقتدارَه، ولازال مؤيّداً في حركاته، مسدداً في سائر فَعَلاته، مصحوباً بالسّلامة في المهامة والقفار، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار[2].

هذه المقدمة جاءت دعائية في هذه الرسالة، شأنها شأن بقية الرسائل، والدعاء فيها جاء مناسباً لموضوع الرسالة، والعبارة التالية الواردة في هذه المقدمة وهي:« ولا زال مؤيداً في حركاته » توحي بموضوع الرسالة، وكذلك العبارة التالية:« مصحوباً بالسلامة في المهامة والقفار ».

يواصل هذه التهنئة بقوله « المملوك ينهي -بعد تقبيل الأرض، والقيام بما يجب من سننه والفرض- علمَه بحلول ركابه العالي بمغناه، واستقرار خاطره الشريف في محلّه ومثواه، وجمعِ الشملِ بالأهل بعد طول الغَيْبَةِ، وبعد القُفولِ والأوبة، فتضاعف لذلك فرحُه وسرورُه، وزال عن قلبِه قليلُ الهمّ وكثيرُه »[3].

والعبارة الأولى وهي " أدام الله ظلّه" هي بمعنى أطال الله بقاءه، وهذه العبارة هي مما يصلح لمخاطبة الملوك وكذلك عبارة " أعزّ أنصارَه"[4].

(١) المصدر السابق، ٩: ٣٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣٩.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٦: ٢٧.

في الفقرة السابقة يكشف الكاتب عن موضوع التهنئة بقوله «وجمع الشّملِ بالأهل بعد طول الغيبة، وبعد القفول والأوبة».

ويختمها بالدعاء قائلاً: «فاللهُ يمنحُ المولى أطيبَ المنازلِ، وأسرّ الرواحل، ويجعل تجارةَ مجدِهِ رابحةً، وأوامر دوام عزّه لائحة، حتى تُنشدَ نفسُه الكريمةُ قول أبي الطيّب:

أَنَا مِنْ جَمِيعِ النّاسِ أَطْيَبُ مَنْزِلاً   وأَسَرُّ رَاحِلَةً وأربَحُ مَتْجَرا.

لا زالتْ الأعينُ قريرةً برؤيتِه، وقلوبُ الإخوانِ قارّةً بمشاهدتِه، والأوجُهُ وسيمةً والنِّعَمُ الظاعنةُ مقيمةً، إن شاء الله تعالى.

والدعاء في الخاتمة جاء مناسباً والعبارات التالية تدل على ذلك:

«فالله يمنح المولى أطيب المنازل» وذكر المنازل إشارة لقدومه إلى مستقرّه بعد سفر، وكذلك العبارة التالية:« وقلوب الإخوانِ قارة بمشاهدته»، ويختم الرسالة بعبارة المشيئة (إن شاء الله تعالى) وهي تُكتَبُ عند انتهاءِ ما يكتُبُه تبركاً ورغبةً في نجاح مقصدِ الكُتّاب[1].

ومن التهاني <u>التهنئة بالشهور والمواسم والأعياد</u>

وله <u>تهنئة بعيد الفطر منها:</u> «المولى أدام الله نِعَمَه، وحرس شِيَمَه، هو سيّدُ الأفاضلِ ورئيسُ الأماثلِ، وحسنةُ الزمانِ، وليثُ الأقرانِ، وهو في الأنام كالأعياد في الأيام، فإنّ الأنامَ ليلٌ والمولى المصباحُ بل الصّباحُ، وسائر الأيام أجسادٌ، وسائرُ الأعيادِ هي الأرواحُ، فإذا كان المولى قد زُهِيَ على أبناء جنسِه، ويومُ العيدِ على غدِه وأمسِه، فقد صار كلٌّ منكُما إلى صاحبه يتقرّب ويلزَمُ ويلزَبُ، وهو أحقّ الناس بأن يُبْهِجَهُ مَقْدَمُه، وأنْ يُهَنّى بيَوْمِه الذي هو مَجْمَعُ السُّرورِ ومَوْسِمُه»[2].

وصادف أن جاء العيد في الربيع فربطه بهذا الموسم وقال: «والعيد والربيع ضيفان، ومكارم المولى جديرة بإكرام الضيف والتمتع بالملاذّ فيهما قبل

(١) المصدر السابق، ٦: ٢٢٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٦.

رحيلهما وقدوم حرّ الصيف».

ويختم هذه التهنئة بالدعاء قائلاً « لا زالتْ الأعيادُ تُهَنّى ببقائه، وألسنة الأيام تشكر سوابغ نَعْمَائِه، وتحمَدُ جزيلَ عطائِه، وتنطِقُ بولائِه وثنائِه أبداً إن شاء الله تعالى»(١).

فالخاتمة مناسبة للموضوع وقد ختمها بعبارة المشيئة (إن شاء الله تعالى).

وله تهنئة بعيد الأضحى بدأها بأبيات شعريّة منها:

تَهَنَّ فَأيّامُ السُّرُورِ أواهِـــلُ	وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِكَ راحِـــلُ
ونَجْمُكَ مِنْ فَوْقِ الكَواكبِ طَالِعٌ	ونجمُ امْرِئٍ يشْنَا سموّك آمِـــلُ
ألا أيُّها المَوْلى الذي عَمَّ جُـــودُه	فَدَتْكَ العوالي والجِيادُ الصّواهِـلُ
وَدُمْ كابِتَ الأعـداءِ وابْقَ مُخلَّداً	على المالِ عالٍ بالرَّعيّة عَـــادِلُ
لَقَدْ راقَ مَدْحي في مَعَاليكَ مِثْلَ مَــا	صَفَتْ مِنْكَ أوصافٌ وَرَقّتْ شَمائِلُ(٢).

ابتدأ الكاتب تهنئته بلفظة "تهنّ" وهذا الابتداء معبر عن موضوع الرسالة، والأبيات تشيد بالمولى الذي عمّ كرمُه.

وتدعوه إلى أن يتمتع بعيد النَّحْر، ويتمنى الكاتبُ له أن يبقى قوياً، عادلاً، منفقاً للمال. ثم يواصل الكاتبُ رسالتَه بالدعاء للمولى قائلاً « جعله الله أبرك الأعياد وأسعدَها، وأيمنَ الأيام وأمجدَها، وأجمل الأوقات وألذَّها وأرغدها، ولا برح مسروراً مستبشراً، منصوراً على الأعداء مقتدراً، مسعوداً محموداً معاناً بملائكة السماء معضوداً، مهناً بالسعود الجديدةِ، والجدود السعيدةِ، والقوّة والناصر والعمر الطويل الوافر»(٣).

يحتل الدعاء جزءاً كبيراً من الرسالة، وكان في اتجاهين: اتجاه نحو العيد، وآخر نحو المولى، وتضمّن الدعاء: النصر على الأعداء والاقتدار والسلامة الملازمة والعمر الطويل، والصحة الدائمة. وختام الرسالة جاء دعاءً، وهو قوله:

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٧- ٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٨.

«ألبسه الله من السعادة أجمل حلة ومنحه من المكارم أحسن خلّة».

وقد ربط بين العيد والمولى ربطاً مناسباً فقال:

فذا اليومُ في الأيام مِثلكَ في الورى كما كُنْتَ فيهم أوْحَداً كان أوْحَدا [١].

ومن أجوبة التهاني بالمواسم والأعياد قوله: «يَخْدِمُ المجلسَ العالي جعلَ اللهُ قدرَهُ على الأقدار سامياً، وجزيلَ نوالِه على من هام به من العُفاةِ هامياً، ونَصَرَه نصْراً عزيزاً، وأسكنه من حراستِه حِصْناً حَصِيناً، وحِرْزاً حَريزاً، ولا زالتْ الأيامُ حاليةَ الجيدِ بوجودِه، والأيدي تَهَشُّ إلى تناولِ أياديه وجودِه، وأخبارُ المكارمِ عنه مرويةٌ، وإليه معزوّةٌ، وآياتُ فضله وفضائله بكل لسان متلوّةٌ» [٢].

بدأ الجواب بالدعاء للمهنئ بالرفعة وبجزالة عطاياه ودوامها، وبالنصر، والسلامة، وحسن السمعة على كل لسان.

ثم يشيد بالتهنئة التي وصلته، مشبِّهاً لها بالزهرة التي زهت على زهور الرياض، وهي تمتاز ببراعة عباراتها، وقد تحقق الإحسانُ وحصلت له البُشرى، لا بسبب التهنئة، ولا بسبب العيد، وإنما لبقاء المولى، وقد قصر الأعياد على بقاء الإمام فما دام موجوداً فكل الأيام أعياد، ويختم هذا الجواب بالدعاء للمولى قائلاً: «حَرَسَ اللهُ شَرَفَه الرفيعَ من الأذى، وأراه في عين أعاديه جِذْعاً ناتئاً، وسلّم لحظَه المحروسَ من القَذى، وأصار أيامَه كلَّها أيامَ هناء، وبداية سعادته بغير حدٍ وانتهاء» [٣].

إن هذه الرسائل تعكس واقع العصر من الناحية العسكرية والسياسية، فيندر أن تخلو رسالة له من الدعاء للمولى بالنصر والظهور على العدا، كما تعكس صدق الانتماء للأمة الإسلامية.

ومن التهاني: التهنئة بالزواج والتسرّي:

وله في ذلك قوله: «جَعَلَ اللهُ الخِيَرَةَ لَهُ فيما يَذَرُه ويأتيه، والنجاحَ

(١) المصدر السابق، ٩: ٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٤-٥٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٥.

مقروناً بما يُعيدُه من الأوامر ويبديه، والألسنة شاكرةً بما يوليه من الإنعام ويُسديه»[١].

يعبّر الكاتب عن المهنّى بضمير الغائب مثل: جعل الله له الخيرة فيما يذره ويأتيه، وجاء الدعاء مناسباً لموضوع التهنئة وقصيراً.

ثم يدخل في الموضوع معبّراً عن ثنائه وولائه، ومهنّئاً بهذه الوصلة المباركة، ويعود للدعاء مرة ثانية قائلاً: «جعلها اللهُ للاتصال بالسعادة سبباً، ومحصلةً من الخيرات مراماً وافراً وأرباً، وعرّفه بركة هذا العُرس الذي أصبح الخيرُ بفنائه معرّساً، ونور الشمس من ضياء بهجتِه مُقتَبِساً»[٢].

لقد واءم الكاتب بين الدعاء والمناسبة من جهة، وبين التحميد والمناسبة من جهة أخرى، فقال: «نحمد الله على هذه الوصلة سِراً وجَهْراً، ونشكرُه أنْ جعلَ بينه وبين السعدِ نَسَباً وصِهْراً. وحرص على أن يختم تهنئته بالدعاء للمهنّى فقال: «منحَ اللهُ المولى الرِّفاء والبنين، والعُمُر الذي يُفْني الأيامَ والسنين، ورزَقَه إسعافاً دائماً وإسعاداً، وأراه أولادَ أولادِه آباءً بل أجداداً، إن شاء الله تعالى. فالدعاء جاء مناسباً ومرتبطاً بالموضوع وقد ختم هذه الرسالة بعبارة المشيئة «إن شاء الله تعالى».

ومن التهاني <u>التهنئة بالبنين:</u>

وله في ذلك تهنئة منها:

هُنِّئْتَ بالإسْعافِ والإسْعادِ	ونَفاذِ أمرٍ في العِدا بِنَفادِ
وبَقيْتَ ما بَقِيَ الزَّمانُ مُهَنَّأً	ووُقِيْتَ شَرَّ شَماتةِ الحُسَّادِ
يا مالِكَ الرِّقِّ الذي أضْحى لَنا	من جُودِهِ الأطواقُ في الأجيادِ
خُلِّدْتَ في عَيْشٍ هَنِيٍّ أخْضَرٍ	يَسْطُو ببيضٍ ظُباً وسُمْرٍ صِعادِ
حتّى يُخاطِبَكَ الزَّمانُ مُبَشِّراً	مُتِّعْتَ بالإخْوانِ والأوْلادِ[٣]

(١) المصدر السابق، ٩: ٥٦-٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٩-٦٠.

جاءت هذه الأبيات تتضمن الدعاء للمهنّى بالسعادة ونفاذ الأمر والعيش الناعم ثم يواصل التهنئة بالدعاء له بأن يجدد الله له في كل يوم مسرّة وبشرى، وأن يشد أزره بولده، وأن يسرّي به الهموم عن قلبه، وأن يرفع درجته إلى المعالي، ثم يعبّر عن فرحه وابتهاجه للسبب الذي ينهيه، وهو ظهورُ ميمونِ الغرّة، وهو الولد العزيز الموفّق، ويدعو له قائلاً: «أبقاهُ اللهُ تعالى ليَحْيا مشكوراً محموداً، وأدام عِزّه وعُلاه، وأعْلى نجمَه وخلّد شرفَه وبهاه، وضاعفَ سناءَه وسناه، وأرانا مِنْه ما أرانا من السعادة في أبيه»[٢].

<u>ومن التهاني ما يكون جواباً عن التهنئة بالأولاد:</u>

وتبنى على شكر اهتمام المهنّئ ورعايته، وأنهما شريكان فيما تجدّد من نعمة، وعلى الكاتب أن يراعي مرتبة المهنِّئ والمهنَّأ، ومن ذلك قوله: «ويُنْهي ورودَ الكتابِ الذي تشرَّفَ المملوكُ بورودِه، وأشرقت الأيامُ بكمالِ سعودِه، وأرْغَمَ ببلاغَتِه مَعْطِسَ مُناويه وحَسودِه، فشكر أياديَ من أنعم بإرساله، واكْتَسى بالوقوف عليه حُلّة من حُلَلِ فخرِه وجمالِه، وبالغَ في إكمالِه، حتى وقف إجلالاً له بين يديه، ثم تلا آيات حسنه على أذْنيه»[٣].

ثم يؤكد الكاتب أن الولد مملوك للمولى، وهو أصغرُ الخدم والعبيد، ولِمَ لا؟ والوالدُ مملوكُه، وهو مملوك السادة الأجلّاء أولاده، وهذا ينبئ عن الولاء للسلطان والدولة، ويختم هذا الجواب بالدعاء للمهنِّئ، قائلاً: «حرَسَ اللهُ مجدَه ومتَّعَهُ بثوبِ مكارمِه، وخفض قدْرَ محاربِه، ورفع كلمةَ مسالمِه، ولا زال مماليكُه تتزيّد تزيّد الأيام، وسعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام، وعينُ العنايةِ تحرسُه في حالتي السفر والمُقام، إن شاء الله تعالى. فالخاتمة جاءت تؤكد المعنى الأول، وهو أن الولد من أصغر الخدم والعبيد، وتركز على الدعاء له بالسعادة والسلامة، وزيادة المماليك والأتباع.

---

(٢) المصدر السابق، ٩: ٦٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٦٤.

ومن التهاني التهنئة بالإبلال من المرض والعافية من السقم:

ومن ذلك قوله:

ولمّا شكوْتَ اشْتَكى كُلُّ ما ... على الأرْضِ واهْتَزَّ شرقٌ وغَرْبُ
لأنّكَ قَلْبٌ لِجِسْمِ الزّمــانِ ... وما صَحّ جِسمٌ إذا اعْتَلّ قَلْـبُ

حرس اللهُ جنابَه، وأسبل عليه رداءَ السعدِ وأثوابَه، ومتّعه ببرود العافية وجلبابها، وفتح له إلى نَيْل السعادةِ سائرَ أبوابها، ومنحه الكفايةَ والأمنَ في سِرْبِه والعافيةَ في جِسْمِه من قلقِ كلِّ مرضٍ وكربِه، وجمع له بين الثوابِ والأجرِ وجازاه بجزيلِ الغفران عن جميل الصبر»[١].

بدأ هذه التهنئة ببيتين من الشعر يتضمّنان الإشادة بالمهنّى، وبيان مكانته، فعندما شكا، اشتكى لشكواه كل ما على الأرض، كل ذلك لأنه صاحب مكانة عظيمة، ويواصل التهنئة بالدعاء له بأن يحرسه، ويسبل عليه رداء العافية، ويمتعه بالصحة، ويبلّغه السعادة، ويمنحه الأمن والطمأنينة،ويجزل له في الأجر، لقاء صبره على المرض، ويشرك المُهنِّئ نفسَه بالبشرى والتهنئة فيقول: «المملوك يبشر نفسه ومولاه بما منّ الله به من صحة مزاجه الكريم، والإبلال من مرضٍ كادَ يُديرُ كؤوسَ الحِمامِ على كلِّ صديق حميم، ويحمد الله على عافيتِه»[٢]، وتراه يضمّن تهنئته بعض المعاني من الشعر كقوله: «فإنه قد عوفيَ لعافيته المجد والكرم وزال عنه إلى أعدائه الألم».

ويختم التهنئة بقوله: «حفظ الله صحته من السقم وحماه من ألم ألمّ، وجعل سعادته تتزايد على ممرّ الأنفاس، وجسده سالماً من الأذى كسلامة عرضه من الأدناس، إن شاء الله تعالى»[٣].

ومنها أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية: وله من ذلك قوله: «أدام اللهُ نعمتَه، وشكر منّته، وأدال دولته، وأعلى قدره وكلمته، وحتّم على

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٦٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٦٨.

الألسنة شكرَه والقلوبِ محبَّتَه، ولا زالت التهاني من جهته وافدةً والبشائر واردةً»[١].

وهذه الفقرة تتضمن الدعاء للمهنّئ وشكره على حسن صنيعه، ويصف أثر وصول هذه التهنئة على نفسه قائلاً: «وأنه وقف عليه، وأحاط علماً بكل ما أشار المولى إليه، فذكره أنساً كان بخدمته لم ينْسه، وجدد له وجداً ما زال يجدُ في قلبه ونفسه عينَه ونفسَه، ونشر من مآثره المأثورة، وفضائله المرقومة في صفائح الصحائف المسطورة، ما شنّف به وشرّف»[٢]. ثم يحمد الله الذي منّ بالعافية، ويصف الداء وأثره على صاحبه، فهو قد طال حتى أسأمه من نفسه وعُوّادهِ، وأيسه من الحياة لولا لطف الله، واللهُ لطيفٌ بعبادِه. ويختم رسالته بالدعاء للمهنّئ بأن يجعل التهاني دائماً واردة منه وإليه، وأن يتمَّ نعمته عليه إن شاء الله تعالى.

ومن التهاني التهنئة بقرب المزار:

وله في ذلك قوله: «قرّب الله مَزاره، وأدنى جواره، وأعان أعوانه، ونصر أنصاره، ولا زالت الأنفسُ لقربه مسرورةً، ورايات مجدِه في الملأ الأعلى وأحزاب الإسلام بهيبته على أعداءِ الدين منصورةً»[٣].

يدعو في هذه الفقرة للمهنّى بقرب المزار ودنوّ الجوار، ويشرك نفسه معه في الدعاء، فقرب مزاره ودنوّ جواره يعود على المهنّئ بالسرور، وفي نصره على الأعداء تتحقق مصلحة الدين والأمة.

ويواصل تهنئته بقوله: «المملوك يقبّل الباسطة العالية، بسطَ اللهُ ظلَّها، وشكرَ على الأولياءِ فضلَها، وينهي أنه اتصلَ به طيّب أخباره، وقرب مزاره، فتضاعف شوقُه، وتزايد توقُه، وهيّجت صبابتُه لاعِجَه، وسَهّلَتْ إلى نيلِ المسرّةِ طُرُقَه ومناهِجَه

وأبرَحُ ما يَكونُ الشّوقُ يوْماً ... إذا دَنَتِ الدّيارُ منَ الدّيارِ

(١) المصدر السابق، ٩: ٧٠.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٧٠.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٧١.

فاللهُ يُقرّبُ من أمدِ التلاقي بعيداً، ويجعلُ رداءَ الاجتماع بخدمتِه قشيباً جديداً»[١]، وتكاد التهنئة أن تكون مقصورةً على قربِ المزار، وشوق المهنّي للمهنّى، والدعاء له بقرب التلاقي، غير أنه يلاحظ أن الكاتب عبّر عن شدة شوقه للمهنّى بحرارة لم تلاحظ في الرسائل السابقة بهذه الدرجة، وربما كان ذلك عائداً إلى موضوع التهنئة، والكاتب لا ينسى الجانب السياسي والعسكري حتى في الرسائل الذاتية، فالدعاء لأحزاب الإسلام بالنصر على الأعداء فكرة تتكرر في أغلب الرسائل الرسمية والذاتية.

ومن الرسائل شبه الرسمية التعازي:

إن المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة واسعة المجال، لما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر، والتسليم إلى الله جلّت قدرته، وتسلية المعزّى، ووعده بحسن العوض، وحكمها حكم التهاني من الرئيس إلى المرؤوس ومن المرؤوس إلى الرئيس ومن النظير إلى النظير.[٢]

وللشهاب محمود الحلبي تعزية بابن، منها: «رزَقَهُ اللهُ تعالى ثباتاً على رزيّتِه وصبراً، وجَعلَ له مع كلِّ عُسرٍ يُسراً، وأبقاه مفدّى بالأنفُسِ والنفائسِ، وكان له أعظمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهرِ وأجلّ حارس»[٣].

هذه المقدمة تكاد تكون جامعة للدعاء المناسب في هذا المقام، فقد تضمنت الدعاء له بالثبات والصبر على المصيبة، وهي فقدان الابن، وباليسر بعد العسر، وبالسلامة، وحفظ الله له وحراسته.

ويواصل تعزيته قائلاً: «المملوك ينهي علمه بهذه النازلة التي فتّتت القلوبَ والأكبادَ، وكادتْ أن تفرّقَ بين الأرواحِ والأجسادِ، وأذالت ذخائر العيون، وابتذلت من المدامع كل مصون، وأذابت المهجَ تحرُّقاً وتلهّباً، وجعلت كلَّ قلبٍ في ناري الأسف والأسى متقلباً، وهي وفاة ولده الذي صغُرَ سنُّه، وتزايد لفقده همٌّ

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٧١-٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٤.

المملوكِ وحزنُه،

وتَجْلُكَ لا يُبْكى على قَدْرِ سِنِّه ولكنْ على قَدْرِ المخيلةِ والأصْلِ

والكاتب يتحدّث عن المعزّى بضمير الغائب، ويعبّر عن مشاعره وحزنه اتجاه هذا الحدث، وهو وفاة الصغير، ويبيّن كيف أن هذه المصيبةَ كان وقعُها عليه كبيراً وعظيماً، حتى أن الأرواح كادت أن تفارق الأجساد، ويلاحظ أنه يصرح بالحزن، وتحرّق المهج وتلهّبها، ولا يكتفي بالكشف عن حزنه ومشاعره الصادقة، وإنّما يبيّن ما كان مؤملاً من هذا الصغير لو لم يمت، فكان المولى يؤمل أن يشد أزره، ويشرح ببرّه صدره، ويبقي الذكر الجميل بعده، وأظن ألاّ حاجة إلى ذكر قصة موته وقوله «فَفُقِدَ من بين أترابِه، وذوى عندما أينعَ غصنُ شبابِه، وغُيِّبَ منظرُه الوسيمُ في لحدِه وترابِه» لأن مثل هذه الصور تثير أشجانه، وتشعل أحزانه، لكنه عاد وفطن إلى ما أحدثه من لوعة في نفس المعزّى فقال: «وسيّدنا يعلمُ أنَّ الموتَ منهلٌ لا بد من وردِه، وابن آدم زرعٌ لا بد من حصده، وأن المنيّةَ تشملُ الصغيرَ والكبيرَ، والجليلَ والحقيرَ، والغنيَّ والفقيرَ، فينبغي له استعمالُ صبرِه، والاستبشارُ بمضاعفةِ أجرِه، واللهُ يمتّعُه بأهلِه وطولِ عُمُرِه»(١).

وفي هذه الفقرة السابقة تكمن التعزية الحقيقية القائمة على مخاطبة العقل والعقيدة، فهو يقدم له الأدلة على أنه لا بد من الصبر، فالموت لا بد منه، والمنية تشمل كل الناس على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم.

ويواصل التعزية بأبيات شعرية، توضح حسرته وألمه وفجيعته بهذا المصاب العظيم فيقول:

لَهْفي وما لَهْفي عَلَيْكَ بِنافِـــعٍ كلاّ ولا وَجْدي وَلا حُرُقاتِـــي

يا مَنْ قَضى فَقَضى سُروريَ بَعْده وتحدّرَتْ أسَفاً لَهُ عَبَراتِـــي

عُقَدُ التَّجَلُّدِ حَلَّها فَرْطُ الأســـى والقَلْبُ مَوْقوفٌ عَلى الحَسَراتِ

ولكن ما الغاية من هذا التفجع، وأظن ألاّ حاجة إلى مثل هذا الحزن والبكاء. فإذا كان هذا حال المعزّي فما بال المعزّى؟ ولعل الكاتب هنا يحاول أن

(١) المصدر السابق، ٩: ٨٥.

يظهر مقدرته على الإتيان بصور الحزن والفجيعة فيقول:

لو كُنْتَ مِمَّنْ يُشْتَرى أوْ يُفتَـدى لَفُديتَ بالأرْواحِ والمُهجـــاتِ
كنتَ المُعَدَّ لِنُصْرَتي في شِدَّتـــي فَقَضى الحِمامُ بِفُرقَةٍ وَشَتـاتِ
واللهِ لا أُنْسيتُ نَدْبَكَ والبُكـــا أبَداً مَدى الأنْفاسِ واللّحظاتِ
وَيَسوؤني أنْ عِشْتُ بَعْدَكَ ساعَةً أسَفاً لِفَقْدِكَ مَيِّتاً وحَياتـــي[1]

ويختم تعزيته بالدعاء للمولى قائلاً: «أعظمَ اللهُ أجرَ مولانا ومنحَه صبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً، وثناءً عريضَ الشُقّةِ لثباته على هذه الفادحة طويلاً، وجعل هذه الرزيّةَ خاتمة الرزايا، ومُمحِّصةً جميعِ الذنوبِ والخطايا، ولا فجعه بعدها في قرة عين، ولا أورد محبوباً شُغفَ به قلبُه الكريم منهل الحِمام، ولا سقاه كأس الحَين».

وهذه الخاتمة تتضمن الدعاء المناسب في هذا المقام فيشتمل على عظم الأجر، والصبر، والأجر الجزيل، والسلامة من الفجائع، وتطلب المستحيل في النهاية وهو في قوله «ولا أورد محبوباً شغف به قلبه الكريم منهل الحمام، ولا سقاه كأس الحين». والتعزية تحوي فكرتين رئيستين: الحزن والتفجع على الفقيد، والدعوة إلى الصبر والاحتساب، لأن الموت لا بدَّ منه.

وله تعزية بزوجة منها:

«لما علم مملوك المجلس السامي -أطال الله بقاءَه، وأعظم أجرَه، وأحسن عزاءَه- وفاةَ السيدة المرحومة -سقى الله عهدها عهداً يبل الثرى، وجعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى- تألّم لفقدها غايةَ الألم، ووجد حرقة كسته ثوبي ضنى وسقم، وحزناً لا يعبّر عنه بعبارة بيانه، ولا يستوعب وصفه بلسان قلمه وبنانه»[2].

وقد بدأ مقدمته الدعائية بالدعاء بإطالة البقاء، وهو أرفع من الدعاء بإطالة العمر، وذلك لأن البقاء لا يدلّ على مدّة تنقضي، لأنه ضدّ الفناء، والعمر

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٨٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٣.

يدلّ على مدة تنقضي، ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر[١].

ويضمن تعزيته بيتاً من الشعر:

وَلَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فَقَدْنا　　　لَفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرِّجالِ

والمولى أولى من عزّى نفسه، واستحسن رداء الصبر ولُبْسَه، وعلم أن الموت غريم لا يُنجي منه كثرةُ المِطال، ولا يُدافع بالأطلاب والأبطال، وأنه إذا طالب بذمة كان ألدُّ الخصام، وإذا حارب فعل بيده ما لا تفعله الكُماة بحدّ الحسام»[٢].

الأجوبة عن التعازي:

وهذه يجب أن تُبنى على وقوف المعزّى على كتاب المعزّي، وفيها يُشعر المعزّى المعزّي، أن نصحه أجدى، وأن تذكيره أخمد ناره، وأن تنبيهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً، وهداه إلى الصبر، وحسّن عنده الرزيّة، ودمّث نفسه للمصيبة، وسأل الله أن يحسّن له العوض[٣].

وفي جواب عن تعزية يقول:

«أعزّ اللهُ سيّدنا وأسعده، وسهّل له طريق المسرة ومهّده، وصان من حوادث الأيام حجابه، وعن طوارق الحدثان جنابه، وجعله في حمى عن عوارض الغِيَر والغرر، وأصار أيامه محسّنة لوجوه الأيام كالغرر»[٤].

هذه البداية تتضمن الدعاء للمعزّي بالعز والسعادة، والصون من حوادث الأيام، وطوارق الحدثان، وهي مقدمة دعائية غالباً ما يبدأ رسائله بها.

ويخبر الكاتب عن وصول الكِتاب ووقوفه عليه وفهمه، ويفيد أنه انتفع بمواساته وتعزيته، وأن كتابه قد صبّره على حادثته بعد أن عز عليه العزاء، ويذكر أن عزاءه في بقاء المولى، ففي بقائه مسرة تطرد كل حَزَن، وفي بهاء طلعته عِوض عن كل منظر حسن، ويختتم رسالته بالدعاء للمولى «جعله الله

(١) المصدر السابق، ٦: ٢٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٩-١٠٠.

سامياً على أترابه، مقدماً على أضرابه، ما سمت الأسماء على الأفعال، وتقدم الحال على الاستقبال»[١].

ومن جواب آخر يقول: «ضاعف الله بقاءه، وأطال عمره، وشرح لإسداء المكارم صدره، وأنفذ نهيه وأمره، ولا زال إلى أوليائه محسناً، وفضله يحصّل لمحبّيه غاية السول والمنى»[٢]. وبعد هذه المقدمة الدعائية يخبر عن وصول كتابه المعزّي بوفاة فلان، ويدعو له بالرحمة والمغفرة، ويخبر عن انتفاعه بهذا الكتاب، فقد فتح إلى الصبر أبواباً، وهدى إلى طريق الخير، وسكّن نفسه، وأزال الوحشة، ويختمُ رسالته بالدعاء قائلاً: «جعله الله أصلاً في تحصيل المسرّة إذ ذوت الفروع، وسيفاً يقهر به وليُّه الحوادثَ التي تروع، إن شاء الله تعالى»[٣].

ومن جواب آخر يقول: «جعل الله أجره عظيماً كقدره، والقلوب مجمعةً على حبه كإجماع الألسنة على شكره»[٤]. جاء الدعاء في هذه التعزية قصيراً، وهو يعبر عن نفسه بلفظة «المملوك» مما يؤكد أن المعزّي كان في مرتبة أعلى.

ثم يخبر عن وصول كتاب التعزية ويترحّم على الفقيد، ويوضح أثر الرزية على نفسه، في قوله: «وعنده من شديد الحزن، ما أعدمه لذيذ الوَسَن، ومن زائد الاكتئاب ما كاد يحرمه التقمص بثوب الثواب».

وجاءت الخاتمة في هذا الجواب دعاءً قال فيه: «فالله تعالى يكفينا ما نحاذره في المجلس ويحرس سناه، ويديم سعده وعُلاه».

تشتمل هذه الكتب على الدعاء للمرسل، والدعاء غالباً ما يكون مشتملاً على طلب السلامة والحماية من حوادث الأيام، كقوله: «وصان عن حوادث الأيام حجابه .. وجعله في حمى عن عوارض الغِيَر والغَرر، ثم ذكر ما ناله من سرور إثرَ وصول الكتاب، ويبيّن أن عزاءه ببقاء الإمام كقوله: «وفي بقاء مولانا مسرة تطرد كل حَزَن، وفي بهاء طلعته عوض عن كل منظر حسن».

---

(١) المصدر السابق، ٩: ١٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٠٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٠٠.

الشفاعات:

هذه الرسائل تكتب وتصدر عن ذوي الرتب والأخطار والمنازل والأقدار، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب، ودرك الرغائب[١].

وتوجّه هذه الرسائل إلى أحد ثلاثة: إما صاحب مال ولا يبذل ماله إلا صاحب مروءة، وإما صاحب جاه، وإما صاحب موجدة يطلب منه النزول عنها[٢].

ويحتاج الكاتب إلى التلطُّف فيها، وإيداعها من الخطاب ما يخرج به الشافع عن صورة المثقِّل على المشفوع إليه بما كلّفه إياه، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له ونجاح مطلبه، وإذا كانت الشفاعة تتعلق باستماحة المال، فيفضّل أن تبنى على الإبانة عن موقع الإفضال، وفضيلة النوال، وإذا كانت الشفاعة تتعلق بطلب الانتفاع بالجاه فيفضل أن تبنى على هز الأريحية لاصطناع الصنائع، وادّخار الفعل الحسن واغتنام الأجر، وإذا كانت الشفاعة تتعلق بالاستنزال عن الموجدة فيفضل أن تبنى على الملاطفة والإشارة إلى فضيلة الحِلم، والصفح عن المخطئ.

ويفضل أن تكون الشفاعات موجزة، قصيرة، وأن يراعى لكل واحد مرتبته ومنزلته[٣].

وتبدأ هذه الرسائل غالباً بمقدمة في مدح الإخاء والمودة، ثم الإشارة إلى الاحترام المتبادل، والصلات القوية التي تربط بين الكاتب والمخاطب، والانتقال إلى موضوع الشفاعة، وغالباً ما تختتم بالحمد والشكر للمخاطب. ولمحمود الحلبي شفاعة في استخدام كاتب درج، منها: «جعل الله تعالى دوره رحبة العراص، وسعادته في الازدياد، وأعاديه في الانتقاص، والدعاء لإحسانه مقروناً بصدق النية والإخلاص،

وَهَذا دُعاءٌ لَوْ سَكَتُّ كُفيتُهُ فإنّي سَألْتُ اللهَ فيكَ وَقَدْ فَعَلْ»[١]

(١) المصدر السابق، ٩: ١٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٢٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٢٧-١٢٨.

(١) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٦-١٣٧.

يبدأ الشهاب محمود الحلبي -كعادته في أغلب رسائله- بمقدمة دعائية تتضمن الدعاء للمشفوع إليه بخيري الدنيا والآخرة، ثم يبني رسالته على هزّ الأريحية، والإشادة بكرم المشفوع له، ويشيد ببيته وأهله قائلاً: «فإنه من بيت كريم النّجار، زائد الفخار»[٢]، وهو من الكرام الكاتبين والراغبين في الانتظام في سلك خَدَمه، والمؤثرين، ويمتدح قدرته على العمل المرغوب فيه، ففصاحته معروفة، وقلمه يقلِم ظُفُر المهمات ويكف كف الحدثان، ويمتدح رأيه فهو مقدم على شجاعة الشجعان، كل ذلك ليرغّب المولى في قبول شفاعته، وقد خلت الشفاعة من الدعاء الذي اعتاد أن يختتم رسائله به، واختتمها بحمد المشفوع إليه وشكره، والإشادة بإحسانه ومروءته، وبرجائه أن يحقق مرامه.

<u>وله شفاعة في استخدام جندي</u>: منها

«لا زال برّه مطلوباً، وجوده مخطوباً، وذكر إحسانه في الملأ الأعلى مكتوباً، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الرُّبا، ويده البيضاء ترقم له في سواد القلوب سطور حمدٍ أحسن من نور تفتّحُهُ الصّبا»[٣].

هذه المقدمة التي ابتدأ بها شفاعته تناسب الغرض، فقد تضمنّت الدعاء والإشادة بالمشفوع إليه وبصفاته، التي تستدعي قبول شفاعته، وتبدأ الملاطفة بقوله: «صدرت على يد فلان تهدي إلى المولى سلام المملوك وتحيّته، ودعاءه الصالح الذي أخلص فيه نيّته، وتشفّع إليه في تنزيله في الحلقة المنصورة، واستخدامه وترتيبه في سلك جيشه المؤيّد».

ثم يشيد بصفات المشفوع له التي تناسب العمل المطلوب فهو من الأجناد الجياد، ومن ذوي الجلد على الجلاد، وهو الجريءُ الذي لا يُرَدّ، والشهم الذي لا يُصَدّ، والباسل، وهو الموصوف في الهيجاء بحزم الكهول، وجهل ذوي الشبيبة، والملاطفة في قوله:« والمولى وإن كان بحمد الله غيرَ محتاج إلى مساعد إلاّ أنّ

---

(٢) المصدر السابق، ٩: ١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٨.

نفسه تهوى زيادة عسكره وجنده»[1]. وقد خلت خاتمة الرسالة من الدعاء، وتضمّنت الخاتمة رجاء قبول الشفاعة، ليحقق للمشفوع له رجاءه، ويقلّد المملوك -وهو الكاتب- جميل مِنّته.

وله شفاعة في ردّ معزول إلى ولايته، يبدأها بمقدمة دعائية قائلاً: «يقبّل اليد العالية، لا زالت مقبّلة ولإسداء الخير إلى أهله مؤهّلة، وبأياديها على الكافة متفضّلة»[2].

ثم يتلطف الكاتب في خطابه للمشفوع إليه، ويؤكد شكره وحمده له، واعتذاره من تثقيله على خدمة المولى وسؤال مكارمه، وبعدها يؤكد صلته بالمشفوع له، ويشركه في الدعاء للمولى ولدولته بالخلود، ويشيد بمناقب المشفوع له، فهو من العدول الأمناء، والثقات الأتقياء، وهو قليل الجِدَةِ كثير العيال، لا يجد حيلة إذا بَطّل بخلاف ما يُحْكَى عن البطّال[3]، وهو يحاول استعطاف المشفوع إليه.

وتخلو خاتمة هذه الشفاعة كغيرها من الشفاعات التي وردت من الدعاء، ويستعيض عنها بالحديث عن أوضاع المشفوع له ليستدّر عطف وشفقة المولى.

وله شفاعة في خلاص مسجون يبدأها بمقدّمة دعائية تتضمن الدعاء له بأدعية تناسب المقام، فهو يدعو له بأن يجعله مفرِّجاً كل كرب، وميسّراً من المقاصد كلَّ صعب[4] ثم يشيد بالمشفوع إليه وبمناقبه التي تستدعي قبول شفاعة الشافع في خلاص المسجون، فالمشفوع إليه صاحب قلب رحيم وصاحب إحسان ومروءة، ويؤثر إعانة كل عان، وإغاثة كل ملهوف، إلى غير ذلك من صفات تذكر المشفوع إليه، وتستثير النخوة لديه، لتحقيق أمل الشافع ورجائه.

وهذه من الشفاعات التي تبنى على هزّ الأريحيّة لاصطناع الصنائع وادّخار الفعل الحسن، وهو يشير إلى فضيلة الحلم فيقول: «وعلى حلم مولانا أنه

(١) المصدر السابق، ٩: ١٣٨.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٨.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٩:١٣٩.

إذا شُفِع إليه في مُذْنِب أن يُشفّع ويشيد بالمشفوع له قائلاً: «وهو يشفع إليه في مملوكه وعبده، والملازم على رفع رايات مجده وتلاوة آيات حمده، فلان رزقه الله رضا الخواطر الشريفة، وأسبل عليه حُلّة عفوه المنيفة على الحلل لظلالها الكثيفة[1]. ويؤكد الكاتب ولاء المسجون للمولى، فهو مملوكه وعبده، ويدعو للمشفوع له بأن يحظى برضا الخواطر الشريفة وبعفوه.

وله شفاعة بسبب خلاص حق يبدؤها بقوله «يخدم المجلس السامي لافتيء بالتحيّات مخدوماً، وحبلُ سعده مبروماً، ودُرّ المدائح لجيد جوده منظوماً، وعدله بين الأحكام قاضياً فما يترك ظالماً ولا مظلوماً.

ولا زالت الآمال متعلقة بهمّته، منوطةً بسعيد عَزْمَته، راجية خلاص كل حقّ ممن هو في جهته[2]». هذه المقدمة تناسب الموضوع، فالكاتب يوحي بالصفات التي تدفع المشفوع إليه إلى قبول شفاعته، وتمكنه من ردّ الظالم عن ظلمه، ثم يفصح عن موضوع الشفاعة راجياً التقدم بإحضار الغريم، وأخذ ما للمملوك في ذمته، وقد ضمّن شفاعته بيتاً من الشعر، جاء خاتمة لهذه الشفاعة

ولوْ كانَ لي في حَاجَتِي ألفُ شافِعٍ   لما كانَ فيهم مِثلُ جُودِكَ شافِعِ[3]

وأسرف الكاتب في الإطراء والمدح، ويبدو أنّ هذا الأسلوب ضروري في رسائل الشفاعات، لأنّ هذه الرسائل توجّه إلى أصحاب الرتب والجاه.

<u>أجوبة كتب العيادة:</u>

هذه الكتب تُبنى بعد وصول الرقعة وما صادفت المريض عليه من المرض، وأنها أهدت روح الهدوء، وأركدت رياح السوء، وأقبلت بنسيم الإبلال، وبشّرت بالعافية والسلامة[4].

وله هذا الجواب: «لا زال محروس الشيم، هاطلة سحائبه بالدّيم، مشكوراً

---

(١) المصدر السابق، ٩: ١٣٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٤٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٤٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢١١.

بلساني الإنسان والقلم»[١].

وبعد هذه المقدمة يقبّل اليد الشريفة، ويخبر عن ورود كتابه وما أحدثه في النفس من البهجة، ويعلم منه أنه متشوق إلى المملوك وإلى سماع أخباره، ويؤكد المملوك أنه في شوق إلى الخدمة العالية، ولا يقدر على وصف ما يُسِرُّه من الأتواق، ويجيب عن سؤال الكاتب الذي يسأل عن أخبار مزاجه فيقول: «إنه كان في ألم دائم وسُقم ملازم لشدة المرض» وما أن وصل كتاب المولى حتى انتعشت قوّته، وصدقت في طلب تناول الطعام شهوته، وأخذ يترجّى الشفاء، وكان الكتاب له كالطبيب الآسي في إزالة المرض.

ومن جواب آخر «ورد المشرّف العالي لا زال قدرُ مرسله شريفاً وشرفه الباذخ يجعل كل شريف مشروفاً، وسحائب جوده تُهدي إلى الأولياء من مكارمه تليداً وطريفاً، وقواضبه تردّ طَرْف حوادث الأيام عنه مطروفاً، وأياديه تبعث لحبيه تُحَفاً»[٢]، ثم يخبر أنه وقف عليه، وعرف إحسان المولى وإيثاره، ويعلمه أن جسده كان قد تزايد ضعفه حتى وصله المُشَرِّف فأبلّ المملوك، وبردت غُلّته، وبرأت علته، فسقاه مشرّفه الصحة في كأس، وأفاض عليه من العافية أفخر لباس.

وهكذا يحرص المُجيب على أن يؤكد أنه انتفع بكتاب المرسل، وأن العافية لم تنله إلا بسبب كتابه، وما احتواه من أخبار سارة، وهذا المعنى يتكرر في أجوبته عن كتب العيادة.

ومن جواب آخر يبدؤه بأبيات شعرية تتضمن الإشادة بالكتاب الذي ورده، فبوروده عمّت الأفراح، وتحوّل الأسى إلى أفراح.

وَرَدَ الكِتابُ فَعَمَّتِ الأفراحُ ... وأضاءَ في لَيْلِ الأسى الإصْباحُ
وافْتَرَّ ثَغْرٌ لِلزمانِ بِفَرْحَةٍ ... وَلِلَفْظِهِ طَرِبَتْ رُبــىً وبِطاحُ
وَتَضَوَّعَتْ أرواحُ طِيبِ عَرْفِها ... تَحْيا بِهِ الأجســامُ والأرْواحُ
وسَقى سُلافَ فَصاحَةٍ وَبَلاغَةٍ ... ما المِسْكُ عِنْدَ شَمِيمِها ما الرّاحُ

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٢١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢١٥.

بعد هذه الأبيات يدعو له قائلاً: «شكر الله مننه، وأخدمه زمنه، ومنحه من العيش أغضه وأحسنه، وشرّف ببقائه الدهر وشنّف بمدحه أذنه»[١]، ثم يخبر عن ورود كتابه ويشيد به وبما أحدثه له من شفاء وسرور، وعلم منه إحسان المولى وإنعامه، وأخبره أن العافية لا تكتمل إلاّ برؤيته.

إظهار الشوق:

يعمد الكاتب في هذا النوع إلى إظهار البراعة، ويأخذ في نظمها مأخذاً من اللطافة والرقّة، يدلّ على تمازج الأرواح، ويستخدم لها أعذب الألفاظ وألطف المعاني، ويميل فيها إلى الإيجاز والاختصار[٢].

ومن ذلك ما قاله الحلبي: «ما أمّ طفلٍ قذفها الزمنُ العنيدُ في بعض البيد، في أرض موحشةِ المسالك، قليلة السالك، قد لمع سرابُها وتوقّدت هضابُها، وصرخ بومُها، ونفر ظليمُها وحضر سمومُها، وغاب نسيمُها، فلما خافت على ولدها من الظمأ الهلاك، أجلسته إلى جنب كثيبٍ هناك، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام، لئلا يقضي على الأوام، فانتهى بها المسيرُ إلى روضة وغدير، وآثار مطيّ بوارك، تدل على أن الطريق هنالك، فعادت إلى ولدها مسرعةً، وكلّ أعضائها إليه عيون متطلّعة، فلما شارفت جنب الكثيب، رأت ولدها في فم الذيب،

بِأكْثَر مِنّي حَسْرةً وتَلَهُّفاً ... وأعْظَمَ مِنّي حُرْقَةً وَتَأسُّفاً

وأغزر دَمْعاً عِنْدَما قِيلَ لِيَ الذي ... كلفتَ به أضْحَى عَلى البُعْدِ مُزْمِعاً[٣]

ويلاحظ أنه بدأ كلامه باسم منفيّ ثم وصفه بأوصاف حسنة مناسبة للمقام، وقد أطلق لخياله العنان لكي يستحضر من الصور الغريبة ما يشاء لكي يساوي في النهاية بين الاسم المنفي وبين الاسم المجرور بمن.

العتاب والاعتذار:

العتاب لا يكون إلا بين الأصدقاء، ويعبر عن التحوّل عن المودّة

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٢١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٤٤.

(٣) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ٢: ٢٨٦.

والاستخفاف بحقوق الصداقة، ويمثل صورة من صور المودة والصداقة، وآية من آيات الوفاء بين الناس، وتتمثل رسائل العتاب في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب لمخاطب في أمر ساءه منه[١].

وللشهاب محمود الحلبي في ذلك قوله: «يقبّل الأرض وينهي أنه قد صار يرى قربه ازوراراً، وطويل سلامه اختصاراً، ويغالط في ذلك حتى شاهده عياناً مراراً، هذا وبكر الولاء صقيلة الجلباب، وعروس الثناء جميلة البزّة، حسنة الشّبَاب، وهو لا يفتأ من الموالاة في صَعَد، وقدره في صَبَب، فكلّما مكّن وتدَ الاستعطاف يرجو عدم تخلخله فُصل بأيسر سبب، بحيث أطفأ الإهمال نار المساعفة والمساعدة، وانتقل توهّم عدم العناية إلى تيقّن وجوده بالمشاهدة، وقد كان يرفع قدره فخفض، وعوّض في الحال عن الرّفع بالابتداء أنه مفرد وينصب كالنكرة في النداء، وأهمل حتى صار كالحروف لا تسند ولا يسند إليها، وألغي حتى شابه (ظننت) إذا وقعت متأخرة عن مفعوليها، ومتى يقلق لأمر أنشد نفسه: «ما في وقوفك ساعة من باس»[٢].

ويلاحظ أنه بدأ بذكر ما أنكره على صديقه، فصديقه يحاول الابتعاد عنه ويختصر في سلامه، كل هذا والكاتب يحرص على صداقته، وقد عبّر عن هذا المعنى بقوله: «فكلّما مكّن وتد الاستعطاف يرجو عدم تخلخله فصل بأهون سبب»، ثم أشغل نفسه بالاصطلاحات النحوية والصرفية، ليعبر عن إهمال المعاتب له إلى أن يقول «فإن كان قد عزم مولاه على طرده وعوّضه عن منحة القرب المحنةَ ببعده فإنه يأبى ذلك جودُه ولطفه ومعرفة يشكر ويزيد لا يمكن صرفه، ويضمّن عتابه بيتاً من الشعر للمتنبي:

وعينُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلَةٌ ... كَما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَساوِيا

ويؤكد أن ما حصل لا يستدعي هذه القطيعة، ولو بدا من المملوك زلل، أو

---

(١) القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ٢٨٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٩٥.

لَمَحَ منه خطل، فمكارم المولى أوسع من أن يبقيها في صدره[1].

ومن الرسائل التي تنحو منحى الاعتذار وتتّسم باللين والرقة والاستعطاف وطلب الصفح ما كتبه الشهاب محمود الحلبي معتذراً ومنه:

«يخدم بدعائه وصادق ولائه، وينهي أنه انكسر خاطره، وأرق جفنه وناظره، وتضاعف بَلبَالُه، وتزايدت في النقص أحواله، فقد تأخرت الأمثلة الكرامُ وانقطعت عنه بانقطاعها المِنن الجِسام، وهو يسأل العفو عن ذنب وقع»[2]، ويصوّر ضعفه وعجزه عن احتمال إهمال المولى له، فضاقت عليه المسالك، ويعترف بأنه ما زال يجهل ما يجب عليه، ويقرّ بتقصيره، ويشيد بحلم المولى واقتداره على العفو، ويستمطر سحائب رحمته، فإن عظمت الخطيئة فأجر غفرانها أعظم، ويتأمل في نهاية الرسالة أن يُقابَل رجاؤه بالتحقيق، وأمله بالتصديق.

ومن رسائل العتاب ما تلمح فيه استياء المعاتب وتهديداً بالإعراض إن واصل المولى الإعراض، ففي هذا النوع شيء من القوة يميزه عن سابقه، ويكاد يختفي فيها الاستعطاف ويبرز فيها العتاب، وإنكار الذنب مع التأدب والتلطف في الخطاب، فيقول: «وينهي أنه ما زال يتلو آيات محاسنه، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتولاه ولا يتولّى عن محبته»[3]، ويوضح أنه صار يرى من المولى صدوداً وإعراضاً، يغيظ به صديقاً ويسر به حسوداً، مع أنه لا يعرف له ذنباً اقترفه، ويوضح أنه أحق أن يبدأ بالإعراض، لأن المولى آلمه بالقول مراراً، إلى أن يصل إلى التهديد في قوله:«فإن شاهد المولى بعد إعراضه إعراضاً فلْيَلُمْ نفسه» وتختلف الخاتمة عما ألفناه في رسائله السابقة فيقول: «يحيط بذلك علماً، ورأيه العالي»[4].

---

(١) المصدر السابق، ٩: ١٩٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٧.

أجوبة رقاع العتاب

إن حكم رقاع أجوبة العتاب حكم رقاع أجوبة الاعتذار، وهي لا تخلو من الإجابة بالإعتاب، أو الإصرار على العتاب، ويسلك فيها المجيب مسلك المجيب عن رقاع الاعتذار[١].

وأساليب العتاب على نمطين: بعضها ينهج أسلوب القوة، وبعضها ينهج أسلوب الاستعطاف واللين والاعتراف بالذنب، والأجوبة عليها تتباين كذلك، وله جواب عتاب يقول فيه: «زاد الله جنابه حناناً، وأسبغ عليه إنعاماً وإحساناً، وخلّد له على كل عدو سلطاناً، ولا زالت همته سماءً لمناكب الكواكب، وأياديه تُفيض على الأولياء غرائب الرغائب، ولا برحت سحائب إنعامه هامية، وقطوف إحسانه دائمة دانية، وشرائع مياه جوده تجفف جفوناً من الفاقة دامية»[٢].

بدأ جوابه بالدعاء له، وقد خصّ صفة الحنان لأنها تناسب الموضوع وكذلك الجود والإحسان. ثم يؤكد الكاتب ولاءه للمولى الذي أرسل إليه يعاتبه، ويعترف بذنبه، وقلة خِدَمِه، ويرجو صفح وعفو المولى عنه، ويرجو ألاّ تتكرر هذه الجفوة بعد أن فهم ووعى معاتبة المولى. ويختتم هذه الرسالة بعبارة المشيئة «إن شاء الله تعالى».

ومن جواب آخر يقول:

«أسعد الله المجلس، وعطف للأولياء قلبه، ونصر كتائبه، وأنفذ كتبه، وأرهف في نصرة الإسلام سنانه وعَضْبه، وألهم حَبّة قلب الزمان حُبّه، وأقدره على الحلم الزائد حتى يغفر به لكل مذنب ذنبه»[٣].

وقد ركّزت هذه البداية على الدعاء للمولى، بأن يعطف للأولياء قلبه، وأن يقدره على الحلم ليغفر للمخطئين خطاياهم وللمذنبين ذنوبهم. ثم يشيد بالكتاب الذي وصله من المولى واستمدّ الكرم والوسامة من كرمه ووسامته، غير أنه أشار إلى أن الكتاب يتضمّن شدة عتب المولى وتجنّيه، وهو في هذا الجواب لا يعترف بذنب اقترفه، فهو لم يَحِدْ عن طريق ولائه، ويشير إلى الوُشاة الذين قصدوا تشتيت المصاحبة، ويختتم رسالته ببيت من الشعر يتضمن ذمّ الوشاة:

---

(١) المصدر السابق، ٩: ١٩٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٩.

وَقَدْ نَقَلوا عنِّي الذي لَمْ أفُهْ بِهِ   وَما آفَةُ الأخْبارِ إلاّ رُواتُها[١]

ومن الأجوبة ما تكون ليّنةً يعمد فيها الكاتب إلى إنكار الذنب أو التقصير، ويلجأ فيها إلى الحلف والقسم بنعمة المولى، وصادق محبته على عدم صدور ما يوجب العتب، ويرجو أن يزيل الوهم من خاطره، وأن يثق بموالاته، ويختتم رسالته بقوله «ورأيه العالي»[٢].

ومن الأجوبة التي تتصف باللين والرقة وتطلب العفو والصفح قوله: «أعز الله عزماته وشكر جَسيم تَفضُّلاته»[٣]، وبعدها يشيد بنعمه الباقية، وهمته وجوده، وعزيمته الحامية لثغور الإسلام، ويؤكد أن المملوك عبدُ نعمة المولى، وغَرْسُ كرمه، وهو مداوم على حمدِه وشكره، ويتلطف مع المولى فلا يشكو منه جفاءً، ويبرّئه من أيّ إساءة ويقول:

أنْتَ البَريءُ مِنَ الإساءَةِ كُلِّها   وَلَكَ الرِّضا وَأنا المُسيءُ المُذْنِبُ

وكل ما يرجوه أن يصفح عن زلّته ويعفو عن ذنبه:

فَأنتَ الذي تُرْجَى لِتَخْفيفِ زَلّتي   وتَحْقيقِ آمالي وَنَيْلِ مآربي
وَقُرْبُكَ مَقْصودي وَبابُكَ كَعْبَتي   وَرُؤْياكَ يا سُؤْلي أعَزُّ مَطالِبي[٤]

لا شكّ أنّ لرتبة المعاتَب أثراً في لين الرسالة أو قسوتها، ومن الأمور التي تؤثر في ذلك، صلة المعاتِب بالمعاتَب، ودرجة الإساءة أو التقصير، وتلمح أمراً آخر وهو تحوّل رسالة العتاب أحياناً إلى قطعة مدح وثناء على المخاطَب، وهذا واضح في أغلب الرسائل السابقة، فتراه يشيد بالرسالة التي وصلته قائلاً: «... وفَضّ ختامَها ففاح منها أرَجُ العبير والعنبر، وتُليت ألفاظها التي هي أبهى من الرياض، وأحلى من السُكَّر، فأغنت كؤوسُ فصاحتها عن المُدام»[٥]، وتراه يقسم بنعمته، وبصادق محبتّه أنه لم يصدر منه ما يوجب العتب.

وتلمح هذه الإشادة وهذا المدح والثناء والتواضع الزائد عن حدّه في قوله «عبدُ نعمه، وغرسُ كَرَمِه يُعلِمُه بصدقِ ودِّه».

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠٠.

رابعاً:الخواطر التأمليّة

على الرغم أن الشهاب محمود الحلبي كان يعمل في ديوان الإنشاء، وكان اهتمامه الأول ينصبّ على الرسائل الديوانية، والرسائل شبه الرسمية والتي سمّاها الرسائل الإخوانية، إلا أن ذلك لم يمنعه من الكتابة في موضوعات طريفة، فيما يقل وقوعه، أو فيما تمتحن فيه قوّة القريحة، ويعلم به استعداد الفكر، وما يعمل رياضة للخاطر، ويعتبر به تصرّف الفطنة، ويسبر به غور الذهن، والكاتب في ذلك مطلق العنان، يخلى بينه وبين قوّته فيه أو ضعفه ، ولكن عليه أن يراعي كل مقام بحَسَبه(١)

من هذه الكتب كتاب أنشأه إلى إنسان يتضمن مخاطبته في تزويج أمّه، وهو :«هذه المكاتبة، إلى فلان جعله الله ممن يؤثر دينه على الهوى، وينوي بأفعاله الوقوف مع أحكام الله، وإنما لامرئ ما نوى، ويعلم أن الخير والخيرة فيما يَسّره الله من سنة نبيه- صلّى الله عليه وسلّم- وإن الشرّ والمكروه فيما طوى، نُعرِّضُ له بأمرٍ لا حرج عليه في الإجابة إليه ولا خلل يلحق به في المروءة، وهلْ أخلَّ بالمروءة مَنْ فَعَل ما حضّ الشرعُ المطهّر عليه؟

وقد بدأ هذه الرسالة بمقدمة دعائية تمهد للموضوع، وفرّق بين الهوى والدين، وأشار إلى ضرورة برّ الوالدين، ثم إلى فضل الزواج على المرأة، وأشار إلى أنّ بعض السادات مِن السلف من تولى ذلك بنفسه، أي بحث عن زوجٍ لأمه، وعدّه من أسباب برّه إليها، وقد أجاب زيد بن زين العابدين(٢) هشاماً لما سأله: لمَ تَزوّجَتْ أمُّكَ بعد أبيكَ؟ فقال: لتبشّر بآخر مثلي. ثم بعد هذه التوضيحات من النقل، والعقل، وسيرة السلف الصالح، ذكر أنه ينتظر الجواب، وأشار إلى أن

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٢.

(٢) هو أبو الحسين زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن أبي طالب، خرج على هشام بن عبد الملك وطلب الخلافة، قتله يوسف بن عمر الثقفي، سمي أصحابه بالزيدية، القلقشندي، صبح الأعشى،٩:١٦٥، حاشية رقم «١».

الصواب أحياناً في عدم الأناة كما قال الأحنف بن قيس[١] وقد وصف بالأناة: «لكنّي أتعجّل ألاّ أردّ كفوا خاطباً»[٢].

والشهاب الحلبي وإن عدّ هذا النوع من الرسائل من الأنواع التي يكون الكاتب فيها مطلق العنان، إلاّ أنه اشترط أن يراعي الكاتب مقتَضى الحال، وقد اتبّع ذلك في رسالته، فبدأ بمقدّمة تمهيدية للموضوع وعالج الموضوع معالجة تعتمد على الإقناع عن طريق العقل والنقل، فأشار إلى رأي الدين، وما أُثر عن الرسول- صلّى الله عليه وسلّم- من أقوال، وما فعله السلف الصالح في هذا الأمر.

وقد كتب كتاباً في موضوع تخيّله وهو فيمن هُزم هو وجيشُه، يتضمّن إقامة عذره، وقد عمله أيضاً رياضة للخاطر، وقال منه: «هذه المكاتبة إلى فلان لا زال مأمون الغرّة، مأمول الكرّة مجتنياً حلو الظفر من كمام تلك المرة المُرّة، راجياً من عواقب الصبر أن تسفر له تلك المساءة عن صبح المسرّة، واثقاً من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة أصدرها وقد اتصل به نبأ ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها، وأبدت به الكماة صبرَها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها، وبذلت فيه الأبطال من الجلاد جهدها، ولكن لم يكن الظفر إليها، فكان عليهم الإقدام على غمرات الحرب الزبون، والاصطلاء بجمرات المنون»[٣].

ويلاحظ أنّه ابتدأ رسالته بمقدمة دعائية مناسبة فمن عباراتها الأولى يتّضح موضوع الرسالة، ففي قوله: ما زال مأمون الغرّة، مأمول الكرة، حثٌ على مقاتلة العدو، والطلب بثأره، والدعاء بأن يجني الظفر من كمام تلك المرّة المُرّة.

وقد كنى عن الهزيمة بقوله «المرّة المُرّة» ويحثه على الصبر والوثوق

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حفص بن تميم التميمي، المعروف بالأحنف، يضرب به المثل في الحلم وهو من سادات التابعين. القلقشندي، صبح الأعشى، ١٦٦:٩،حاشية رقم «١».

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٢٨٣-٢٨٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٦٤-١٦٦.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٢٨٥.

بنصر الله، وأوضح أنّ المهزوم وجيشه قد بذلوا ما بوسعهم، إلاّ أنّ القدر لم يُساعدهم، وقد استعمل لفظة «صدرت» وهي أدنى في الرتبة لاقتضاء الحال صدورها بنفسها دون دلالةٍ على المصدر أصلاً[1].

في هذه الرسالة يحاول الكاتب أن يعيد الثقة إلى نفس المهزوم، موضّحاً له أن الأسد إذا جُرح كان أشد لثباته، والدهر ذو دول، والزمان مُتلوّن، وعلى المرء أن يعدّ العُدّة للمستقبل، ويَعدُّ للحرب العدّة، ولا يعيد ذكر ما مضى، ويكرّر الحث على الصبر، ذاكراً بعض الآيات الكريمة الداعية إليه كقوله: « فاصْبِر إنّ العاقبةَ للمتّقين »[2] وكقوله: « إنّ الله مع الصّابرين »[3]ويختم رسالته بالدعاء قائلاً: « واللهُ يكلؤه بعينه ويمدّه بعونه، ويجعل الظفر بعدوّه موثوقاً على مطالبته له بدينه »[4]، ويلاحظ أنّه عبّر عن المرسل إليه بضمير الغائب وقد أنشأ كتاباً في ذمّ مهزومٍ وتقريعه، والتهكمّ به وبجيشه، ونسبتهم إلى الوهن والذلّة، قال فيه: «هذه المكاتبة إلى فلان، أقاله الله عثرة زلّته، وأقامهٌ من حفرة ذلّته، وتجاوز له عن كبيرةِ فراره من جمعِ عدوِّه على قلّته. بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدوّ بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كثيف في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه، أسرع في مقارنة المجال من الظلّ في الانتقال، وأشبه في مماثلةِ الوجودِ بالعدم من طيفِ الخيال، يحفّون منه بقلبٍ واجب، ويهتدون من تجريبه وتهذيبه برأي بينه وبين الصواب ألفُ حاجب، ويأتمون منه بمقدّم يرى الواحدَ من عدوّه كألف، ويتسرّعون منه وراء مقدامٍ يمشي إلى الزحف، ولكن إلى خلف، جناح جيشه مهيضٌ، وطرف سنانه غضيض»[5].

هذه البداية تناسب الموضوع الذي يطرقُه الكاتب، فالمقدمة وإن كان ظاهرها دعاءٌ للمخاطب أو المرسل إليه إلاّ أنها في الواقع تقريع لهم وتهكّم،

---

(١) القلقشندي. صبح الأعشى، ٦: ٢٦٩.

(٢) هود/ الآية ٤٩.

(٣) البقرة/ الآية ١١٥.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٣٨٧.

فعندما يقول « أقامه الله من حفرة ذلته » فقد وصفه بالذلّ، وعندما يدعو له بأن يتجاوز الله عن كبيرة فراره، فهو في الواقع يلصق به هذه الصفة المعيبة الشائنة.

ثم تراه يستعمل عبارة «بلغنا» وهي أقلّ مرتبةً من عبارة «اتصل بنا» وأقل كذلك رتبة من عبارة « أنهي إلى علمنا » وذلك لأنّ البلوغ قد يكون على لسان آحاد الناس[١].

وقد صوّر ضعف القائد وجيشه، وعبرّ عنه بصور متعددة منها: أنّه لقي العدو بجمع قليل غناوه، ضعيف بناؤه، ضعيف في المعنى وقعه ونفعه وأنه صاحب رأي بعيد عن الصواب، وأنه جبان يرى الواحد من عدوّه كالألف، ووصفه بالمقدام تهكماً، وقال إنه يمشي إلى الزحف ولكن إلى خلف، وتهكّم على جيشه قائلاً: جناح جيشه مهيض، وطرف سنانه غضيض[٢].

وهذا القائد قد منح عدوّه مقاتل رجاله، وأباحهم كرائم مال جنده وماله، وخلّى لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم، وقد جمع له فراره من الأعداء بين النار والعار، وختم رسالته بالدعاء له قائلاً: والله تعالى يوقظ عزمَه من سِنَتِه ويعجّل له الانتصاف من عدّوه قبل إكمال سَنَتِه[٣].

وقد أنشأ كتاباً على لسان مهزوم يتضمن الاعتذار، ووصف الاحتفال بأخذ الثأر، وهو «هذه المكاتبة إلى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدوّ بما يسرّه وبلّغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح، وألسنة الرماح سرّه، وأراه من عواقب صنعه الجميل ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها، وأن سرار القمر لا يضرّه، نوضّح لعلمه أنّه ربما اتّصل به خبر تلك الوقعة التي صدقنا فيها اللقاء، وصدمنا العدّو صدمةَ من لا يحبُّ البقاء، وأريناه حرباً لو أعانها التأييد فلّلت جموعه، وأذقناه ضرباً لو أنّ حكم النصر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٧٠.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٨٩.

فيه إلى النصل أوجده مصارعه، وأعدمه رجوعه»[1].

هذه المقدمة تتضمن الدعاء للمرسل إليه، ولكن مضمون الدعاء يعود على المرسل، ويشرك المرسل إليه في هذا الدعاء مما يؤكد حسن العلاقة بينهما، وقد استعمل تعبير«نوضّح لعلمه» وهذا التعبير أدنى بالنسبة إلى المكتوب إليه، ويفرق القلقشندي بين «نوضح لعلمه» و «نبدي لعمله» بقوله «فنبدي لعلمه أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه لأنّ الإبداء يرجع في المعنى إلى إظهار شيء خفي، والإيضاح يرجع إلى بيان مشكل، وحصول الإشكال للمحتاج إلى الإيضاح ربما دلّ على بعد فهم المخاطب عن المقصود، بخلاف إظهار الخفي فإنه لا ينتهي إلى هذا الحد[2]، ويشير في هذه الرسالة إلى أنّ المهزوم وجيشه قد صدقوا اللقاء، وبذلوا غاية ما يستطيعون، إلاّ أنّ القدر لم يساعدْهم، وقد أوضح أنّ هذه الهزيمة لن تؤثر في إصرارهم على القتال ومعاودة العدو.

مثّل على ذلك بكسوف الشمس الذي لا يؤثر على طلعتها، وبسرار القمر الذي لا يضرّه، وبين أن النصر كانت بشائره قريبة، إلاّ أنه حصل لجنوده إعجاب حال دون تحقيق النصر، فاغتنم العدوّ الفترة التي ساقها المهلكان: العُجب والطمع، وانتهز فرصة الكرّة التي أعانه عليها المطمعان: إبداء الهلع، وتخلية ما جمع[3]، فحصلت الفرقة بين صفوف جيشه إلاّ أنّ القائد ثبت في طائفة من ذوي القوة في يقينهم، وقد أبرز نضالَ وجلادَ القائد وهذه الطائفة، وبين ما فعله من لمّ شعثِ رجاله، وضم فرقهم بذخائر ماله، وبين إصراره وجنوده على مقاتلة العدوّ. واختتم رسالته بالدعاء المناسب للموضوع، فقال: « واللّهُ تعالى لا يكلنا إلى جلدنا، ولا ينزع نصره من يدنا[4].

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦:٢٦٩.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٩٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٩٠.

خامساً: الطرديّات

أشار الشهاب محمود الحلبي إلى أنّ هذا النوع مما يحسن بسط الكلام فيه، ويكون الكاتب فيه مطلق العنان، مخلّىً بينه وبين فصاحته، موكولاً إلى اطّلاعه وبلاغته. ويتضمن هذا النوع أوصاف الخيل، والجوارح، والسلاح، وآلات الحرب، وأنواع الرياضة من الصدّ، ورمي البندق، ولعب الكرة[1] ومن ذلك كتاب أنشأه في وصف الخيل وهو: «ونَهْيُ وصول ماأنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وادّخر حصنها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها، فمن أشهب غطّاه النهار بحلّته، وأوطاه الليل على أهلته، يتموّج أديمه ريّا ويتأرجحُ رِيًا، ويقول من استقبله في حليّ لجامه، هذا الفجر قد طلع بالثريّا، إن التفّت المضايق انساب انسياب الأيم، وإن انفرجت المسالكُ مرّ مرور الغيم، كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته، وكم عاين طرف السنان مقاتل العدى في ظلام النقع لا يستن داحس في مضماره، ولا تطمع الغبراء في شقّ غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يده مرامي طَرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه»[2].

وابتدأ الأديب كتابه بذكر أهمية الخيل التي وجد الخير في نواصيها، ثم أخذ يعدّد في ألوانها: فمنها الأشهب الذي غطاه النهار بحلته، ومنها، الأدهم حالك الأديم، ومنها العندميّ الإهاب، ومنها الحبشي الأصفر ...الخ.

ويلاحظ أن الكاتب يبسط الكلام ويطنب في هذا الموضوع، ويميل إلى صفة الاستقصاء في الوصف، فهو عندما يصف الحصان الأشهب، يقول: «تسابق يداه مرامي طرفه، ويدرك شوارد البروق» فهذان التعبيران يفيدان سرعته في الجري، وقال عن الحصان الأدهم: «ليّن الأعطاف سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمر كجلمود صخر حطّه السيل، يكاد يسبق ظله، ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله، فالعبارتان الأخيرتان تفيدان معنى واحداً هو: سرعة الحصان، فهو

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٤٤.

يسبق ظله، ويصل إلى غرضه قبل السهم، أما الحصان الأخضر فقد اجتمع فيه من السواد والبياض، وهما ضدان لما استجمعا حَسُنا، وقد كساه الليل والنهار حلتي وقار، منحَه البازي حُلة وشيه، ونحلته الرياح قوّة ركضه، يعطيك أفانين الجري قبل سؤاله[1]. اعتمد الكاتبُ في وصفه على الصور المستمَدّة من الطبيعة في بعض جوانبها، فاستخدم الليل والنهار والطيور والرياض والبساتين ... الخ.

ومن ذلك كتاب له تضمَّن ذكر الصيد، ووصف الجوارح والضواري: «لا زال يمنه يستنزل العُصم من معاقلها، ويسمع السهام الصّم ما تحدث به حركات الطير عن مقاتلها، ويلجيء هوادي الوحش إلى سيوف أوليائه تشبيهاً لترقرق ماء الفرند فيها بمناهلها، ونهي أنّه سار إلى الصيد ميمّماً وجه إقباله، متيمناً بسعده الذي ما برح يعتلق بحباله، ومعه من الجوارح كل باز شديد الأسر، صحيح على ما اتّصف به من الكسر، ينظر من نهار، ويخطر في ليل، رقم به أديم نهار ذي صدر مدبّج، ورأس متوّج، ومخلبٍ خَطوفٍ، ومِنسر لصدغٍ معطوف، أسرع من هوج الرياح، وأقلّ من عوج الصفاح، ينحطّ على الطير من علٍ، ويسبق إلى مقاتل الوحش كل رامٍ من بني ثُعَل، ومن الضواري كل حام، أسبق من السهم وأخفى عند الوثبة من الوهم، ذي خصر مجْدُول، وساعد مفتول، وأنياب عقل، وظفر أقطع من نصل»[2].

والكاتب يستخدم براعته في الربط بين الممدوح والثناء عليه من جهة، وبين ذكر الصيد من جهة أخرى، فقد جعل يمن الممدوح وبركته هي التي تلجيء الوحوش إلى سيوف أوليائه، وذكر طيور الصيد التي تصطحب لهذا الغرض مثل الباز، ووصفه وصفاً دقيقاً، فصدره مُدبّج، ورأسه متوّج، ووصف مخلبه ومنسره، وهذا الوصف الدقيق يدل على عدة أمور: منها قدرة الكاتب وبراعته في التصوير، وسعة معجمه اللغوي، وتحسُّ أن الكاتب كان فعلاً يخرج للصيد، لأنّ هذا الوصف الدقيق يصعب على الخيال استحضاره ووصف السيف وقال:

---

(١) الحلبي، <u>حسن التوسل</u>، ٣٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٤٧-٣٤٨.

«وقلّدته مهابتنا سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فِرِنْده، وإذا سابق الأجل إلى قنص النفوس عرف الأجل قدره عند حدّه»[١] وربط السيف بحامله الذي هو مصدر مضاء السيف وحدّته، وأوجز الكاتب في وصفه وذلك، بسبب أن هذا الوصف جزء من تقليد.

وله رسالة البندق، وهي تشتمل على أنواع من الأوصاف، وفنون النظم والنثر، يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدمة في أي نوع أراد من الطير الواجب[٢]ومنها:

«الرياضة -أطال الله بقاء الجناب الفلانيّ- وجعل حُبَّه كقلب عدوِّه واجباً وسَعْدَهُ كوصف عبده للمسارّ جالباً، وللمضارّ حاجباً، تبعثُ النفسَ على مجانبة الدَّعةِ والسكون، وتصونُها عن مشابهةِ الحمائمِ في الرّكون إلى الوكون، وتحضُّها على أخذ حظّها من كل فنٍّ حسن، وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللُّسَن، وتأخذ بها طوراً في الجِدّ، وطوراً في اللّعِب، وتَصْرِفُها من ملاذِّ السُّموِّ في المشاقِّ، التي يستروح إليها التَّعِبُ، فتارةً تَحْمِلُ الأكابرَ والعُظماءَ في طلب الصَّيدِ على مواصلة السُّرى، ومقاطعة الكَرى، ومهاجرةِ الأوطارِ، ومهاجمة الأخطارِ-، ومكابدةِ الهواجر، ومبادرةِ الأوابد التي لا تُدْرَكُ حتّى تَبْلُغَ القُلُوبَ الحناجِر، وذلك من محاسنِ أوصافِهم التي يُذَمُّ المُعْرِضُ عَنْها، وإذا كان المقصود من مَيْلِهم جِدَّ الحرب، فهذه صورة لَعِبٍ يُخْرَج إليها منها. وتارة يدعوهم إلى البروزِ إلى المَلَق، ويحدوهم في سلوكِ طريقِها مع من هو دونهم على ملازمةِ الصِّدق، ومجانبة المَلَق، فيعتسفون إليها الدُّجى إذا سجى، ويقتحمون في بلوغها حرق النَّهار إذا انهار، ويتنعَّمون بوعثاءِ السفر في بُلُوغِ الظَفَر، ويستصغرون ركوبَ الخطر في إدراك الوَطَر، ويؤثرون السَّهر على النوم، والليلةَ على اليوم، والبندقَ على السهام، والوحدةَ على الالتئام، ولمّا عدنا من الصيد الذي اتصل به

---

(١) المصدر السابق، ٢٤٧.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٥٣.

حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه[1]. هذه المقدمة عن الرياضة بدأها بالدعاء للمرسل إليه، وهذا الدعاء جاء مناسباً للموضوع الذي يتحدث عن فضائل الرياضة فهي تبعث النفس على مجانبة الدّعة والسكون، وهي تحضّ النفس على أخذ حظّها من كل فن حسن، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللسن، فمن أهم وظائفها: الجانب الترويحي، والجانب الأدبي فهي نزعة إلى التجديد، ولكن هذا مقصور على المضمون، أما الجانب الشكلي فهو منسجم مع الذوق الأدبي في ذلك العصر. ثم وصف الشمس التي كانت توشك على الغياب، وقد وصفها بصور عدّة منها: أنها تشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، ثم إنها تغازل عيون النور بمقلة أرمد وهي تشبه الكئيب الذي أصبح من الفراق على خوف، وهي تشبه العليل الذي يودّع صحبه، وقد اخضلّت عيون النور لوداعها، وهمّ الروض بخلع حلته المموّهة بذهب شعاعها. ووصف الحدائق قائلاً:

«إلى حدائق ملتفة، وجداول محتفّة، إذا خمش النسيم غصونها اعتنقت اعتناق الأحباب، وإذا فرك مرّ المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب، ورقصت في المناهل رقص الحِباب، وإن لثم ثغور نَوْرها حيَّته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس ورقها غنّته بألحان المشوق»[2] فهذا الوصف النثري يُقارب الشعر في صوره ولا غرابة، فالكاتب شاعر يحسن فن التصوير، وقد عبّر عن هذه الصور بمعاني شعراء الغزل.

ووصف الطيور وقال: «فسرت علينا من الطير عصابة، أظلتنا من أجنحتها سحابة، من كل طائر يرتاد مرتعاً، فوجده ولكن مصرعاً»[3].

وهكذا يواصل وصفه وحديثه عن صيد الطيور التي أصبحت سجّداً لحاريب القسيّ، ويلاحظ أنّ هذه الرسالة تشمل على وصف الطبيعة بقسميها الصامتة والصائتة، فوصف الشمس عند الغروب ووصف الورود والأزهار،

---

(١) المصدر السابق، ٣٥٣-٣٥٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٨.

(٢) الحلبي، حسن التوسل،٣٥٦. القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٠.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٠.

والليل والنجوم والكواكب، ثم وصف الحدائق والطيور، بأنواعها، ويلاحظ أن الكاتب نهج فيها الأسلوب القصصي، ولكن العناصر لم تكن واضحة تماماً، فلم يذكر أسماء الشخوص.

ومما يؤكد التزام الكاتب وولاءه للدولة، أنه ختم رسالته بحديثه عن المولى فقال « وأصبحنا مثنين على مقامنا، منثنين بالظفر إلى مستقرّنا ومقامنا، داعين للمولى جهدنا، مذعنين له قَبِلْنا أوْ ردّنا، حاملين ماصرَعْنا إلى بين يديه »[١]، وختم رسالته بالدعاء للمولى.

سادساً: الإجازات العلمية:

عُرفت في هذا العصر الإجازات العلمية، وهي تقابل في عصرنا الدرجات العلمية، وكانت تصدر عن العلماء إلى من يرونه أصبح أهلاً للتدريس، وهي نوعين: الإجازة بالفتيا والتدريس والرواية، وعراضات الكتب، ذكر الصفدي عن إجازة الشهاب الحلبي له « كنت قد قرأت عليه المقامات الحريرية، وانتهيت منها إلى آخر المقامة الخامسة والعشرين في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، فكتب هو عليها: «قرأ عليّ المولى الصدر فلان الدين، نفع الله بالعلم ونفع به من أول كتاب المقامات إلى آخر الخامسة والعشرين، قراءة تطرب السامع، وتأخذ من أهواء القلوب بالمجامع، وسأل فيها عن غوامض تدلّ على ذكاء خاطره المتّقِد، وصفاء ذهنه العارف »[٢].

ويذكر اسم من رواها عنه إلى آخر سند الرواية، ويذكر ما كتبه الراوي له، وقد كان كتب «قرأ عليّ المولى الصدر الكبير الرئيس العالم الفاضل المتقن المجيد نظماً ونثراً، المحسن في كل ما يأتي به من الأنواع الأدبية، بديهة وفكراً، فلان الدين نفع الله بالعلم ونفع به، كتاب المقامات الحريرية، قراءة دلت على تمكنه من علم البيان »[٣]. ويلاحظ أنّ كاتب الإجازة يكثر من الإشادة بالمُجاز

---

(١) المصدر السابق، ١٤: ٣٤٠.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٣: ٢٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٢.

وبعلمه واقتداره، وقد ظهر ذلك في إجازة الشهاب محمود الحلبي، للصفدي، وفي إجازة الشيخ الإمام مجد الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الظهير للشهاب محمود الحلبي.

وكتب الشهاب محمود الحلبي للصفدي على كتاب الحماسة «قرأ عليّ الصدر فلان الدين قراءة مطلع من البلاغة على كنوزها مميز في الصناعة بين لجين بديعها وإبريزها. باحث عن إبراز مقاصدهم التي لا توجد في كلام من بعدهم، عالم يقيم فرائدهم التي إذا ساواها بغيرها نقادُ الأدباء بهرج الامتحان والسبك نقدهم، ثم ذكر سنده فيها على العادة[1] .

وفي هذه الإجازة تلحظ الثناء والإشادة بالمجاز وقدرته العلمية، وكتب الشهاب محمود الحلبي للصفدي على كتابة «أهنى المدايح في أسنى المدايح» مما نظمه هو في مدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «قرأ عليّ المولى الصدر فلان الدين -أيده الله تعالى- هذا الكتاب والزيادات الملحقة في آخره من نظمي أيضاً قراءة دلّت على وفور علمه وثبتت رويّته في استنباط المعاني، وقوة إدراكه، وسرعة فهمه، وشهدت بتمكّنه في هذه الصناعة، وأنْبَأت عمّا يجزنه فكره من مواد البراعة على لسان البراعة، وأذنتُ له أن يرويها عني وغيرها مما قرأه عليّ، وما لم يقرأه من نظمي ونثري ومسموعاتي»[2].

ولا شك أنّ هذا النوع من الإجازات يسمى الإجازة بعراضة الكتب، فبعد أن يحفظ الطالب الكتاب يقوم بعرضه على شيخه، فإذا، ثبت لشيخه أنه أجاد في حفظه كتب له إجازة في ذلك، وذكر فيها تمكُّنه في هذا الفنّ، وأظهر بعض مواهبه.

---

(١) المصدر السابق، ٣: ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣: ٢٥٢.

الفصل الرابع

الخصائص الفنيّة واللغويّة لنثرالشهاب محمود الحلبي

أشار الشهاب محمود الحلبي إلى بعض هذه الخصائص في كتابه "حسن التوسل" وذكر منها:

الاقتباس، والاستشهاد، والحل[1]، وأشار محمود رزق سليم إلى خصائصه وقال: « جرى في كتابته ونَظْم شعره على أسلوب بديعيّ هيّن مقبول لا تؤوده كثرة البديع، ولا يثقله كلفُ الصّناعة[2]، إلا أن الدارس المتمعّن في نثره -الذي تضمّن موضوعات وأغراض متعددة- يلمس الخصائص الفنيّة واللغويّة التالية:

<u>كثرة الجمل الدُّعائية والمعترضة:</u>

لقد وجدت هذه الظاهرة في أساليب الكُتّاب في المشرق والأندلس، وتعدّ هذه الظاهرة أصلاً من أصول التعبير الأدبيّ، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها[3] وجدت هذه الظاهرة في أسلوب عبدالحميد الكاتب، ووردت في مقدّمة رسالته إلى الكُتّاب[4]، ووردت بكثرة عند كُتّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري[5].

يقصد بالجمل الدّعائية: العبارات التي تتضمن الدُّعاء للمرسل إليه أو المخاطب، أو الدُّعاء للسلطان أو الأمير أو الحاكم، أو الدُّعاء على الأعداء، وتكون في مقدمة الرسالة أو بعد عبارة التخلُّص أو في الخاتمة.

ويقصد بالجمل الاعتراضية أو المعترضة: العبارات التي تعترض الكلام، وتكون للدعاء أو لغيره.

تظهر هذه الجمل في أغلب رسائل الشهاب محمود الحلبي، إلا أنّها تشيع

---

(١) الحلبي، <u>حسن التوسل</u>، ٣٢٣.

(٢) سليم، <u>عصر سلاطين المماليك</u>، ٣:١٢٤.

(٣) القيسي، <u>أدب الرسائل في الأندلس</u>، ٣٢٠.

(٤) القلقشندي، <u>صبح الأعشى</u>، ١:١١٨.

(٥) القيسي، <u>أدب الرسائل في الأندلس</u>، ٣٢٠-٣٢٢.

بكثرة في رسائله الإخوانيّة وشبه الرّسميّة، ومن ذلك ما ورد في تهنئةٍ له بولاية القضاء «أنفذ الله -تعالى- أحكامه، وشكر إحسانه وإنعامه، وخلّده ناصراً للشّريعة المطهّرة وأدامه»[١]. جاءت هذه الجمل الدُّعائية في مقدمة تهنئته، وعبّر فيها عن المخاطب أو المرسل إليه بضمير الغائب. ومن أجوبته عن التّهاني يقول: «وردت المشرّفة الكريمة -أتمّ اللهُ على مُرسلها نِعْمَتَه، وأعلى قَدرَه ومنزلتَه، وجعل جناحَ العِدا مخفوضاً، وعيشَه في دعة وخفض- فتلقّاها باليمين»[٢].

جاءت هذه الجمل بعد عبارة التخلُّص: «وردت المشرَّفة الكريمة» وتضمّنت الدُّعاء للمرسَل إليه، وعبّر فيها عن المرسل إليه بضمير الغائب.

ومن الجمل الدُّعائية غير المعترضة قوله من تهنئةٍ بكرامة السلطان: «أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعلَ التّقوى شعارَه، وألبسهُ من المحامدِ أكرمَ حُلّة»[٣] تضمنت هذه الجمل الدُّعاء للسلطان.

وهكذا يندر أن تجد رسالة إخوانية أو شبه رسمية للشهاب محمود الحلبي تخلو من هذه الجمل الدُّعائية[٤] وهي على الأغلب تتضمّن الدُّعاء للمرسل إليه.

تتميّز هذه الجمل الدُّعائية عنده بحسن اختيارها، ومناسبتها للموضوع، وسمّي ذلك براعة الاستهلال[٥]. ومن ذلك قوله: «قرّبَ اللهُ مزارَه، وأدنى جِوارَه، وأعان أعوانَه، ونَصرَ أنصارَه، ولا زالت الأنفسُ لقربِه مسرورةً.. الخ»[٦] فهذه الجمل الدُّعائية توحي وتشير إلى موضوع الرسالة، وترتبط معه ارتباطاً عضوياً بحيث لا تصلح مقدمة موضوع مكان مقدمة موضوع آخر ولو تقارب الموضوعان، ومن الجمل المعترضة أثناء الكلام قوله من تعزية بزوجة: «لمّا علم مملوك المجلس السّامي -أطال اللهُ بقاءَه، وأعظَمَ أجرَه، وأحسنَ عزاءَه- وفاةَ السيدةِ المرحومة-

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩:٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٨-١٢٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٦: ٢٦٦-٢٦٧.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٩:٧١.

سقى اللهُ عهدَها عهداً يبُلُّ الثّرى، وجعلَ الرحمةَ لمنْ نزلتْ بِهِ لها القِرى- تألّمَ لِفَقْدِها»[١].

جاءت الجمل المعترضة في هذا النص القصير في موقعين: تضمّن الموقع الأول الدُّعاء للمجلس السامي، وتضمّن الموقع الثاني الدُّعاء للفقيدة.

لا تقتصر هذه الجمل الدُّعائية والمعترضة على الرسائل الإخوانيّة وشبه الرسميّة، بل إنها واضحة في غيرهما من الرسائل الأخرى، مثل الطرديّات. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في مقدمة رسالته في صيد البندق « الرياضة- أطال الله بقاء الجناب الفلاني، وجعل حبّه كقلب عدوّه واجباً، وسعده كوصف عبده للمسارّ جالباً، وللمضارّ حاجباً- تبعث النفس على مجانبة الدَّعة»[٢].

جاءت الجمل المعترضة دُعائية، وعبّر الكاتب عن المرسل إليه أو المخاطب بضمير الغائب.

ولا تخلو كذلك الرسائل الحربيّة من هذه الظاهرة، ومنْ ذلك رسالةٌ في توبيخ المهزوم وتقريعه، والتهكم به، يقول منها: «هذه المكاتبة إلى فلان -أقال اللهُ عثْرَةَ زلّتِه، وأقامَهُ من حُفرةِ ذِلّتِه، وتجاوَزَ لهُ عنْ كَبيرَةِ فِرارِه مِنْ جَمْعِ عدوِّه على قِلّتِه»[٣].

جاءت هذه الجمل الدُّعائية في بداية الرسالة، وقد تأتي الجمل الدُّعائية في خاتمة الرسالة، كما هو واضح في نسخة جواب له عن وصول خيل من الإنعام السلطاني: «واللهُ -تعالى- يشكرُ بِرَّهُ الذي أفرده في النّدى بمذاهبِه، وجعل الصّافِناتِ الجِيادِ منْ بعضِ مَواهِبِه»[٤].

ولا تخلو الرسائل الديوانية من هذه الظاهرة، ومن ذلك ما كتبه من عهد للملك المنصور حسام الدين أبو الفتح لاجين « ولمّا كان السلطانُ الملكُ المنصور -خلّد اللهُ سلطانَه- هو الذي جعل اللهُ صلاحَ الأمّة على يديْهِ، فإن الحُسامَ من

(١) المصدر السابق، ٩:٩٣.
(٢) المصدر السابق نفسه،١٤: ٣٢٦.
(٣) المصدر السابق نفسه،٨:٣٠٧.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٨: ٣٩١ .

أسمائه»[١]. ومن الجمل الدُّعائية التي تخصّ الرسولَ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- وتتضمن الصلاة والتسليم عليه قوله من العهد السابق: «ويسأله أن يصلّي عليه صلاةً تفتحُ له في الدنيا إلى العصمةِ طريقاً، وتجعلُه في الأخرى معه ومع الذين أنعمَ اللهُ عليهم من آبائِه الشُّهداءِ والصّالحين»[٢].

وقد لا تأتي الجمل المعترضة دُعائية، مثل قوله: «أما بعد، فإنّا -من حين أورثَنا اللهُ مُلكَ الإسلام لا عَن كلالةٍ، وألبَسَنا في مواقفِ الذّبِّ عن دينِه حُلَلَ العزِّ المُعْلَمَةَ بالجلالةِ، ومكَّنَ لنا في أرضِه وأنهضَنا بمسنونِ الجهادِ وفرضِه، ونشَرَ دعوةَ مُلْكِنا في طولِ الوجودِ وعرضِه- لم نزل نرتادُ لِكفالَةِ الممالكِ الإسلاميةِ مَن تأوي مِنْه إلى رُكنٍ شَديد»[٣].

ومن الجمل المعترضة التي تأتي دُعاءً للسلطان قوله من التقليد السابق: «رسم بالأمر الشريف -لازالَ مُلكُه عليَّ الأركانِ راقياً من أُفُقِ النَّصرِ إلى أعلى مكانة، وأرفعِ مكان- أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ السلطنةِ الشريفةِ بالدّيار المصرية»[٤].

ومن الدُّعاء للسلطان أيضاً قوله من نسخة توقيع بخطابةِ الجامع بقلعة الجبل المحروسةِ، حيث مُصلّى السلطان: «رسم بالأمر الشريف -لا زالَ يُطْلِعُ في أُفُقِ المنابرِ مِن الأولياءِ شمساً مُنيرةً، ويُقيمُ شعائرَ الدينِ من الأئمةِ الأعلامِ بكلِّ مُشرقِ العلانيةِ طاهرِ السَّريرةِ- أن يُفوِّض إليه كذا»[٥].

ومن الدُّعاء للسلطان قوله من نسخة توقيعٍ بِنَظَرِ مشهدِ الإمام الحسين -رضي الله عنه- بالقاهرة: «رسم بالأمر الشريف -لا زالتْ مَكارِمُه بتقريبِ ذوي القُربى جديرةً، ومراسيمُه على إقدار ذوي الرُّتب قديرةً- أن يُفَوَّضَ إليهِ النّظرُ على مَشهدِ الإمامِ الحسين»[٦].

---

(١) المصدر السابق، ١٠: ٥٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٠: ٥٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١١: ١٣٤-١٣٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١١: ١٣٦.

(٥) المصدر السابق نفسه،١١: ٢٢٠.

(٦) المصدر السابق نفسه،١١:٢٦٢.

ومن نسخة تقليدٍ بالوزارة كتب بها للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة يقول: «رسم بالأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ الملكيّ الفلانيّ -لازالَ الدِّينُ في أيّامِه الشريفةِ مُشرِقاً ضياؤه، آهلةً باعتلائِه مرابعُ الوجودِ وأحياؤه، ممدودةً على الأمّةِ ظلالُه الوارفةُ وأفياؤه- أن يُجَدَّدَ هذا التقليد باستقراره تجَديداً لا يُبْلي الدَّهْرُ حُلَلَه»[١].

الاقتباس والاستشهاد:

وضّح الشهاب محمود الحلبي المقصودَ بالاقتباس بقوله: «أن يُضَمَّنَ الكلامُ شيئاً من القرآنِ الكريمِ والحديثِ ولا يُنَبَّه عليه للعلم به»[٢].

وسمّاه ابن الأثير التضمين، وهو: أن يوردَ الكاتبُ الآيةَ أو الخبرَ بجملتهما أثناء كلامه، وعندئذٍ يُسمّى تضميناً كلياً، أو أن يُدرِجَ بعضَ الآية أو الخبر ضمن كلامه، وعندئذٍ يُسمّى تضميناً جزئياً[٣].

واستعمل القلقشندي ثلاثة مصطلحات في هذا المقام: الأول: التضمين: وهو يشتمل على الاقتباس والاستشهاد، وقال:« إنّ تضمين الكلام بعض أي القرآن الكريم ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين؛ الاستشهاد والاقتباس»[٤] وعنى بالاستشهاد: أنْ يُضَمَّنَ الكلامُ شيئاً من القرآن الكريم وينبّه عليه، وهو أقلهما وقوعا، والاقتباس: أن يضمّن الكلامُ شيئاً من القرآن الكريم ولا ينبّه عليه.

وبهذا يلتقي القلقشندي مع الشهاب محمود الحلبي في مفهوم الاقتباس، ولقد حرص الشهاب محمود الحلبي على الاقتباس من القرآن الكريم، واشترط على من يريد مزاولة مهنة الكتابة أن يحفظَ كتاب اللهِ، ويداومَ قراءتَه، ويلازمَ درسَه، ويتدبَّرَ معانيَه؛ ليكون ذاكراً له في كلامه، وكل ما يرد عليه من الوقائع

---

(١) المصدر السابق، ١١: ٢٧٧.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٣.

النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧: ١٨٢.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٢: ٣٢٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٢٣٤-٢٣٧.

التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها[1].

وأشار الشهاب محمود إلى أنه أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس من محاورات ومخاطبات، مع قصور كل معنى ولفظ عنه، وذكر عن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم، وقال: «ومِن شرفِ الاستشهادِ بالقرآنِ الكريمِ إقامةُ الحُجَّةِ وقطعُ النزاعِ، وإذعانُ الخصمِ»[2].

ومن الأمثلة على اقتباساته من القرآن الكريم ماورد في قوله من عهد السلطان:«وجَمعَ بك شملَ الأمّةِ، «بعد أن كادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم» [3] وعضدك لإقامةِ إمامتِه بأولياءِ دولتِكَ الذين رضيَ اللهُ عنهم، وخصَّك بأنصارِ دينِه الذين نهضوا بما أُمِروا بِه من طاعتِكَ وهم فارِهون، «وقلَّبوا لكَ الأمورَ حتّى جاءَ الحَقُّ وظَهرَ أمرُ اللهِ وهُم كارِهون»[4] »[5].

وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاجين: «وجعلَ عدوَّه وإنْ أعرضَ بجيوشِ الرُّعبِ مَحْصوراً، وكفاهُ بالنصرِ على الأعداءِ التوغُّلَ في سفكِ الدماءِ، فلَمْ يُسْرِفْ في القتلِ إنَّهُ كانَ مَنصوراً»[6] [7].

وقوله في خطبة صداق في وصف نكاح: «وأحْيا بِهِ الأممَ وقَدْ قَضى دينهم، وجَمعَ بينَ مُتَفَرِّقِينَ، «لو أنْفَقْتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِم، ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بَيْنَهُم»[8] »[9].

وقال في توقيع إمام: «ولْيعلَمْ أنَّه يكونُ في المحرابِ مُناجِياً لربِّه واقفاً

---

(١) المصدر السابق،١: ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢٢٩:١.

(٣) التوبة/ ١١٧.

(٤) التوبة/٤٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٢٣٩.

(٦) الإسراء/٣٣/ نص الآية «فَلا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً».

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٣٩:١.

(٨) الأنفال/٦٣.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٣٩:١.

بين يدي مَنْ «يَحولُ بينَ المرْءِ وقلبِه»[١]» [٢].

وقوله من نسخة رسالة في صيد البندق: «فتارةً تحملُ الأكابرَ والعظماءَ في طلبِ الصيدِ على مواصلةِ السُّرى، ومقاطعةِ الكرى، ومهاجرةِ الأوطارِ، ومهاجمةِ الأخطارِ، ومكابدةِ الهواجرِ، ومبادرةِ الأوابدِ، التي لا تُدْرَكُ حتّى تَبلُغَ القلوبُ الحناجرَ [٣]»[٤].

ومن نسخة تقليدٍ بكفالة السلطنة في الشام يقول: «ونشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه الذي جَبَلَهُ على خُلُقٍ عظيمٍ، وجعله وإنْ تأخَّرَ عصرُه مِن مقامِ النبوّةِ في أعلى رُتَبِ التقديم، ومنَّ على الأمّة بإرساله إليهم من أنفُسِهِم، وأنّه بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم[٥]»[٦].

ومن نسخة توقيعٍ بقضاء قُضاة المالكيّة بالشام يقول: «ونشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه الذي أخذ اللهُ ميثاقَ النبيينَ في الإقرار بفضلِه، وأرسلَهُ «بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَه على الدينِ كلِّه»[٧]، وخصّه بالكتابِ الذي أخرسَ الأممَ عنْ مجاراتِه، فلو «اجتمعَتْ الإنسُ والجِنُّ علىَ أنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتُونَ بمثلِه»[٨]. صلّى اللهُ عَلَيْه وَعَلى آلهِ وَصحبه»[٩].

ومن نسخة تقليدٍ بنيابة السلطنةِ بحلب كتب به للأمير «أستدمر» يقول الشهاب محمود الحلبي: «ولْيزِدِ جيوشَها المنصورةَ إرهاباً لعدوِّهم، وإرهاقاً

---

(١) الأنفال/٢٤ ونصّ الآية «ياأيُّها الذيَن آمَنوا اسْتَجيبُوا لِلّهِ وللرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكم واعْلَموا أنّ اللّهَ يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ وقلْبِهِ وأنّهُ إليْهِ تُحْشَرون».

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٤.

(٣) الأحزاب/١٠،نصّ الآية«وإذْ زاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ وتَظُنّونَ باللّهِ الظُّنونا».

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٨.

(٥) التوبة/ ١٢٨ نص الآية: «لقدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِن أنفُسِكُمْ عَزيزٌ عليْهِ ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عليْكُمْ بِالمؤمِنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ».

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ١١.

(٧) الفتح/٢٨.

(٨) الاسراء/ ٨٨.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٥٢.

لصورام الجهادِ في رَواحِهم وغُدُوِّهم، وإدامةً للنّفير الذي حبَّبهُ اللهُ إليهم»[١] وقوةً على مُجاورِيهم مِنْ أهلِ النِّفاقِ، الذين يَحْسَبونَ كلَّ صيحةٍ عليهم،[٢] فإنَّهم فرسانُ الجِلادِ الذين ألِفوا الوقائع»[٣]

ومن تقليدٍ بنيابة السلطنة بصفد، يقول راسماً للمقلَّد السياسةَ العامّةَ والخطوطَ العريضةَ التي عليه أن ينهجَها ويسيرَ عليها: «.... وسيرةٍ تضعُ الاشياءَ مواضعَها، فلا تضعُ الحِدّةَ موضعَ اللين، ولااللين موضعَ الحِدّةِ، وتوَفُّرٍ على عمارةِ البلادِ يُعينُ على ريِّها طلُّ الأنواءِ والوابل، وبراءةٍ تجعلُ مايُودَعُ فيها بالبَركةِ والنَّماء، «كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ»[٤]»[٥].

ومن نسخة تقليدٍ كتب به لمتملّك سيس بإقراره على ما هو قاطع النهر من بلاده يقول واصفاً ما ألحقته الجيوش الإسلامية بالأعداء: «وجعلت حُماتَهم كزروعٍ فَلاتِهم، منها قائمٌ وحصيدٌ، فأسْلَمَهُم الشّيطانُ ومرَّ، وتركهم وفرَّ، وماكرهم وما كرّ، وأعلمهم أنّ موعدَهم الساعةُ، والساعةُ أدهى وأمرّ، وأخلَفَهم ما ضَمِنَ لهم من العوْن، وقال لهم «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أرَى مَا لاَ تَرَوْنَ[٦]»[٧].»

ومن كتاب له إلى متملّك سِيس عند كسرة التتار بعد قيامه معهم في المصافّ ومساعدته إياهم يقول واصفاً أخلاق العدوّ وخداعه: «وذلك بعد أن أقاموا مدةً يشترون المخادعةَ بالموادعةِ، ويسرّون المصارمَة في المسالمة، ويظهرون في الظاهر أموراً، ويدبِّرون في الباطن أموراً، ويَعدون كلَّ طائفةٍ من أعداءِ الدين، ويُمَنّونَهم «وَمَا يَعِدُهُم الشَّيْطَانُ إلا غُرُوراً»[٨] وكنّا بمكْرِهِم عالِمين»[٩].

(١) يشير إلى قوله تعالى:«انفروا خفافا وثقالاً» التوبة/٤١.

(٢) يشير إلى قوله تعالى:«يَحْسَبونَ كلَّ صيحةٍ عليهم هُمُ العدوُّ فاحْذَرْهُم» المنافقون/٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ١٤٥.

(٤) البقرة/٢٦١.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٢٠٣.

(٦) الأنفال /٤٨ .

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٢٦٢.

(٨) الإسراء /٦٤.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٦٠.

ومن تهنئة بولاية قضاء يقول: «ولا يَقْرَبُ إلا بالتي هي أَحْسَنُ مالَ اليتيم[١] فيحقّق له من العناية أملاً، ولا يُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عملاً[٢] حرسَ اللهُ المولى ومتّع بحياته ...»[٣].

ومن الأجوبة عن التهاني بالولايات بعدَ عبارة التخلّص والدُّعاء للمرسل يصوّر كيف استقبل رسالته قائلاً : «فتلقّاها باليمين، وظنّها الريح الجنوب لما تحمّلته من رقّة الحنين، وعلم ما أبداه فيها من تفضّلاته، واعترف بالتقصير عن مجاراته ومجازاته، فشنّفَ سمعَه بألفاظٍ كأنّهنّ اللؤلؤ والمَرْجان[٤]»[٥].

ومن التهنئة نفسها يقول: «وجازاهُ بِحُسن الدُّعاء عن إحسانه، ولا يقومُ بشكر فضلِه اللِّسانُ ولا الجثمان، وهل جزاء الإحسانِ إلا الإحسان؟[٦]».

ومن تقليدِ كتبه إلى متملك سيس يقول: «ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شهادةً تعصِم دمَ منْ تمسَّك بذمامِها، وتحسِمُ موادَّ من عانَدها بانتقام حُسامِها، وتفصِم عُرى الأعناقِ ممّن أطمعَهُ الغرور في انفصال أحكامها وانفصامها، وتقصِم من قصد إطفاءَ ما أظهرهُ اللّهُ من نورها[٧] واقتطاع ما قضاه من دوامها، وتجعل كلمة حَمَلَتِها هي العُليا[٨] فلا تزال أعناقُ جاحديها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها»[٩].

ومما قاله في وصف حصن وما حوله من جبال شامخات: «وحوله من الجبال كلّ شامخ يتهيّبُ عُقاب الجوّ قطعَ عِقابه، وتقف الرياح حسرى إذا توقّدت في هضابه، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر، وتتخيّل الفِكَرُ

(١) الإسراء /٣٤ ونص الآية «ولا تقرَبوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هِيَ أحسنُ حتى يَبلُغَ أشُدَّه».
(٢) الكهف/٣٠ ونص الآية «إنّا لا نضيعُ أجرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً».
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٩.
(٤) الرحمن /٢٢ ونصّ الآية «يَخْرُجُ مِنْهُما اللؤلؤ والمَرْجان».
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٥.
(٦) الرحمن/٦٠.
(٧) إشارة للآية الكريمة «يُريدونَ أن يُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم» التوبة، ٣٢، والآية «يُريدون ليُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم واللهُ متمُّ نورِه» الصف، ٨.
(٨) إشارة للآية الكريمة «وجعلَ كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ اللهِ هيَ العُليا» التوبة/٤٠.
(٩) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٩- ٣٧٠.

صورةَ التّرقّي إليه ثم لا تبلغُها حتى تبلغَ القلوبُ الحناجرَ[١] وحوله من الأودية خنادق[٢]، ومن ذلك ما ذكره في وصف العدوّ بالذلّة والخَوَر والوهَن «ورماحُهم لا تحمل كلٌّ أسنّتها إلا للخور والانكسار، وسهامهم لا عهد لها بالمقاتِل، وصِفاحُهُم كل شيء من القضب غيرها يمكن وصفه بأنّه قاتل، فإنْ «دَلاّهُم الشّيْطَانُ بغُرُورٍ»[٣] فسَيبرأُ منهم سَريعاً»[٤].

ومن استشهاداته التي نبّه إليها قوله في وصف الرّمي بالنشّاب: «ومن شرَفِ قدرهِ الذي عليه كلامُ النبوّةِ أنّ النبيَّ -صلّى الله عليه وسلّم- نبّه على أنه المرادُ بقوله تعالى: «وأعِدُّوا لهم ما اسْتطعتُمْ مِنْ قُوّة»[٥] [٦].

ومن اقتباساته قوله في وصف الرّمي بالنشّاب:«وإذا انفصل عن أمّه لم يسرْ من كبدٍ إلا إلى كبد، اتّحد فعلُه على ما فيه من اختلاف الطّباع، وشرفت أجناسُه بلونها «أُوْلي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وثُلاَث وَرُبَاع»[٧] [٨].

وتبدو هذه الظاهرة في قوله من وصف كاتب: «وهذا فلانٌ قد آتاه اللهُ في بلاغتِه الحكمةَ وفصلَ الخطابِ، ومكّنه من أزمّة جياد المعاني، فهي «تَجري بأمرِه رُخَاءً حَيثُ أصَاب»[٩]، ومنحه فضيلتي العلم والعمل، فإذا كتب «أخَذَتْ

(١) إشارة للآية الكريمة «وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ» الأحزاب، ١٠.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٩.

(٣) إشارة للآية الكريمة «فدلاهما بغرورٍ فلمّا ذاقا الشجرةَ بدَتْ لهُما سَوْءاتُهُما وطفقا يخصفانِ عليهما مِنْ ورقِ الجنّةِ وناداهما ربُّهما ألم أنْهَكُما عن تِلكُما الشجرةِ وأقلْ لكما إنَّ الشيطانَ لكما عدوٌّ مبينٌ» الأعراف، ٢٢.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٠.

(٥) الأنفال، ٦٠.

(٦) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥١.

(٧) نص الآية الكريمة «جاعِلِ الملائكةِ رُسلاً أولي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ» فاطر/١.

(٨) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٢.

(٩) نص الآية الكريمة «فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْري بأمْرِه رُخَاءً حَيثُ أصَابَ»، ص/٣٦.

الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ»(١) وإذ قال: «قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ»(٢) (٣).

ومن تقليدٍ كتبه لسلامش بمملكة الروم «وعضد من تمسّك بطاعةِ اللهِ وطاعتِنا من إجابةِ عساكرِنا بما هو أقربُ إلى مَقاتل عدوِّه من بيضِه المُرهَفةِ وسُمْره، وأعادَ بنا من حقوق الدِّين كلَّ ضالّةٍ ملكٍ ظنّ العدوّ أنّ أمرَه غالبٌ عليها «وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ»(٤) فجنودُنا إلى نصرة من دعاها بالإيمان أقربُ من رجعِ نفسِه»(٥).

ومن التقليد نفسه «وفوّضتْ إليه مراسُمنا الحكمَ في الرعايا بالعدل والإحسان، وقلّدَتْه أوامرُنا من عقودِ النظرِ في تلك الممالكِ ما تودّ حياةُ الملوكِ لو جلب بدرره معاقدَ التِّيجان، وعذقت به من الأوامرِ ما بنا تنفَذُ مواقعُه، وكذا الأمور المعتَبَرةُ لا تنفذُ إلا بِسُلطان»(٦) «من ألقى اللهُ الإيمانَ في قلبِه وهداه إلى دينِ الإسلام فأصبح فيه على بيّنة من ربّه وأراد به خيراً فنقلَهُ من حزبِ الشّيطانِ إلى حزبِه، وأنقذَه بطاعتِه من مواردِ الهلاكِ بعد أن كآن قد أذِنَ بحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ»(٧) ولقد خسر الدُّنيا والآخرةَ من أذنَ اللهُ بحربه، وأيقظه من طاعتِنا التي أوجبها على الأممِ لما أبصر به رُشده، ورأى قصدَه، وعلم به أنّ الذي كان فيه «كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وأنّ الذي انتقل إليه وَجَد الله عِنْدَهُ»(٨)، وأنهضه من موالاتِنا بما حتّم به النهوضَ على كلّ من كان مسلماً، وأخرجه بنورِ الهدى من عدادِ أعدائِه الذين تركَهم خوفُنا»(٩).

(١) نص الآية «حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً» يونس/٢٤.

(٢) نص الآية الكريمة «قَالَ الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ» النمل/٤٠.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٣.

(٤) نص الآية الكريمة «وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» يوسف/٢١.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٣٧٤.

(٦) نص الآية الكريمة «فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ» الرحمن/٣٣.

(٧) نص الآية الكريمة «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ» البقرة/٢٧٩.

(٨) نص الآية الكريمة «وَالذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَه..»، النور/ ٣٩.

(٩) الحلبي، حسن التوسل، ٣٧٦.

ومن التقليد نفسه قوله: «ووطّد له بعنايته أركانَ الرّشاد وشادَ، وجعل له بعدَ الجهلِ به علماً، وتداركَه برحمتِه فما أمسى للإسلام عدوّاً حتى أصبح هو ومن معه له سلماً «قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا»[1] وبكرَمِه العميم فليُفسِحُوا صدورَهم ويشرَحوا، ومن قوله: «وحين وضُحت له هذه الطرقُ أرشدته من خدمتنا الشريفةِ إلى الطاعةِ ودلّته على موالاة ملك الإسلام التي من لم يتمسك بها فقد فارق الجماعةَ، فإن اللهَ تعالى قرَنَ طاعتَه وطاعةَ رسولِه -صلّى الله عليه وسلّم- بطاعةِ أولي الأمر»[2].

ومن التقليد نفسه «ويحتسبون الشُقّةَ في طلبِ عدوّ الإسلامِ علماً أنّهم «لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وادياً إلاّ كُتِبَ لَهُم به عملٌ صالح»[3]. ومن التقليد نفسه يستشهد بقوله تعالى «يَا أيُّها الذينَ آمَنُوا قَاتِلوُا الّذينَ يَلوُنَكُم مِنَ الكُفّارِ وليَجِدُوا فِيْكُم غِلْظَة»[4].

ومنه قوله: «... وينفّذ أحكامَه، ويعاضد حكّامَه، ومنْ عدلَ عن حكمِه مسانداً أو تركَ شيئاً من أحكامِه جاحداً فقد برئتِ الذِّمّةُ من دمِه «حَتَىَ يَفِيءَ إلى أمْرِ اللهِ»[5]يرجعُ عن عناده وينيبُ إلى اللهِ «فَإنَّ اللّهَ يَهْدِي إليْهِ مَنْ أنَابَ»[6] وهو الذي «يقبَلُ التّوبةَ عن عِبادِهِ»[7]»[8].

ومن اقتباساته ما ورد في تقليدٍ في الفتوّة قوله: «نحمده على ما منحنا

---

(١) يونس/٥٨.

(٢) إشارة للآية الكريمة «يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ وَأولِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأحْسَنُ تَأوِيلاً»، النساء/ ٥٩.

(٣) نص الآية الكريمة «وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» التوبة/١٢١.

(٤) التوبة/ ١٢٣.

(٥) الحجرات/ ٩.

(٦) نص الآية الكريمة «قُلْ إنّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إلَيْهِ مَنْ أنَابَ» الرعد/ ٢٧.

(٧) نص الآية «ألَمْ يَعْلَمُوا أنّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأخُذُ الصّدَقَاتِ وَأنّ اللهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ» التوبة/ ١٠٤.

(٨) الحلبي، حسن التوسل، ٣٧٨.

من نعمٍ شتّى، ووهبَنا من علمٍ وحِلم غدَوْنا بهما أشرفَ مَنْ أفتى في الكرمِ وفتى، وآتانا مُلك خِلال الشرفِ الذي لا ينبغي لغير ما اختصّنا به من الكمال ولا يتأتى، وخصّنا به من رفع أهل الطاعةِ إلى سماءِ النِّعم يتبوأون من جِنان الكرمِ حيثُ شاء، وغيرُهم لا تُفتّح لهم أبوابُ السّماءِ ولاَ يَدخُلونَ الجَنَّةَ حَتّى»[1] «ويشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له»[2].

ومن استشهاداته من هذا التقليد «.. ونعذق نسبه بأصالة هذا الخُلُق المتّصلِ عن أكرمِ وصيٍّ بمن قال اللهُ في حقّه «وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظيم»[3].

ومن كتاب إلى مَنْ هُزِمَ وجيشُه يتضمّن إقامة عذره يقول: «وزاد العددُ على الجلَدِ فلم يُفِدِ الإقدامُ على الأوحال مع قدوم الآجال، وأمليَ للكافرينَ بما قُدِّر لهم من الإنظار، وحصل لهم من الاستظهار، وعُوِّضوا بما لم يعرفوه من الإقدام عمّا ألِفوه من الفِرار، «ولَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعضَهم ببعضٍ لفَسَدتِ الأرضُ»[4] [5].

ومن الكتاب نفسه «ولا يُظهِر بما جَرى عجزاً فإنّ العاجزَ من ظنَّ أنّه يصيبُ ولا يُصابُ ولا يتّخذُ ظهرَ حصانِه حصناً، فلا حرزَ أمنعُ من صهوةِ الجوادِ ولا سلمَ أسلمُ من الرّكابِ وليعلم أنّ العاقبةَ للمتّقين»[6] ويدرعُ جُنّةَ الصبرِ ليكونَ من النصرِ على ثقةٍ، ومن الظفرِ على يقينٍ «إنّ اللهَ معَ الصّابِرين»[7]

---

(١) نص الآية «إنّ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الجَنّةَ حَتّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ» الاعراف/٤٠.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٧٩.

(٣) القلم/ ٤.

(٤) نص الآية «فَهَزَمُوهُمْ بِإذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلّمَهُ مِمّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ» البقرة/ ٢٥١.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٥.

(٦) نص الآية «تِلْكَ مِنْ أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إنّ العَاقِبَةَ لِلْمُتّقِينَ» هود/ ٤٩.

(٧) نص الآية «يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصّبْرِ وَالصّلاةِ إنّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ» البقرة/١٥٣. وآية أخرى من سورة الأنفال «وَأطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إنّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ» الانفال/ ٤٦.

«ومن كانَ اللهُ مَعَه كانتْ يدُه الطُولى»[١].

وكما برزت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم واضحةً في أسلوب الشهاب محمود الحلبي تبرز ظاهرة الاقتباس والاستشهاد بالحديث الشريف، ومثال ذلك ممّا ورد من نسخة تقليدٍ بكفالة السلطنة بالشام يقول: «الحمد لله الذي جَعلَ الدينَ في أيامِنا الزاهرةِ زاهياً بجمالِه، سامياً بتقديمِ مَنْ إذا أرْهَفَ في الذبِّ عنه بسيفِ عزمِه« غَدَتِ الجنّةُ تَحْتَ ظِلاَلِه»[٢]».

ومن نسخة مرسومٍ بإمرةِ آل فضلٍ كتب بها للأمير حُسام الدين مهنّا بن عيسى يقول «... صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين حازوا بصحبته الرُّتَبَ الفاخرةَ وحصلوا بطاعةِ اللهِ وطاعتِه على سعادةِ الدنيا والآخرة، وعلموا أنّ الجنّةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ فلم يزحزحهم عن ظلّها الركونُ إلى الدنيا السّاخِرةِ»[٣].

ويلاحظ أنّ الكاتب قد اقتبس في النصين السابقين من الحديث الشريف الذي نصّه «وَاعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السّيُوفِ»[٤].

ومن نسخة جوابٍ عن وصول خيل من الإنعام السلطاني يقول: «وينهي وصول ما أنعمَ به من الخيلِ التي وُجِدَ الخيرُ في نواصيها، وتُتَّخَذُ صهواتُها حُصوناً يُعتَصم في الوغى بصَيَاصيها»[٥].

وهنا يلاحظ أنّ الكاتب أقتبس من الحديث الشريف « الخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيها الخَيْرُ إلىَ يَوْمِ القِيَامَةِ»[٦].

ومما ورد في وصف الرّمي بالنُّشّاب من خطبةٍ له قوله: «ومن أسبابِ فضلِه التي أصبح بها قدرُه سامياً، وفخرُه نامياً، وقطرُه في أُفُقِ النصرِ هامياً،

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ١١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٢: ١٢٢.

(٤) البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت:٢٥٦هـ) صحيح البخاري، نقد أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، المجلد الثاني، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ٤: ٢٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٨٨.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، المجلد الثاني، ٤: ٣٤.

ما ورد من قوله -صلّى الله عليه وسلّم- لفِتْيَةٍ من «أسْلَمَ» ارْمُوا يا بني إسْمَاعيلَ فَإِنَّ أبَاكُم كَانَ رامِياً»[١]، وهنا يستشهد بالحديث الشريف الذي يرويه البخاري يقول: حدّثنا عبدالله بن مَسلَمَة، حدّثنا حاتمُ بن إسماعيل عن يزيد بن أبي عُبَيْد قال: سمعت سلمةَ بن الأكوع -رضي اللهُ عنه- قال: مرّ النبيُّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- على نَفَرٍ من أسلم ينْتَضِلون، فقال النبيُّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- «ارْموا بَني إسماعيل فإنّ أباكم كانَ رامِياً، ارموا وأنا مَعَ بني فُلان- قال: فأمسكَ أحدُ الفريقين بأيديهم، فقال رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- مالَكم لا تَرمون؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النبي -صلّى اللهُ عليه وسلّم-: «ارموا فأنا معكم كلّكم»[٢]».

ومن استشهاداته بالحديث الشريف قوله: «ومن فضلِ الرّمي الذي لا يصرفُه التأويلُ ما رُوي من قوله -صلّى اللهُ عليه وسلّم- «مَنْ رمى بِسَهْمٍ في سَبيلِ اللهِ أخْطَأَ أوْ أصَابَ فَكَأنَّمَا أعْتَقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إسماعيل»[٣].

ونص الحديث كما يرويه النسائي «مَنْ شابَ شَيْبَةً في سَبيلِ اللهِ تَعَالى كانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيامَةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ في سَبيلِ اللهِ تَعَالى بَلَغَ العَدُوُّ أوْ لَمْ يَبْلُغْ كَانَ لَهُ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ وَمَنْ أعْتَقَ رَقَبَةً مُؤمِنَةً كَانَتْ لَهُ فِداءَهُ مِنَ النَّارِ عُضْوٌ بِعُضْوٍ»[٤].

وقال محمود الحلبي من الخطبة نفسها: «ومما يرفعُ قدرَ السّهمِ على غيره ويَفْضُله ما روي عنه -صلّى اللهُ عليه وسلّم- من أنه «يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الواحِدِ ثَلاثَةُ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صانِعُهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الخَيْرَ وَرَامِيهِ وَمُنَبِّلُه»[٥].

ويروي النسائي الحديث الذي استشهد به الحلبي بنصّ آخر من حيث

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، المجلد الثاني، ٤: ٤٥-٤٦.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥١-٢٥٢.

(٤) النسائي، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بدون تاريخ)، المجلد الثالث،٦: ٢٦.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٢٥٢.

التـقـديم والتـأخـيـر: «يَدْخُلُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ الجنَّةَ بِالسَّهْمِ الواحِدِ: صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ في صُنْعِهِ الخَيْرَ والرَّامي بِهِ ومُنَبِّلُه»(١).

وقد أكد الشهاب محمود الحلبي على ضرورة حفظ الأحاديث الشريفة ليستشهد بكل شيء في موضعه، وقد ذكر أن الفصاحة والبلاغة إذا طُلبت غايتها فإنها بعد كتاب الله -عزّ وجلّ- في كلامِ الرسول -صلّى اللهُ عليه وسلّم-(٢).

ومن خطبة تقليدٍ حاكميّ يقول: «ويصلّي على سيّدنا محمّد الذي استخرَجَهُ اللهُ من عنصر أهلِه وذويه وشرُفَ قدرُ جدِّه بقوله: «إنّ عمّ الرجلِ صنوُ أبيه وسرُّه بما أسرّ إليه من أن هذا الأمرَ فُتح به ويختم ببنيه»(٣).

والاستشهاد واضح بقول الرسول -صلّى اللهُ عليه وسلّم- «عمّ الرجل صنو أبيه»(٤).

ومن كتابٍ يتضمّن مخاطبة إنسان في تزويج أمّه يقول: «هذه المكاتبةُ إلى فلانٍ جعله اللهُ ممن يؤثِر دينَه على الهوى ويَنوي بأفعالِه الوقوفَ مع أحكامِ اللهِ، وإنما لامرئ ما نَوى»(٥). وهذا اقتباس من حديث الرسول -صلّى اللهُ عليه وسلّم- الذي يرويه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: «سمعتُ رسولَ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- يقول: «الأعمالُ بالنيةِ، فَمَنْ كانتْ هجرتُه إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزوّجُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه، ومَنْ كانتْ هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، صلّى اللهُ عليه وسلّم»(٦).

---

(١) النسائي، سنن النسائي، ٦: ٢٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٢٤١-٢٤٢.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٥.

(٤) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، وقف على طبعه:محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٥م، ١١.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٨٣.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، المجلد الثاني، ٥: ٧٢.

سهولة الألفاظ

يحتاج الكاتب في تأليفه ثلاثة أشياء الأول: اختيار الألفاظ المفردة، ويتمّ اختيارها قبل نظمها، والثاني: نظم كلّ كلمةٍ مع أختها، والثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام[١].

ويهمّ الباحث في هذا المقام الألفاظ من حيث السهولةُ والغرابةُ، وكان الطابع العام على ألفاظ الشهاب محمود الحلبي في رسائله ومكاتباتِه السهولة والوضوح والبعد عن الألفاظ الوحشيّة قليلةِ الاستعمال، وبخاصة في الموضوعات ذات الاتجاه الاجتماعيّ كالتهاني والشفاعات ورسائل الشوق والتعازي والعتاب ورسائل العيادة[٢].

ومن الأمثلة على ذلك قوله من رسالةٍ في تعزيةٍ بزوجة: «لمّا علِمَ مملوكُ المجلسِ السّامي -أطالَ اللهُ بقاءَه وأعظمَ أجرَه وأحسنَ عزاءَه- وفاةَ السيدةِ المرحومةِ -سقى اللهُ عهدَها عهداً يبلُّ الثرى، وجعل الرحمةَ لمن نزلتْ به لها القِرى-، تألَّمَ لفقدِها غايةَ الألمِ، ووجدَ حُرقةً كستْهُ ثوبَي ضَنىً وسقم»[٣].

فالمتمعن في هذا النص على قِصَرِه لا يجد فيه لفظة غريبة يكتنفها الغموض، وإنما جاءت الألفاظ سهلة واضحة، معبّرة عما يحسّ به الكاتب من ألم وحرقة وأسى على وفاة الفقيدة.

وتجد مثل هذا الوضوح والسهولة في الألفاظ في الرسائل الحربيّة ومن ذلك رسالة أنشأها في مَن هُزِم وجيشُه، منها قولُه: «والدّهرُ ذو دُولٍ، والزمانُ مُتلَوِّنٌ، إنْ دجتْ عليكم منه بالقهرِ ليلةٌ واحدةٌ فقد أشرقَتْ لكم منه ليالٍ أُوَلُ، فالمولى لا يلتفِتُ إلى ما فات ويُقبِل بفكرِه على تدبيرِ ما هو آتٍ، ويعدُّ للحربِ عِدّتَها، ويعجّل أمدَ الاستظهارِ ومُدَّتَه، ولا يؤخِّر فرصةَ الإمكان، ولا يعيدُ ذكرَ ما مضى»[٤].

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٤٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨-٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٢.

(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٦.

فألفاظ هذا النص القصير سهلة واضحة منتقاةٌ، فانظر كيف عبّر عن تغيّر الأحوال وتبدّلها بقوله: «والدهر ذو دول»، وكيف عبّر عن الهزيمة بقوله: «دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدةٌ» وكيف عبّر عن الانتصارات السابقة بقوله: «فقد أشرقت لكم منه ليال أُوَل» وانظر كيف اختار كلمة «دجت» وهي أخفّ وقعاً من مُرادِفتِها «أظلمت» ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه في صدر كتابٍ سلطاني إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدوّ «أصدرْناها ومُنادي النَّفيرِ قد أعلن: يا خيلَ اللهِ اركْبي، ويا ملائكةَ الرَّحمنِ اصْحبي، ويَا وفودَ الظفرِ والتأييدِ اقْربي، والعزائمُ قد ركضت على سوابقِ الرّعب إلى العِدا، والهممُ قد نهضتْ إلى عدوِّ الإسلام، فلو كان في مطلعِ الشمسِ لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوفُ قد أنفت من الغُمود، فكادت تَنْفُرُ من قِرَبِها والأسنّةُ قد ظمئت إلى موارد القلوب»[1].

فالألفاظ سهلة واضحة جزلة، ويوضح ابن الأثير معنى الجزالة بقوله: «ولست أعني بالجزْل أن يكون وحشياً متوعِّراً، عليه عنجهيّة البداوة، بلْ أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذتِه في السّمع»[2].

وقد أشار إلى أنّ الجزل يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف»[3]، ومن الألفاظ السهلة الجزلة التي وردت في النص «النَّفير» «خيل الله» «الظفر» «العزائم» «الرّعب» «السيوف»- الخ. إلا أنها ألفاظ لا غرابة فيها ولا وحشيّة ولا توعّر، ويخيّل لي أن مثلَ هذه النصوص تكاد تكون مناسبة للخطابة لما تحويه من معانٍ تدعو إلى حثِّ المقاتلين على الجهاد، ورفع الروح المعنوية لديهم، وبثّ الحماس في نفوسهم، ولمناسبة ألفاظها وعباراتها لألفاظ وعبارات الخطبة، وتجد السهولة والوضوح في الرَّسائل الديوانيّة، وإنْ كانت الظاهرة فيها أقلَّ وضوحاً من غيرها. فمن نسخة تقليد السلطنة بالكرك

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٣، ابن حجة الحموي، خزانة الأدب ، ٢: ٤١٥، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧: ١٩١.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٧٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١: ١٣٢.

يقول: «وبَعد، فإن أولىَ الحُصونِ الإسلاميّةِ بأنْ تحوطَ عنايتُنا أركَانَه، وتَتَعاهَدَ رعايتُنا مَكَانَه، وتلاحظَ مهابتُنا أحْوَالَهَ، فتحلّيها، وتشاهدَ أوامرُنا قواعدَه فتشيّدها بجميلِ النظرِ وتعليها وتحول سطواتُنا بَيْنَ آمال الأعداءِ وتوهّمه وتحجبُ مخافةُ بأسِنا أفكارَ أهلِ العِناد عن تأمّلٍ ما في الضميرِ وتوسُّمِهِ حِصنٌ، انعقدَ الإجماعُ على انقطاعِ قرينِه وامتناعِ نظيرِه، فيما خصَّه اللهُ به من تحصينِه، فهو فردُ الدهر العزيزُ مثالُه، البعيدُ منالُهُ، المستكنّةُ في ضمائر الأوديةِ الغوامضِ بقعتُه، المستجنّةُ بقُلل الجبالِ الشواهقِ نَقْعَتُه السائرُ في أقطار الأرضِ صيتُه وسمعتُه»[1].

وهكذا يلاحظُ على ألفاظِهِ السهولة والوضوح، ونجد هذه الظاهرة في رسائل الطرديات فمن رسالة البندق يقول في وصف الشمس: «فبَرزْنَا وشمسُ الأصيل تجودُ بنفسِها، وتسيرُ من الأفُقِ الغربيّ إلى موضعِ رَمْسِها، وتُغَازِلُ عيونَ النَّوْرِ بمقلةِ أرْمَدٍ، وتنظرُ إلى صفحاتِ الوردِ نظَر المريضِ إلى وجُوهِ العُوَّد، فكأنّها كئيبٌ أضحَى من الفِراق على فَرَق، أو عليلٌ يَقضِي بَيْنَ صحْبِهِ بقايا مُدّة الرمَقِ، وقدْ اخضلّت عيونُ النَّوْرِ لوداعِها، وهمّ الروض بِخَلْعِ حُلّتِهِ المموّهة بذهب شُعَاعِها»[2].

غيرأنّ الشهابَ محمود الحلبي يضطرّ أحيَاناً إلى أنْ يأتي بألفاظٍ لا تخلو من الغرابةِ عندما يحلّ معقودَ الشّعر لشعراء جاهليّين أمثال أمرئ القيس وغيره: والمثال على ذلك ما قاله من الرسالة السابقة:

«ونَهضْنَا وبُردُ اللّيل مُوشّعٌ، وعِقــدُه مُرَصّعٌ، وإكليلهُ مُجَوْهَرٌ، وأديمُهُ معنْبَرٌ وبدرُهُ في خِدْرِ سِرَاره مُستكِنّ، وفجْرُهُ في حَشَا مَطالعِهِ مُسْتَجِنّ، كأنّ امتِزَاجَ لونِه بشَفَقِ الكَواكِبِ خليطا مِسْكٍ وصَنْدَلٍ، وكأنّ ثُريّاهُ لامتداده معلّقةٌ بأمْرَاسِ كَتّان إلى صمّ جندل»

ومن الأمثلة على ما جاء غريب اللفظ بسبب حلّ معقودِ الشّعرِ قولُه من

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٢١٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٤: ٣٢٩، الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٤.

نسخة جوابٍ عن وصول خيل من الإنعام السلطانيّ في وصف الجواد الأدْهَم: «لينُ الأعْطَاف، سَرِيعُ الانْعِطَافِ، يُقْبِلُ كالليلِ، ويَمُرُّ كَجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السيلُ، يكادُ يسبِقُ ظِلَّهُ، وَمَتى جارَى السَّهْم إلى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبلَه»[١]

ويندر أن يستعمل لفظةً عاميّة، إلا ما جاء اضطرارياً كقوله: «كُنْتُ في نَوْبةِ حِمصَ في واقعة التّتَارِ جالِساً علَى سَطحِ بابِ الإصطبلِ السُّلْطَانيّ بِدمشْقَ، إذا أقبَل آلُ مرا زُهَاءَ أرْبَعَةِ آلافِ فارسٍ شاكينَ في السِّلاح على الخَيل المسوّمةِ، والجياد المطهمّة، وعَليهم الكزغندات الحمر الأطلسيّ المعدنيّ، والديباج الرومي، وعلى رؤوسِهم البيضُ، مُقلّدينَ بالسّيوفِ، وبأيديهِم الرّماح، كأنّهم صقورٌ على صقور»[٢].

لقد واءم الشهاب محمود الحلبي بين ألفاظه وموضوعات رسائله وأغراضها، فجاءت رسائلُه في الموضوعات الاجتماعية كالتعازي والتهاني والشوق رقيقةَ الألفاظ ويوضح ابن الأثير المقصودَ برقّة الألفاظ في أنها لا تعني أن يكون اللفظ ركيكاً، بل هو اللطيف الرقيق الحاشية، الناعم الملمس[٣].

ومن ذلك قوله في الشوق: «ما أمُّ طِفلٍ قَذَفَهاالزّمنُ العنيدُ في بعضِ البيدِ في أرضٍ مُوحِشةِ المسالكِ، قليلةِ السّالكِ قد لمعَ سرابُها وتوقّدتْ هِضابُها وصَرَخَ بومُها ونَفَر ظليمُها، وحضر سمُومُها، وغابَ نسيمُها، فلّما خافَتْ على ولدِها من الظمأ الهلاك أجلستْهُ إلى جَنْبِ كثيبٍ هُناك، ثم ذهبت في طلبِ الماءِ للغلامِ لئلا يقضي عليه الأوام، فانتهى بها المسير إلى روضةٍ وغدير، وآثار مطيّ بوارك، تدلّ على أنّ الطريق هنالك، فعادت إلى ولدها مسرعةً، وكلُّ أعضائِها إليه عيونٌ متطلعةٌ، فلما شَارَفت جَنْبَ الكثيب رأتْ ولدها في فمِ الذيب.

بأكْثَرَ مِنّي حَسْرَةً وتَلهُّفَاً وَأعْظَم مِنّي حُرْقَةً وَتَأسُّفَاً

وَأغْزَرَ دَمْعاً عِنْدَمَا قيلَ لِيَ الذي كَلِفتَ بهِ أضْحَى عَلى البُعدِ مُزْمِعا[٤]

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٤: ٢١٦.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٧٢.

(٤) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ٢: ٣٨٥-٣٨٦.

فجاءت الألفاظ تجمع بين الرّقة والسهولة، منسجمةً مع الموضوع الوجداني، وهو الشوق لمن أزمعَ على الرحيل. وقد يقوده حرصُه على السجع والجناس إلى استخدام الألفاظ الغريبة وذلك مثل قوله في صفة حصن: «قد تقرّطَ بالنجوم، وتقرطقَ بالغُيومِ، وسما فرعُه إلى السَّماء، ورسا أصلُه في التّخوم، تخال الشمسَ إذا علَتْ أنها تنتقل في أبراجه، ويظُنُّ من سها إلى السُّها أنّه ذبالةٌ في سِراجه، لا يعلوه من مُسمّى الطير غيرُ نسرِ الفلكِ ومِرزمِه، ولا يرمقُ متبرّجات بروجه غيرُ عينِ شمسه، والمقل التي تطرفُ في أنجُمِه، وحَولَه من الجبال كلّ شامخٍ يتهيّب عُقاب الجو قطعَ عقابه»[1].

وهكذا تجد مثل هذا النص مليئا بالألفاظ الغريبة مثل «تقرطق» و«مرزمه» وغيرها في بقيّة النص.

ولقد عدّ ابن الأثير استخدام الألفاظ الغريبة عيباً بيّناً لكنّه قسّم هذه الألفاظ الغريبة إلى قسمين: غريب حسن، وغريبٍ قبيح، والغريب الحسن ما تداول استعماله في القديم وترك استعماله في الحاضر[2] وقد يكون استخدام الغريب لإظهار المقدرة اللغوية كقوله من شفاعة له في استخدام جندي: «هو الغَشَمْشَم الذي لا يُردّ، والشّهمُ الذي لا يُصدّ»[3] وهنا لم تَقُدْهُ المحسّنات البديعية إلى الإتيان بهذه اللفظة الغريبة لأنه كان بإمكانه أن يقول: «هو الجريء الذي لا يردّ» وإنما جاء بها لأحد سببين: إمّا لإظهار مقدرته اللغوية، أو لأنه رأى أن وقع هذه اللفظة معبّرٌ عن معناها بصورة أفضل من غيرها.

وقد يستعمل الغريب في الرسائل شبه الرسمية ومن ذلك قوله في شفاعة: «ويُنْهِي ورودَ الكتابِ الذي طاب بالمولى مَحْتِدُه ونَجارُه، وزاد على كتائب الكتب فخارُه»[4] فورود اللفظتين «محتده ونجاره» في هذه الرسالة يعدّ من الغريب، وقد قاده إلى ذلك السجعُ وقال من الرسالة نفسها: «فأسْكَرَتْهُ تلكَ

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٩.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٦١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٣٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠٧.

الفصاحةُ بشذاها الأرج ونزّهت لحظَه في درّ لفظِها البهج، فظنها لمّا استنشق رائحتَها راحاً قَرْقَفاً، ولمّا أبهجَه لفظُها بألفاظ تُزهي على الرّياض روضةً أُنُفاً»، فلفظة «قرْقَفا» وكذلك «أنُفا» من الألفاظ الغريبة، ومن الممكن أنه جاء بهاتين اللفظتين إظهاراً للمقدرة اللغوية، ومن الألفاظ الغريبة لفظة «الآلاء» في قوله «فخرّ على الآلاءِ[1] كبِسْطَام بن قيس»[2].

السجع والازدواج

السجع عند ابن الأثير هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد، وقد امتدحه واستدلّ على حُسنه بوروده في القرآن الكريم[3]. والسجع ليس من وليد هذا العصر بل عرف في أدب الجاهليين.

وقد عرف بشكل واضح في القرن الرابع الهجري، وامتدحه العسكري في كتابه«الصناعتين» وقال: «ولا يحسن منثور الكلام حتى يكون مزدوجاً ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج»[4].

والازدواج قسم من أقسام السجع، فالكاتب قد لا يلتزم حرفاً واحداً في فواصل الجمل، ومتى التزم حرفاً واحداً في كل سجعتين سُمي ازدواجاً. ويرى الشباب محمود الحلبي أنّ كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ولا يتمّ ذلك إلا بالوقوف[5].

واشترط ابن الأثير شروطاً في السجع منها: أن تكون الألفاظ تابعةً للمعاني، لا المعاني تابعة للألفاظ، أي أن لا يكون السجعُ مُتَكَلَّفاً، واشترط أن

(١) الآلاء: شجر، ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٣٧٥، ١٩٥٦، مادة ألا.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٦.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٢، ١٩٧- ٢٠٠.

(٤) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت ٣٩٥) كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،١٩٥٢م،١٣٦.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٢٠٦.

تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملةً على معنى غير المعنى الذي اشتملتْ عليه أختُها[١].

وبحث القلقشندي موضوعَ السَّجعِ وقال: السجعُ مشتقٌ من الساجع وهو المستقيم؛ لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه. وهو مأخوذ من سجع الحمامة وهو ترجيعُها الصوت على حدٍّ واحد، وسمّي السجع في الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتي على ألفاظ متوازية متعادلة وكلماتٍ متوازية متماثلة فأشبه ذلك الترجيع[٢].

وبحث ابن حُجّة الحموي موضوع السجع، ووافق القلقشندي في سبب تسميته، ومثّل عليه من كلام الشهاب محمود الحلبي إلى مقدّم سريّة كشف «لا زالَ في مقاصدِه أخفُّ من وطأةِ ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وفي تنقّلِه أسرعَ من سحابةِ صيف، وأروعَ للعدا من سلّةِ سَيف»[٣].

وفي النص السابق جاء السجع مبنياً على الوقف وكلمات الأسجاع ساكنة الأعجاز. وجاءت السجعاتُ الثلاثُ متقاربةً في عدد الألفاظ بزيادة لفظة واحدة في السجعة الأخيرة، وحرَص الكاتب على مراعاة الوزن في بعض كلمات القرينتين مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً، مثل: أسرع تقابلها: أروع مع مراعاة التوازن بين الكلمات الأخيرة: ضَيْف، طَيْف، سَيْف.ومثّل ابن حجة الحموي على السجع من كلام الشهاب محمود الحلبي في صدر كتابٍ سلطانيٍّ إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدو: «والسيوفُ قد أنِفَتْ من الغُمودِ فكادت تنفرُ مِنْ قِرَبِها، والأسنّةُ قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوّقت إلى الارتواء من قُلُبِها، والكماةُ قد زأرتْ كالليوثِ إذا دنَتْ فرائسُها، والجيادُ قد مرحتْ لما عوّدتها من الانتعالِ بجماجم الأبطالِ فوارسُها. والجيوشُ كاثَرتْ النجومَ أعدادُها»[٤] وهنا تظهر السجعات أطول من سابقاتها في النص السابق، فالسجعة الأولى مكوّنة

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٩٧- ٢٠٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢: ٣٠٦.

(٣) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ٢: ٤١٤. الحلبي، حسن التوسل، ٣٣١.

(٤) الحموي، خزانة الأدب ٢: ٤١٧، الحلبي، حسن التوسل، ٣٣٣.

من تسع لفظات، والسجعة الثانية مكوّنة من إحدى عشرة لفظة.

وذكر الحلبي أنّه إذا طالتْ السجعةُ فإنّ التذاذ السامع يكون أكثر[1] ولم يقتصر السجع على الرسائل الحربية والديوانية، وإنّما تجده واضحاً في الرسائل الإخوانية، فمن تهنئة بعيد الأضحى يقول: «جعله اللهُ أبركَ الأعيادِ وأسْعَدَهـا، وأيمَنَ الأيّام وأمْجَدَهَا، وأجْمَلَ الأوقاتِ وألـذّهـا وأرغَدَهـا، ولا بَرِحَ مَسْرُوراً مُسْتَبشِراً، منصوراً على الأعداءِ مقتدِراً، مسعوداً محموداً مُعاناً بملائكةِ السّماءِ معضوداً، مُهَنّاً بالسعودِ الجديدةِ والجدودِ السعيدةِ»[2]. جاءت السجعات الثلاث متساوية في عدد اللفظات بزيادة لفظة واحدة في الثالثة.

وقد اهتم الشهاب محمود الحلبي بالازدواج، فهو لا يلتزم حرفاً واحداً في جميع فواصل الجمل والعبارات، وإنما ينوّعُ في الحروف، يجعل كل سجعتين على حرف واحد من النص، وهذه الظاهرة واضحة وجليّة في رسائله، فمن رسالة البندق يقول: «فبرزْنا وشمسُ الأصيلِ تجودُ بنفسِها وتسيرُ من الأفقِ الغربيّ إلى موضعِ رَمسِها، وتغازلُ عيونَ النُّوْرِ بمقلةِ أرمد، وتنظرُ إلى صفحاتِ الوردِ نظرَ المريضِ إلى وجوهِ العُوَّد، فكأنّها كئيبٌ أضحى من الفراقِ على فَرَق، أو عليلٌ يقضي بين صحبِه بقايا مدّةِ الرَّمَق، وقد اخضلّت عيونُ النُّوْرِ لوداعِها، وهمّ الروضُ بخلعِ حُلّتِه المموّهةِ بذهبِ شعاعِها»[3].

فتراه نوّع في الحروف، فقد جاءت كل سجعتين في النص على حرف واحد، فالأولى والثانية جاءتا على حرف «الهاء» في لفظتي: (بنفسها ورمسها) والثالثة والرابعة جاءتا على حرف «الدال» في لفظتي: (أرمد والعوّد)، والخامسة والسادسة جاءتا على حرف «القاف» والأخيرتان جاءتا على حرف الها في لفظتي: (وداعها وشعاعها). ظهرت هذه السمة في أغلب رسائله، وهذا مثال من الرسائل الإخوانية «رزقَهُ اللهُ ثباتاً على رزيّتِهِ وصبراً، وجعلَ له مع كلِّ

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣١٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٤: ٣٦٩، الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٤.

عُسرٍ يُسراً، وأبقاه مـفـدّى بالأنفس والنفائس، وكـان لـه أعظم حـافظ من نوب الدهر، وأجلّ حارس»[١].

فتنوُّع الحروف واضح في هذا النص، فجاءت كل سجعتين على حرف واحد. وهذه السمة لا تقتصر على جزء معين من الرسالة، فكما جاءت في المقدّمة الدُّعانية السابقة فإنّها تجيء في صُلب الموضوع من رسالة في شفاعة له في استخدام (كاتب): «... وهو مِنَ الكرام الكاتبين، والرّاغبين في الانتظامِ في سلكِ خَدَمِه والمؤثرين، وصفاتُه بالجميلِ موصوفةٌ، وفَصَاحتُه معروفةٌ»[٢].

وتظهر أيضاً في الخاتمة كما هو واضح من جواب شفاعة في استخدام جندي: «وهذا بعضُ ما يجبُ من قَبولِ أمرِه، وتعظيمِ كتابِه وتبجيلِ قدرِه، فيواصلُ بمراسيمِه فإنّها تقابلُ بالارتسامِ، ومشرّفاته فإنها تعاملُ بوافر الإكرام»[٣].

ويشتمل هذا النص على أربع سجعات، كل سجعتين على حرف، فالسجعة الأولى والثانية جاءتا على حرف الها في لفظتي: «أمره وقدره»، والثالثة والرابعة جاءتا على حرف الميم في لفظتي: «الارتسام والإكرام».

ويلجأ الكاتب في الرسائل الديوانية وبخاصة في التحميدات أن يلتزم في كل تحميدة حرفاً واحداً، فتأتي تسعُ سجعات في التحميدة الواحدة على حرف واحد، وهذا واضح في نسخة مرسوم له بمسامحةٍ ببواقي دمشق وأعمالها «الحمد للّهِ الرؤوفِ بخَلْقِه، المتجاوزِ لعباده عمّا قصّروا فيه من حقِّه، المسامحِ لبريّتِه بما أهملوه من شكرِ ما بسطَ لهُم من رزقِه، جاعل دولتِنا القاهرةِ مطلعَ كرم، تُجتَلى أنوارُ البرّ في البرايا من أفُقِه، ومَنْشَأ ديَمٍ تُجْتَلَبُ أنواءُ الرِّفقِ بالرّعايا من بَرْقِه، ومضمارَ جودٍ يحتوي على المعروفِ من جميعِ جهاتِه، ويشتملُ على الإحسانِ من سائرِ طُرقِه، فلا برّ تنتهي إليه الآمالُ إلا ولكَرَمِنا إليه مزيّةُ سبْقِه، ولا أجر يُتوجّه إليه وجه الأمانيّ إلا تلقّته نِعَمُنا بمُتهلّلِ وجه الإحسان طَلْقِه، ولا

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠٤.

معروف تُجْذِبُ منه أرجاءُ الرّجاءِ إلا واستهلّت عليه آلاؤنا من صوب برّنا المألوف لآلئ وَدْقِه[١].

والألفاظ التي جاءت على حرف واحد هي «خَلْقِه، حَقِّه، رِزْقِه، أُفُقِه، بَرْقِه، طُرقِه، سَبْقِه، طَلْقِه، وَدْقِه».

وتحوي التحميدةُ التي تلي التحميدةَ السابقةَ على ثلاثِ سجعات طوال، انتهت السجعات الثلاث بالكلمات التالية على التوالي «اليهِم، عَلَيهِم يَدَيْهِم».

جاءت السجعة الأولى على تسع لفظات، والثانية على أربع عشرة لفظة، والثالثة على عشرين لفظة، ويختم هذا المرسوم بفقرة مسجوعة كذلك يقول فيها: «وسبيلُ كلٍّ واقفٍ على مرسومِنا هذا من ولاة الأمر أجمعين العملُ بمضمونِه، والانتهاءُ إلى مكنونِه، والمبادرةُ إلى إثباتِ هذه الحسنةِ والمسارعةُ إلى العملِ بهذه المسامحةِ التي تستدعي مسارَّ القلوبِ، وثناءَ الألسنةِ، وتعفيةُ آثارِ تلكَ البواقي التي عفَوْنا عن ذكرِها، ومحوُ ذكرِ تلكَ الأموالِ التي تعوَّضْنا عن استيفائها بأجرِها»[٢] فجاءت السجعتان: العمل بمضمونه، والانتهاء إلى مكنونه، على حرف واحد، وجاءت الثالثة والرابعة على حرف التاء المربوطة في لفظتي: «الحَسَنَة والألْسِنَة» والسجعتان الأخيرتان على حرف الها في لفظتي: ذكرها، وأجرها.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٢٥-٢٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٣: ٢٨.

الجناس

سبق القول في فن الجناس من خلال الحديث عن كتابه "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"[١].

برزت هذه السمة الفنيّة في أغلب رسائله على اختلاف موضوعاتها، فمن تقليدٍ كتبه إلى متملك سيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده يقول: «نحمدُه على نعمهِ التي جعلتْ عفوَنا ممَّن رجاهُ قريباً، وكرَمَنا لمن دَعاهُ بإخلاصِ الطاعةِ مُجيباً، وبرّنا لمن أقبلَ إليهِ مُنيباً بوجهِ الأملِ مُثيباً، وبأسَنا مُصيباً لمن لمْ يجعلِ اللهُ له في التَّمسُّك بمراحِمِنا نَصيباً»[٢] ومن التقليد نفسه يقول: «...وذلكَ بعْدَ أنْ أقاموا مُدَّةً يَشتَرُون المخادَعَةَ بالموادَعَةِ».

والمتمعِّن في النصين السابقين يجد أنّ الكاتبَ جانسَ جناساً ناقصاً بين لفظي: منيباً ومثيباً، وبين لفظي:مصيباً ونصيباً.

وفي النص الثاني جانس بين لفظي: المخادعة والموادعة.

ومن الرسائل الديوانية أيضاً نسخة تقليدٍ بكفالة السلطنة يقول منها: «أمّا بعد، فإنّا -من حين أورثَنا اللهُ ملكَ الإسلامِ لا عنْ كلالةٍ، وألبسَنا في مواقفِ الذَّبِّ عن دينِهِ حُللَ العزِّ المعلمةَ بالجلالةِ- لم نزلْ نرتادُ لكفالةِ الممالكِ الإسلاميةِ من تأوي منه إلى ركنٍ شديدٍ ورأيٍ سديدٍ»[٣].

وهنا جانسَ الكاتب بين لفظي:الكلالة والجلالة، وبين لفظي: سديد وشديد.

ومن نسخة مرسومٍ بمسامحةٍ ببواقي دمشق وأعمالها يقول: «.... فإنَّ الأرضَ يُحييها العدلُ ويعمرها الاقتصارُ على الاقتصاد»[٤]. وهنا جانس الكاتب بين لفظي: الاقتصار والاقتصاد، ويسمّي الحلبي هذا الجناس الجناس المطرف[٥].

---

(١) ينظر الفصل الثاني من هذا البحث تحت عنوان: كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٢٦٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ١٢٤- ١٢٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٣: ٢٨.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٢.

لقد أكثر الكاتب من الجناس في الرسائل الديوانية: وبخاصة الجناس الناقص، ولم يقتصر على الرسائل الديوانية، بل هو بارز في الطرديات أيضاً، ففي رسالة البندق قال عن الرياضة: «تبعثُ النفسَ على مجانبةِ الدّعَةِ والسّكون، وتصونُها عن مشابهةِ الحمائمِ في الرّكونِ إلى الوكون»[1].

وهنا جانس الكاتب بين لفظي: الركون والوكون ومن الرسالة نفسها يقول: «...تُقنا إلى أن نشفعَ صيد السوانح برمي الصوادحِ وأن نفعلَ في الطيرِ الجوانحِ بأهلّةِ القِسِيّ ما تفعلُ الجوارحُ» وهنا جانس الكاتب بين لفظي: الجوارح والجوانح.

ومن صور الجناس الناقص ما ورد في الرسالة السابقة من قوله: «... إلى أنْ نَضى المغربُ عن الأفُقِ حَلْيَ قلائدها، وعوّضه عنْها من النجومِ بخدمها وولائدها» فقد جانس الكاتب بين لفظي قلائدها وولائدها، ومن الرسالة نفسها يقول: «ونَهضْنا وبُرد الليلِ موشّع، وعِقدُه مرصّع، وإكليلُه مجَوْهَر، وأديمُه مُعنبَر، وبدرُه في خِدرِ سِرارِه مُستكِنّ، وفجره في حَشا مَطالِعِه مُستَجِنّ» فالجناس الناقص واضح بين لفظي: مستكنّ ومستجنّ.

ومن صور الجناس الناقص ما ورد في الرسالة نفسها في وصف الطير: «تَحسَبُه في أسْدافِ المنى غُرّةَ نُجح وتَخالُه تحتَ أذيالِ الدُّجى طُرّةَ صُبْح عليه من البياضِ حُلّةُ وقارٍ، وله كدُهنِ عَنْبَر فوقَ مِنْقار من قار..»[2].

فالجناس بين: منقار ومن قار، وهذا الجناس تشابه لفظاً واختلف معنى وخطاً، وهو من الجناس المركّب، وقد يُسمّى الجناسَ المفروق[3]، ومن الرسالة نفسها -وهي تحفل بصور الجناس الناقص- قوله: «وقارنَتْهُ إوَزّةٌ حَلْباء دَكْناء وحُلّتُها حَسْناء، لها في الفضاء مجال وعلى طيرانها خِفّةُ ذواتِ التبرُّجِ وخَفَرُ رَبّاتِ الحِجَال، كأنما عَبّتْ في ذَهَب، أوْخاضَتْ في لَهَب، تَخْتَال في مِشْيَتِها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٤: ٢٣٣.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ١٨٩.

كالكاعِب وتتأنّى في خطوِها كاللاعِب، وتعطِفُ بجيدِها كالظّبْيِ الغَرير، وتتدافعُ في سَيْرِها مَشْيَ القَطَاة إلى الغدير»[١] فقد جانس الكاتب بين الألفاظ التالية: مَجَال وحِجَال، وذَهَب ولَهَب، كَاعِب ولاعِب، الغَرير والغَدير.

أما الرسائل الإخوانية وشبه الرسمية فشأنها شأن غيرها من الرسائل، تحفل بصور الجناس الناقص، ومن ذلك قوله من جواب عن تهنئة بالولاية: «...وعلِم ما أبْداهُ فيها منْ تفضُّلاتِه، واعترَفَ بالتّقْصيرِ عنْ مُجاراتِه ومجازاتِه، فشنَّفَ سمعَه بألفاظٍ كأنّهُنَّ اللؤلؤُ والمَرْجان»[٢].

وهنا جانس الكاتب بين لفظي: مجاراته ومجازاته. ومن تهنئةٍ بالخلاص من الاعتقال يقول: «...وتهنّيه بما جدّد اللهُ له بَعدَ الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح»[٣].

ومن أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد يقول: «جعلَ اللهُ قدْرَه على الأقدارِ سامياً، وجزيلَ نوالِه على مَنْ هامَ بِه مِنَ العُفاةِ هامِياً»[٤] وهنا جانس الكاتب بين لفظي: ساميا وهاميا.

ومن تهنئةٍ بقرب المزار يقول: «.... فتضاعفَ شَوْقُه وتزايدَ توْقُه»[٥] فقد جانس بين: شوقه وتوقه.

وتبرز هذه الظاهرة الفنّية في الرسائل الوصفية، فمن نسخة جواب عن وصول خيل من الإنعام السلطانيّ يقول: «.... ويُنهِي وصول ما أنعمَ بِه مِنَ الخيلِ التي وُجِدَ الخيرُ في نَواصِيها»[٦].

فقد جانس الكاتب بين لفظي: الخيل والخير، ويسمّي الشهابُ محمود هذا الجناس المطرف، ووصفه بقوله: وهو أن تجمع بين كلمتين متجانستين لا تفاوتَ بينَهما إلا بحرفٍ واحدٍ من الحروفِ المتقاربةِ سواء وقع آخراً أو حشواً[٧].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٣٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٤-٥٥.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٩: ٧١.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٨: ٣٨٨.

(٧) الحلبي، حسن التوسل،١٩٢-١٩٣.

ومن الرسالة نفسها يقول: «ومن كُمَيْتٍ نَهْدٍ كأنَّ راكِبَه في مَهْد، عندميّ الإهاب، شماليّ الذّهاب، يزلُّ الغُلامُ الخِفُّ عنْ صَهَواتِه، وكأنَّ نَغَمَ الغَريضِ ومَعْبدٍ في لَهَواتِه»(١) وفي النص السابق جانس الكاتب بين لفظي: نَهْد ومَهْد، وبين لفظي: صهواته ولهواته.

ومن تهنئةٍ له بعيد الفطر يقول: «... والعيدُ والرّبيعُ ضيفان، ومكارمُ المولى جديرةٌ بإكرام الضّيف، والتمتُّع بالملاذّ فيهما قبل رحيلهما، وقدوم حرّ الصّيف»(٢) والجناس هنا واضح بيْن لفظي: الضيف والصيف.

ومن الجناس المعكوس ما ورد في رسالة تهنئة بعيد الأضحى: «...ولا برِحَ مَسْروراً مُستبشِراً منصوراً على الأعداءِ مُقتدِراً، مسعوداً محموداً، مُعاناً بملائكةِ السماءِ معضوداً، مُهنّأً بالسّعودِ الجديدةِ، والجدودِ السّعيدةِ»(٣).

وقال ابن الأثير عن هذا الجناس «له حلاوة وعليه رونق، وقد سمّاه قدامة ابن جعفر الكاتب التبديل ، وذلك اسم مناسب لمسمّاه لأنّ مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدّماً في جزء كلامه الأوّل مؤخّراً في الثاني، وبما كان مؤخّراً في الأول مقدّماً في الثاني»(٤)، ومن الجناس التام ما ورد في قوله من تهنئة: «عوّضَه اللهُ عن مأتمِ الحزنِ بما تمّ من السُّرور، وعن الهمّ المانع عن الورود والصدور بانشراح الصدور»(٥)، فالجناس التامّ بين لفظي: الصدور والصدور، ومنه قوله: «وردت مشرّفته التي حلّت الأسماع عندما حَلّت وسَمَتْ عن الرِّياضِ لمّا جُلّيَتْ عروسُ فضلبا وجَلّت»(٦) ويظهر أن الكاتب لم يكثر من الجناس التام قياساً إلى كثرة ما ورد عنده من الجناس الناقص، وقد جاء غير متكلف وجاء موافقاً لرأيه فيه، فقد أشار إلى أنّ الجناس يَحْسُنُ إذا قلّ وجاءَ غيرَ متكلّف ولا مُسْتَكْرَه، ولا يميل إلى

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٨.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٥٤-٢٥٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٥.

جانب الركة[1] ويبدو من دراسة رسائله أنّه لم يقصر الجناس على غرض من أغراضه، بل إنّ الجناس سمة فنيّة بارزة في نثره.

ومن الرسائل الحربية قوله من رسالةٍ تتضمّن ذمّ المهزوم وذمّ جيشِه والتقريعَ لهم والتهكُّم بهم: «هذه المكاتبة إلى فلان أقال اللهُ عَثْرةَ زلّتِه وأقامه مِن حُفْرَةِ ذِلّتِه»[2].

وقوله من الرسالة نفسها: «وكان يُقالُ: النّارُ ولا العار فجمع له فِرارُه من الزَّحف بين النّار والعار» وقوله: «واللهُ تعالى يوقظُ عزْمَه من سِنَتِه ويُعجِّلُ له الانتصافَ من عدوِّه قبل إكمال سَنَتِه.

فقد جانس الكاتب في المقتطفات السابقة بين لفظي: زلّتِه وذِلّتِه وبين: النّار والعار، وبين سِنَتِه وسَنَتِه.

ويبدو عنده الجناس التام في قوله من عهد الملك المنصور حُسام الدين لاجين عن الخليفة الحاكم بأمر الله بن أبي الرّبيع: «... فما ينبّه على حَسَنةٍ إلا وهو أسبقُ إليها، ولا يُدَلُّ على خَلَّةٍ إلا وفكرهُ الشريفُ أسرعُ من فكر الدالّ عليها، وقد وثِقَ ببراءةِ الذمّةِ من حقٍّ قومٍ أضحَوا لِفضلِ مثلِه راجين، وتحقّقَ حُلولُ النِّعمةِ على أمّةٍ أمْسوا إلى (لاجين) لاجين[3].

ففي النص السابق جانس الكاتب بين لفظي (لاجين) ولاجين جناساً تاماً.

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢٨٧-٢٨٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٥٨.

تضمين بعض مصطلحات النحو واللغة والفقه والأمثال

تبدو هذه الظاهرة في قوله من كتاب أنشأه في وصف العدوّ بالذِّلّة والخَوَر والوَهَن «فإن دلاّهم الشيطانُ بغرورٍ فسيبرأ منهم سريعاً، وإن أطمعَهم في اللّقاء فستردُّهم كِلامُ سيوفنا كأقسامِ الكلام الثلاثة: هزيماً، وأسيراً، وصريعاً»[١].

وقد يكون ورود هذه المصطلحات في هذا الكتاب مقبولاً وذلك لأن هذا الكتاب يصف العدوّ بأسلوب متهكّم ساخر، فتراه يقول من هذا الكتاب: «وثباتهم أقصرُ من حلّ العقال ، وصبرُهم أسرعُ من الظّل في الانتقال، وخيولُهم لا تطيعُ أمرَ أعنّتِها إلا في الفرار»[٢]. أمّا أن ترد هذه المصطلحات في مواقف تتسم بالجديّة فهذا أمر قد يخلُّ بصدق العاطفة كما يبدو في جواب تهنئة له:

«وردت المشرّفةُ الكريمةُ أتمَّ اللهُ على مرسلِها نعمتَه، وأعلى قدرَه ومنزلتَه، وجعل جناحَ العِدا مخفوضاً، وعيشَه في دعةٍ وخفض، وقدرَه للتمييزِ مرفوعاً وعدوَّه للتقصيرِ في انحطاطٍ وخفض»[٣] فكثرة هذه المصطلحات -مثل: خفض وقد وردت في هذه الفقرة ثلاث مرات، جاءت مرتين بصيغة المصدر، والمرة الثالثة بزنة اسم المفعول «مخفوض» وكذلك مصطلح التمييز و«مرفوع»- يخلّ بصدق العاطفة في الرسالة.

كما تبدو عنده بعض المصطلحات والمعاني الفقهية في قوله من تهنئةٍ بعيد الأضحى يختتمها بالدُّعاء: «وأصارَ الحجَّ إلى بابه غافراً سيئاتِ الإفلاس والإعدام، ومبيحاً لُبسَ المخيط منْ إنعامِه العامّ. ألبَسَه اللهُ من السَّعادةِ أجملَ حُلّة، ومنَحه من المكارمِ أحسنَ خَلّة»[٤]ومن معاتبةٍ للشهاب محمود الحلبي يقول فيها: «....بحيثُ أطفأ الإهمالُ نارَ المساعَفةِ والمساعَدةِ، وانتقلَ توهمُّ عدمِ العنايةِ إلى تيقُّنِ وجودِه بالمشاهدة.

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٥٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٨.

وقد كان يُرْفَعُ قَدْرُهُ فَخُفِض، وعُوِّض في الحالِ عن الرفع بالابتداء، أنّه مفرد ويُنْصَبُ كالنكرةِ في النداء، وأُهمِلَ حتّى صارَ كالحروفِ لا تُسنَدُ ولا يُسنَد إليها، وأُلغِيَ حتّى شابَه «ظننتُ» إذا وقعت متأخرةً عن مفعوليها(١).

وتراه في تضمين هذه المصطلحات النحوية، لا يكتفي بإيرادها، بل يفصّل في ذكر بعض القواعد النحويّة، كما في حديثه عن «ظن» إذا جاءت متأخرةً عن مفعوليها، فإنها تعدّ لاغيةً غير عاملة(٢).

ومن المعاتبة نفسها يورد: «فإنْ كان قدْ عزمَ مولاهُ على طردِه وعوّضه عن مِنْحَةِ القُربِ المحنةَ ببعده، فإنّه يأبى ذلك جودُه ولطفُه، ومعرفةُ يشكر ويزيد لا يمكن صرفُه» والكاتب يقحِمُ هذه المصطلحات فتبدو متكلّفةً، وأشار بقوله: «معرفة يشكر ويزيد لا يمكن صرفه» إلى أنّ هذين العلمين ممنوعان من الصرف(٣).

ومن جواب شفاعة في حق كاتب يقول: «المملوكُ يقبِّل اليدَ الشّريفةَ أداءً للفرضِ اللازم، وشكراً لما أولتْه من الأيادي والمكارِم، وحمداً لألطافِه التي أطمعتْه بالتمييز فأصبحَ يرفعُ قدرَهُ كالجازم(٤)» ويبدو أن المصطلح الأول (التمييز) جاء مقبولاً، فلطف المولى أطمعه بتمييزه وتفضيله على غيره، وجاء المصطلحان الآخران: الرفع والجازم متكلّفين.

ومن رسالةٍ أنشأها في البندق يصف عصابة الطير» ...فتبركنا بذلك الوجهِ الجميلِ، وتداركْنا أوائلَ ذلكَ القبيلِ، فاستقبل أولُنا تمائمَ بدرِه، وعَظُمَ في

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٩٥.

(٢) لإلغاء عمل «ظن» ثلاثة أحوال: حال يجب فيه، وحال يمتنع فيه، وحال يجوز فيه، وللوجوب حالان:الأول: أن يأتي العامل مصدراً مؤخراً مثل : محمد مسافر ظني، والثاني: أن يتقدم المعمول وتقترن به أداة تستوجب التصدير: لزيد قائم ظننت، وأما الحال الذي يمتنع فيه الإلغاء فهو أن يأتي العامل منفياً نحو «زيداً قائماً لم أظن». ويجوز الإلغاء والإعمال فيما عدا ذلك.

العقيلي، بهاء الدين عبدالله بن عقيل(ت٦٧٢هـ) شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١٤، مكتبة السعادة بمصر، ١٩٦٤م ١: ٤٣٥.

(٣) يمنع صرف الاسم إذا كان علماً وهو على وزن يخص الفعل أو يغلب فيه. المصدر السابق نفسه، ٢: ٣٣٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٠٣.

نوعهِ وقدرهِ، كأنّه برقٌ كَرّعَ في غَسَق، أو صبحٌ عُطِفَ على بقيّةِ الدُّجى عَطْفَ النَّسَق(١)» كذلك تبدو هذه الظاهرة في رسالة له إلى شخص تتضمن مخاطبته في تزويج أمه «ولا يعيد ذكرَ ما مضى فإنّه دخل في خبر كان».

عُرفت هذه الظاهرة الفنيةُ عند أدباء وكتّاب كثيرين سبقوا الشهاب محمود الحلبيَ، فقد برزت في أساليب بعض الكتّاب الأندلسيّين مثل ابن خفاجة في رسالة بعث بها إلى أحد إخوانه(٢).

وبرزت هذه الظاهرة في بعض رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر، مثل رسالته التي تتضمن تعزيةً بعث بها عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يخبره بوفاة ابنه علاء الدين علي يقول منها: «ما مِنهمْ إلا مَنْ نُظرَ سعدُهُ ومَنْ سعدُهُ يُنتَظَر، ومنْ يحسُنُ أن يكونَ المبتدأ، وأن يَسدَّ حالُه بكفالتِهِ وكفايتِهِ مَسَدَّ الخبرِ، والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمرُ»(٣).

وبرزت هذه الظاهرة في رسائل ومكاتبات القاضي الفاضل، فمن رسالة كتب بها عن السلطان صلاح الدين الأيّوبيّ يقول منها مشيداً بفضائل السلطان: «... مولى الأمة الذي تشابه يَومُ نَداه وبأسِهِ،إنْ ركض جُوداً أو جَواداً، وواحِدِ الدّهر الذي لا يُثْنّى، وإليه القلوبُ تُثْنى، ولايقبلُ اللهُ جمعاً لا يكونُ لولائِهِ جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير»(٤).

لذا يمكن القول: إن هذه الظاهرة لم تكن من ابتداعات الشهاب الحلبي، وإنّما هي سمة من سمات أدب العصر الفنيّة، بل هي من سمات الطريقة الفاضلية، والتي يرى محمود رزق سليم أنّ الشهاب محمود الحلبي في مقدمة المتعصبين لها (٥).

ويأتي محمود الحلبي ببعض التضمينات في مواقعها المناسبة كقوله من

---

(١) الحلبي حسن التوسل،٣٠٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٣.

(٢) القيسي، أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري، ٣٣٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٣٨٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٦:١٤،٥.

(٥) سليم، عصر سلاطين المماليك، ٧: ١١٧

رسالةٍ في البندق: «وطائِرُها غردٌ، وماؤها مطّرد، وغصنها تارةً يعطِفُه النّسيمُ إليه فينعطف، وتارةً يعتدِلُ تحتَ ورْقائه فتُحْسَبُ أنها همزة على ألف»[١] فقد جاء التضمين وهو قوله «همزة على ألف» صورةً موضحةً لصورة الغصن الذي تعتليه الورقاء عند ما يسكُن النّسيم.

ولم يقتصر الشهاب محمود الحلبي على تضمين رسائله وكتبه بعض مصطلحات اللغة والنحو، بل ضمّنها أيضاً بعض الأمثال، فمن مرسوم له يقول: «وأمّا ما يتعلقُ بهذه الرتبةِ مِن وصايا قد أُلِفَتْ من خلالِه، وعُرفت من كمالِه، فهو ابن بَجْدتِها، وفارسُ نجدتِها، وجُهينَةُ أخبارِها، وحَلْبَةُ غايتِها ومضمارِها، فيفعلُ في ذلكَ كلِّه ما شُكِرَ من سيرتِه، وحُمد من إعلانِه وسريرتِه[٢].

ففي قوله: «وجُهينةُ أخبارها» تضمين للمثل الذي نصّه: «عندَ جُهينةَ الخبرُ اليقينُ»[٣].

وتبدو هذه الظاهرة في قوله من خطبة تقليد: «ونشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، الذي نور شريعته جليّ، وجاه شفاعته مليّ، وبسيفِه وبه حازَ النّصرَ من انتمى إليه، فلا سيفَ إلا ذو الفقارِ ولا فتى إلا علي[٤]» وهنا نلاحظ أنه ضمّن المثل بنصه[٥]. ومن شفاعة بخلاص مسجون يقول: «....بحيثُ سارتْ بحُسنِ سيرتِه الرُكبانُ، ودرأت مكارمَه عن الأولياء نُوَبُ الزمان وعلا على حاتم، فلو تشبُّه بكرمِه لقلنا له مرعى ولا كالسّعدان»[٦] ويبدو التضمين في قوله: «مرعى

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢: ١٢٣-١٢٤.

(٣) الميداني، أبو الفضل محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٥١٨هـ)، الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت- لبنان، مطبعة السنّة المحمّدية، (بدون تاريخ)، ٢: ٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٢٧١.

(٥) يذكر القلقشندي قصة هذا المثل فيرى أنه قيل يوم ضرب عليٌّ كافراً اسمه مَرْحَب فقتله وقتل جواده، ويقال: إنّ ذا الفقار اسم سيف النبي -صلّى اللهُ عليه وسلّم- ولعله أعطاه علياً. القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٣٥٤.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٣٩.

ولا كالسّعدان»[1].

ومن مكاتبة له في توبيخ مهزوم وتقريعه يقول: «... واتّسمَ بينَ أوليائه وأعدائه بسِمَةِ الفرار، وكان يُقال: «النار ولا العار» فجمع له فرارُه من الزّحف بين النّارِ والعارِ»[2].

وبرزت عنده بعض المصطلحات الفقهية مثل قوله «وقَصَرْنا النيّةَ فيه على مصالحِ الأمّةِ التي هِي فَرْضُ العَيْن، بل عَيْنُ الفَرْضِ[3]» وكذلك قوله: «وتستعيدُ عواريَ أرواحِهم مِنْ مستودعاتِ أجسادِهم، فهِيَ بِحُكْمِ العاريّةِ[4].

التنويع بين الشعر والنثر:

من الخصائص الفنية التي تتسم بها رسائل الشهاب محمود الحلبي التنويع بين الشعر والنثر، ولا غرابة أن نجد هذه الظاهرة واضحة في أسلوبه فقد كان ناظماً ناثراً. وتتضح هذه الظاهرة الفنّية في الطرديات ووصف الرحلات وهي واضحة كلّ الوضوح في رسالة أنشاها في صيد البندق وقال عنها: «ومن ذلك رسالةٌ أنشأتُها في البندق تشتمل على أنواع من الأوصاف وفنون من النثر والنظم، يستعين بها الكاتب على مايشاء من إنشاء قدمةٍ في أي نوع أراد من الطير الواجب»[5].

فممّا ذكره وضمّنه رسالتَه من شعر غيره:

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذْ كانت مُدبَرةً   إلا التَّنقُّلُ من حَالٍ إلى حالِ

وقد ذكر هذا البيت ليؤكد المعنى الذي كان بصدده وهو تفضيل الارتحال على الإقامة في الرّحال[6]

---

(١) الميداني، الأمثال، ٢: ١٧٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٢: ٩.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٣.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٣٥٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٨.

ومما ذكره في وصف الروض وقد همّ بخلع حُلّتِه المموّهة بعد أن كادت شمس الأصيل تجود بنفسها.

والطَلُّ في أعْيُنِ النُّوارِ تحْسَبُـه ... دَمْعاً تَحَيَّرَ لم يَرْقاً ولمْ يكِـفِ
كلؤلؤٍ ظلَّ عَطْفُ الغُصْنِ مُتَّشِحاً ... بِعِقْدِهِ وتَبَدّى مِنْهُ في شَنَفِ
يُضَمُّ مِنْ سُندسِ الأوراقِ في صُرَرٍ ... خُضْرٍ ويُجْنى من الأزهارِ في صَدَفِ
والشمسُ في طَفَلِ الإمساءِ تنظرُ مِـنْ ... طَرْفٍ غدًا وهو مِنْ خوفِ الفِراقِ خفي[1]

وقد جاء بهذه الأبيات ليؤكّد ويفصّل الفكرة التي ساقها، وهي وصف النَّوْر والروض بعد أن همّت الشمس بالغروب.

ومن الأبيات التي ضمنّها رسالته هذه واصفاً الليل ونجومه قوله:

وَلاَحَتْ نُجُومُ الّليلِ زُهْراً كأنَّها ... عُقُودٌ عَلى خَوْدٍ مِنَ الزَّنْجِ تُنْظَمُ
مُحلِّقةً في الجوِّ تُحْسَبُ أنَّها ... طُيورٌ على نَهرِ المجَرَّةِ حُوَّمُ
إذا لاحَ بازي الصُّبحِ ولّتْ يَؤُمُّها ... إلى الغَرْبِ خَوفاً مِنْهُ نَسرٌ ومِرزَمُ[2]

وفي وصف الغصون قال:« وغصنُها تارةً يعطِفُهُ النَّسيمُ إليه فينعطف وتارةً يعتدلُ تحتَ ورقائه فتُحْسَبُ أنَّها همزةٌ على ألف معَ ما في تلكَ الرياضِ من توافقِ المحاسنِ وتبايُنِ الترتيبِ، وبعد هذا الوصف يضمّن الأبيات التالية:

فكأنّما تِلكَ الغُصونُ إذا ثَنَـتْ ... أعْطافَها رُسُلُ الصَّبا أحْبابُ
فَلَها إذا افترقتْ مِنَ استعطافِها ... صُلْحٌ ومِنْ سَجْعِ الحَمامِ عِتابُ
وكأنَّها حَوْلَ العُيونِ مَوائِساً ... شَرْبٌ وهاتِيكَ المياهُ شَرابُ[3]

وفي وصف السَّرْوِ والنهر قال:

والسَّرْوُ مثلُ عرائسٍ ... لُفَّت عَليهِنَّ المُلاءُ
شمَّرْنَ فَضلَ الأُزْرِ عَنْ ... سُوقٍ خَلاخِلُهُنَّ مـاءُ
والنَّهر كالمِرآةِ تُبْـ ... صِرُ وجهَها فيه السَّماءُ[4]

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٩.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٩.
(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٠.
(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٧

وفي وصف صحبه قال:

مِنْ كلِّ أبلجَ كالنَّسيمِ لَطافَةً ... عَفُّ الضَّميرِ مُهَذَّبِ الأخـــلاقِ
مِثْلِ البُدورِ مَلاحَةً وكَعُمْرِها ... عَدداً ومِثْلِ الشَّمسِ في الإشراقِ(١)

وتأتي غالباً هذه التضمينات للوصف، فتراه بعد أن بسط الفكرة نثراً يلجأ إلى التأكيد والوصف، فيقول:

كأنَّهُم في يُمْنِ أفعالِهِـم ... في نَظَرِ المُنْصِفِ والجاحِدِ
قَدْ وُلِدوا في طالِعٍ واحِدٍ ... وأشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعٍ واحِدِ(٢).

وهكذا يواصل تضميناته إلى نهاية الرسالة حيث يقول: «وأصبحنا مُثْنِينَ على مُقامِنا، ومُنْثنينَ بالظَّفرِ إلى مستقَرِّنا ومُقامِنا، داعين للمولى جَهْدَنا مُذعِنين له قَبِلَنا أوْ ردَّنا، حاملين ماصرعْنا إلى بين يديْهِ، عاملين إلى التَّشرُّفِ بخدمتِهِ والانتماءِ إليه(٣).

وبعد هذا المعنى الذي يخاطب فيه الكاتب المولى، ويدعوه لقبول ما أحضروا في رحلتهم، يتلطف إليه ببيتين من الشعر، يجمل فيهما المعنى، ويثني فيهما على أخلاق المولى:

فأنتَ الذي لَمْ يُلْفَ مَنْ لا يـودُّهُ ... ويُدْعى لَهُ في السِّرِّ أو يُدْعى لَـه
فإنْ كانَ رَمْيٌ أنتَ تُوضِحُ طُرْقَهُ ... وإنْ كانَ جَيْشٌ أنتَ تَحْمي رعيلَه(٤)

وقد أفاد هذان البيتان معنى جديداً، وهو الإشادة بالمولى وبقدراته في الرمي وفي المعارك.

ومما يميِّز تضمينات الشهاب الحلبي في رسالته هذه أنها جاءت ملائمة لسياق الرسالة، ومنسجمة مع الفكرة السابقة واللاحقة، فلم تكن هذه التضمينات نابية، وإنما يشعر قارئ الرسالة أن أفكارها جاءت مترابطة.

ولم تكن هذه الظاهرة حكراً على هذا النوع من الرسائل، بل هي واضحة

(١) المصدر السابق، ٣٥٧، القلقشندي، صبح الأعشى،١٤: ٣٣١.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٩، القلقشندي، صبح الأعشى،١٤: ٣٣٢.
(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٧، القلقشندي، صبح الأعشى،١٤: ٣٤٠.
(٤) الحلبي، حسن التوسل، ٣٦٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٤٠.

كذلك في الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان.

فقد اختتم الشهاب محمود الحلبي رسالة له في هذا المقام ببيت من الشعر قال فيه:

وكلُّ خيرٍ توخّاني الزّمانُ به   فأنتَ باعِثُه لي أو مُسَبّبُه[1]

وقد جاء هذا البيت بعد أن أشاد الكاتب بكثرة إنعام المولى عليه، وتمييزه على كثير من مماليك بيته العالي وتفضيله. لهذا فقد ركز المعنى وأجمله في هذا البيت، وجاء منسجماً مع المعنى السابق.

والظاهرة واضحة في رسائل التهنئة، فيضمّن تهنئة له بقدوم من سفر بيتاً من الشعر للمتنبّي:

أنا مِنْ جَميعِ النّاسِ أطيبُ مَنزِلاً   وأسرُّ راحِلَةً وأربَحُ مَتْجَرا[2]

وقد مهّد لهذا البيت بتمهيد مناسب بعد الدعاء للمهنأ بقوله: «فاللهُ يمنحُ المولى أطيبَ المنازلِ وأسرَّ الرّواحل، ويجعلُ تجارةَ مجدِه رابحةً، وأوامرَ دوام عزّه لائحة، حتى تُنشدَ نفسُه الكريمةُ قولَ أبي الطيّب»[3] وهذا يدل على أنه كان يأتي بتضميناته في المكان المناسب، وكذلك تتضح هذه الظاهرة في التهنئة بالأعياد والمواسم ومن ذلك قوله :

تهنَّ فأيّامُ السُّرورِ أواهِلُ   وكلُّ مَخوفٍ عَنْ جنابِكَ راحِلُ

ونَجْمُكَ من فَوْقِ الكواكِبِ طالِعٌ   ونَجْمُ امرئٍ يَشْنا سُمُوّكَ آفِلُ

الا أيُّها المولى الذي عَمَّ جودُه   فَدَتْك العَوالي والجِيادُ الصَّواهِلُ

تمتَّعْ بعيدِ النَّحرِ وافاكَ خاضِعاً   يُحقِّقُ من دُنياكَ ما أنتَ آهِلُ

ودُمْ كابِتَ الأعداءِ وابْقَ مُخَلَّداً   عَلى المالِ عالٍ بالرَّعيَّةِ عادِلُ

لقدْ راقَ مَدْحي في مَعاليكَ مِثْلَما   صَفَتْ مِنْكَ أوصافٌ ورَقَّتْ شَمائلُ[4]

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٢.

(٢) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين(ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) ديوانه، المكتبة الثقافية، بيروت، (بدون تاريخ)، ١:٥٢٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٩-٤٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٧-٤٨.

جاء هذا التضمين في بداية الرسالة وهو أسهل من مجيئه في ثنايا الرسالة، لأن مجيئه في البداية لا يحتاج فيه الكاتب إلى أن يربطه بمعنى سبق، وقد جاء بعده فقرة دعائية للمهنّى قال فيها: «جعله اللهُ أبركَ الأعيادِ وأسعدَها، وأيمنَ الأيامِ وأمجدَها، وأجملَ الأوقاتِ وألذَّها وأرغدَها، ولا بَرِحَ مسروراً مُستَبْشِراً، منصوراً على الأعداءِ مقتدِراً، مسعوداً ، محموداً معاناً بملائكةِ السماءِ معضوداً، مهناً بالسُّعود الجديدةِ، والجدودِ السعيدةِ والقوّةِ والناصرِ، والعُمُرِ الطويلِ الوافرِ»[1].

ثم ضمّن بعد هذه الفقرة بيتين من الشعر:

ولا زالتِ الأعيادُ لِبْسَكَ بَعْدَهُ فَتَخْلَعُ مَخْروقاً وتُعْطَى مُجَدَّدا

فذا اليومُ في الأيّامِ مثلُكَ في الوَرى كَما كُنتَ فيهم أوْحَداً كانَ أوحَدا

ثم واصل دعاءَه قائلاً: «وأعادَه على المولى في صِحّةٍ دائمةٍ وسلامةٍ مُلازِمة...الخ»[2].

ويلاحظ أن التضمين جاء مترابطاً مع ما قبله وما بعده، فقد سبقه دعاء للمُهنّأ، وأعقبه دعاء للمهنأ، وجاء التضمين نفسُه مشتملاً على دعاء، وهذا يؤكد أن تضمينات الكاتب تأتي منسجمة مع الموضوع، وتبدو هذه الظاهرة واضحة في التهنئة بالبنين فقد ضمّن تهنئة له أبياتاً شعرية من نظمه:

هُنِّئت بالإسعافِ والإسعادِ ونفاذِ أمرٍ في العدا بنفادِ

وبقِيتَ ما بقِي الزّمانُ مهنّأ ووُقيتَ شرَّ شماتةِ الحُسّادِ

يامالكَ الرِّقِّ الذي أضحى لنا مِنْ جُودِهِ الأطواقُ في الأجيادِ

خُلِّدتَ في عَيشٍ هنيٍّ أخضَرٍ يَسطو ببيضٍ ظُباً وسُمْرٍ صِعادِ

حتّى يُخاطِبَك الزّمانُ مُبشِّراً مُتِّعتَ بالإخوان والأولادِ

جاءت هذه الأبيات في بداية الرسالة، وقد تلتها فقرة دُعائية: «جدّد الله

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٨.

في كل يوم له مسرةً وبشرى..»[١]، فبدت الأبيات ملائمة لموضوع الرسالة.

وتظهر سمة التنويع بين الشعر والنثر عنده في رسائل التهنئة بقرب المزار[٢] وتظهر أيضاً في رسائل التعزية بالابن، وأحياناً يأتي التضمين فيها بعد الدخول في موضوع التعزية[٣]، وأحياناً أخرى يأتي في بداية الرسالة[٤].

وقد يأتي التضمين في أكثر من موقع في الرسالة كما هو في تعزية له بابن، وتراه يأتي بالتضمين بعد تمهيد له، ويكون التضمين مؤكداً ومجملاً للمعنى الذي ساقه، كما هو في تضمينه الوارد في رسالة تعزية بابن:

والموتُ نقّاد على كفِّه　　　جواهرٌ يختارُ منها الجِياد

فقد جاء به بعد هذه الفقرة: «فيا لها نازلةً فَجَعَتْ بغُصنٍ رَطيب، وقَمَرٍ يرفُلُ مِنَ الشَّبيبَةِ في ثوبٍ قَشيب، وصَدعت القُلوبَ بفقْدِ حبيبٍ وأيِّ حبيب»[٥].

وقد يأتي التضمين لتوضيح معنى ساقه، وهذا واضح في:

تَخونُ المنايا عهْدَه في سليلِه　　　وتنصرُه بينَ الفَوارسِ والرَّجْلِ

وقد جاء به بعد قوله: «ووا أسفاهُ على مسافرٍ لا يُنتظَرُ له قُدومٌ ولا إياب، وواعَجَباه لضِدَّين، اجتمعا لوالده الكريمِ الجنابِ[٦]، فلم يتضح معنى الضدين إلا من خلال التضمين.

وتبدو هذه الظاهرة في تعزية له بزوجة فبعد أن تحدث عن عظيم حزنه بفقدها قال:

ولوْ كانَ النِّساءُ كمَنْ فَقَدْنا　　　لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلى الرِّجالِ[٧]

وتبدو هذه الظاهرة الفنّية في رسائل الشفاعات، ففي شفاعة له في استخدام كاتب درج بعد مقدمة دعائية يقول:

(١)　المصدر السابق، ٩: ٦٠.

(٢)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٧٢.

(٣)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٥.

(٤)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٥.

(٥)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٦.

(٦)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٦.

(٧)　المصدر السابق نفسه، ٩: ٩٤.

وهذا دُعاءٌ لو سكَتُّ كُفيتُهُ   فإنّي سألتُ اللهَ فيكَ وقدْ فعَلْ[١]

وفي شفاعة له بسببِ خلاص حقٍّ يورد التضمين التالي:

ولوْ كانَ لي في حاجَتي ألفُ شافعٍ   لما كانَ فيهِم مِثلُ جودِكَ شافعُ[٢]

وقد جاء التضمين خاتمة للرسالة.

وقد يأتي التضمين عنده بصدر بيت دون أن يذكر عجزه، وهذا واضح في معاتبة له، وقد ضمّنها قولَ أبي تمام: «ما في وُقوفِكَ ساعةً مِنْ باسٍ»[٣]

ويضمن هذه المعاتبة بيتاً من الشعر للمتنبي:

وعينُ الرِّضا عنْ كلِّ عيبٍ كليلَةٌ   كما أنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المَساويا[٤]

وقد جاء بعد هذه الفقرة: «فكانَ المملوكُ يُستَحْسَنُ في حِبرِه وسِبرِه ويُعوِّض عن مقابلتِه بجبره، فقدْ صارَ سمينُه غثّاً وشحمُه وَرَماً وحديثه رثّاً وسهلُه عَلَماً»[٥]

وقد جاء التضمين معبِّراً عن الحال التي آل إليها مع صديقه.

وتبدو هذه السِّمة الفنيّة في أجوبة رقاع العتاب فمن جواب عتاب له بعد أن برّأ صديقَه من الجفاء حين وقف على كتابه وفهمه يقول:

أنتَ البريءُ من الإساءةِ كلِّها   ولكَ الرِّضا وأنا المُسيءُ المذْنِبُ[٦]

وبعد أن رجاه أن يصفح عن زلته ويعفو عن ذنبه قال:

فأنتَ الذي تُرجى لتَخْفيفِ زلَّتي   وتحقيقِ آمالي ونَيْلِ مآربي

وقُربُكَ مقْصودي وبابُكَ كَعْبَتي   ورُؤياكَ ياسُؤْلي أعزُّ مَطالِبي[٧]

وقد جاء هذا التضمين خاتمة للرسالة.

وفي جواب شفاعة يضمّن هذا البيت مفتتحاً به الرسالة:

(١) المصدر السابق، ٩: ١٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٤٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٩: ١٩٦.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠١.

(٧) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢٠١.

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّني لَكَ طائِعٌ ... ما أنْتَ عِندي شافِعٌ بَلْ آمِرُ[1]

وتبدو هذه الظاهرة في أجوبة كتب العيادة، ففي جواب له يضمّن الأبيات التالية وقد جاءت في بداية الرسالة:

وردَ الكِتابُ فعمَّتِ الأفـــراحُ ... وأضاءَ في لَيْلِ الأسَا الإصْبَـاحُ

وافْتَرَّ ثَغْرٌ للزَّمانِ بفرْحــةٍ ... ولِلَفْظِهِ طَرِبَتْ رُبَى وبِطـــاحُ

وسَقَى سُلافَ فَصاحةٍ وبَلاغةٍ ... مَاالمِسْكُ عِندَ شَميمِها مَا الرَّاحُ[2]

وتبدو هذه الظاهرة في أغلب الرسائل الإخوانية وشبه الرسمية، وفي الطرديات إلا أنّ الرسائل الديوانية تكاد تخلو منها هذه الظاهرة، ويرى القيسي أن هذه الرسائل لا تحتاج الشعر كثيراً[3] وقد يكون ظهورها في الرسائل الإخوانية بسبب أن الكاتب فيها مطلق العنان غير مقيد بقيود كثيرة كما هو الحال في الرسائل الديوانية، وهذه السمة الفنية وهي التنويع بين الشعر والنثر في الرسالة لم يحظ بها إلا الكتّاب المبدعون كما أشار إلى ذلك الكلاعي بقوله: «وكان المُجيدُ منهم كثيراً ما يضمِّن رسائلَه أشعارَه وأشعارَ غيرِه»[4].

وقد جاء تضمين الشعر عند الشهاب محمود الحلبي على نوعين:

النوع الأول: وهو الغالب: أنّه يضمِّن رسائله أبياتاً من الشعر من نظمه.

والنوع الثاني وهو الأقل: أنه يضمن رسائله أبياتاً لغيره ويتمثل بها، وغالباً ما تكون لأبي تمام والمتنبي.

ولم يكتف الشهاب محمود الحلبي بالتنويع بين الشعر والنثر في رسائله بل عمد إلى حل معقود الشعر وإدخاله في منثوره، ويكون الحل بأن يعمد الكاتب إلى الأبيات فيحلها من عُقل الشعر، ويسكبها في كلامه المنثور[5] وأشار إلى ذلك

---

(١) المصدر السابق، ٩: ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٢١٥.

(٣) القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ٣٢٣

(٤) المرجع السابق نفسه، ٣٢٢، نقلاً عن الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، ٧١.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٣٢٩.

بقوله: «وكيفيةُ الحلِّ أن تتوخّى هدم البيت المنظوم وحل فرائده من سلكه، ثمّ ترتب تلك الفرائد وما شابهها ترتيب متمكن لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالب، وأصحّ سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويتخيّرُ لها القرائن، وإذا تمّ معه المعنى المحلول في قرينة واحدة فيفرّمُ له من حاصلِ فكره، ومن ذخيرةِ حفظِهِ ما يناسبُه»(١). وقد ينقل المعنى إلى أيِّ معنى شاء، شريطة ألاّ يفسده، فقد ينقل النسيب إلى المديح، وقد يكون الحل بالمعنى، وهنا يشترط الشهاب محمود الحلبي أن تكون الألفاظ مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنه(٢).

وقد حلّ الكاتب بيتاً لابن الرومي في وصف الحديث:

وحديثُها السِّحر الحلالُ لَوَ انَّهُ لمْ يجْنِ قَتْلَ المُسلمِ المتَحَرِّزِ

ونقله إلى وصف السيوف فقال: «وكفى السيوفَ فخراً أنّها للجنّةِ ظلالٌ وإلى النصر مآلٌ، وإذا كان من بيان الحديث سحرٌ فإنّ بيانَ حديثِها عمّن كلمته هو السِّحرُ الحلالُ» ثم نقله إلى وصف الأسنة فقال: «حسْبُ الْسِنَةِ الأسِنَّةِ شرَفاً أنّ كشفَ خبايا القلوبِ يُذمّ إلا منها، وأنّ بثّ أسرارِ الضّمائرِ تُكرَه روايتُه إلا عَنها، فمكرّرُ حديثِها في ذلك لا يُفْضي إلى مَلال وإذا لم يكنْ حسنُ حديثِها الذي يسحرُ الألبابَ مما يحلّ فليس في الحديثِ سحرٌ حلال، ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال: «البلاغةُ تسحرُ الألبابَ حتى تُحيلَ العرضَ جوهراً، وتحيل الهواءَ المدركَ بالسَّمعِ لانسجامِهِ وعذوبتِهِ في الذوق نهْراً، لكنه سحرٌ لم يجنِ قتْلَ المسلمِ المتحرِّز فيتأوّلُ في حِلِّه، وإذا كانَ من الحديثِ ما هو عُقْلَة للمستوفز فهذا أنشوطةُ نشاطِ البليغِ وحلُّ عقالِ عقلِه».

ونقله إلى وصف الكتابة فقال: «خطُّه شركُ العقولِ، وفتنةٌ تُشغِلُ المطمئنّ بمَلاحةِ المرئيّ المكتوب عن فصاحة المسموعِ المقول، ولو لم يكن البيانُ سحراً لما تجسّدت منه في طرسه هذه الدرر، ولو لم يكن بعض السِّحر حلالاً لما

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٥-٣٢٦، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧: ١٨٣.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٦.

انجلى ظلامُ النفس عمّا يُهتَدَى به من هذه الأوضاح والغُرَر»[1].

ويحذّر الشهاب محمود الحلبي من الاعتماد كلياً على الحلّ مخافةَ أن يتكئ الكاتب على ذلك، ويذهب رونقُ الطّبع»[2]. وقد لا يروق هذا الأسلوب لبعض الدارسين والنقاد العرب المعاصرين فتجد محمد غنيمي هلال يعيبُ على النقاد العرب القُدامى أنهم لم يوصوا بشيء يُعتدُّ به فيما يتعلق بالصدق الفني، أي أصالة الكاتب في تعبيره ورجوعه فيه إلى ذات نفسه، لا إلى العبارات التقليدية المحفوظة، وهذا الصدق الفني أو الأصالة هي أساس تقدم الفنون جميعاً، وتراه يَعيب على ابن طباطبا، ويرى أنه يلقّن الكُتّاب والشعراء كيف يسطون على معاني غيرهم[3] في قوله: «ويحتاج من سلك هذا السبيل (سبيل سرقة المعاني وصياغتها) إلى إلطاف الحيلة.. حتى تخفى على نقّادها والبصراء بها.. فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد المعنى لطيفاً في تشبيبٍ أو غزل استعمله في المديح، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف ناقةٍ أو فرسٍ استعمله في وصف الإنسان، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة، وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان أخفى وأحسن[4].

ومن هنا يتضح أن محمد غنيمي هلال يعارض أسلوب الحلّ ويعده سرقة وقد عبّر عن ذلك بقوله: «يلقن الكتّاب كيف يسطون على معاني غيرهم»، وقد جاء ابن طباطبا بهذا القول في صدد الحديث عن سرقة المعاني وصياغتها، إلا أن ابن رشيق القيرواني يرى غير ذلك فهو يعد أجلّ السرقات نظم النثر وحلّ

---

(١) المصدر السابق، ٣٢٨-٣٢٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٣٣٦.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٦.

(٣) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، بدون تاريخ، ٢١٤.

(٤) ابن طباطبا، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة ١٩٥٦م، ٧٧-٧٨.

الشعر، وأورد بعضاً منه في كتابه، ويرى أن ما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الحذاق[١].

وتبدو ظاهرة حلّ معقود الشعر عند الشهاب محمود الحلبي في رسالته المشهورة في صيد البندق، ففي وصف الليل يقول: «ونهضْنا وبُرْدُ الليلِ موشّعٌ وعِقدُه مرصّعٌ وإكليلُه مُجَوْهَرٌ، وأديمُه مُعنبَرٌ، وبَدْرُه في خِدرِ سِرارِه مستكنٌ وفجرُه في حَشا مطالِعِه مستجِنٌ، كأنَّ امتزاجَ لونِه بشَفَقِ الكواكِبِ خليطا مِسكٍ وصندلٍ، وكأنَّ ثرَيّاه لامتدادِه معلّقةٌ بأمراسِ كِتّان إلى صُمِّ جَندَلِ»[٢].

ففي الفقرة السابقة تلمح أن الكاتب عمد إلى حل بيت امرئ القيس:

كأنّ الثُّريا عُلِّقتْ في مَصامِها ..... بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَندلِ[٣]

ومن الرسالة نفسها يقول: «... وإذا بِهِ قدْ أظلّتهُ عُقابٌ كاسِرٌ، كأنّما أضلّتْ صيداً أفلت من المناسر، إنْ حطّتْ فسحابٌ انكشف وإنْ أقامَتْ فكأنّ قلوبَ الطّيرِ رَطْباً ويابِساً لدى وكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ، بعيدةُ ما بينَ المناكِب»[٤]

وهنا أيضاً عمد الكاتب إلى حل بيت إمرئ القيس:

كأنّ قُلُوبَ الطّير رَطْباً ويابِساً ..... لدى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالي[٥]

وقد ضمّن هذه الرسالة بيتاً من الشعر:

إذا أقْلَعتْ لَجّت عُلُوّاً كأنّما ..... تُحاوِل ثأراً عندَ بعضِ الكواكِبِ[٦]

وهو مأخوذ من قول أبي تمام:

مكارمُ لجّتْ في عُلُوٍّ كأنّها ..... تُحاول ثأراً عندَ بعضِ الكواكِبِ[٧]

ومن تقليدٍ بكفالة السلطنة بالشام يقول: «وقَبضةُ بأسِنا آخذةٌ من أعداء

---

(١) ابن رشيق، العمدة، ٢: ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٩.

(٣) امرؤ القيس، ديوانه، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ١٩٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٧.

(٥) امرؤ القيس، ديوانه، ١٤٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٧.

(٧) أبو تمام، ديوانه، تحقيق الصولي: خلف رشيد نعمان، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، ١: ٢٨٣.

الدين بالذُّرا والقَوارِبِ، وطليعةُ كتائِبِنا مؤتمَّةٌ بمن تُوقِنُ الطيرُ أنّ فريقَه إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالِبٍ(١).

وهنا عمد الكاتب إلى حل بيت النابغة:

جَوَانحُ قَدْ أيقَنَّ أنّ قبيلَهُ إذا ما التقى الجَمعانِ أوّلُ غالِبِ(٢)

ومن كتاب أنشأه الشهاب محمود الحلبي في وصف الخيل يقول: «ومن كُمَيْتٍ نَهْدٍ كأنّ راكبَه في مَهدٍ، عَنْدَميّ الإهاب شماليّ الذّهاب يزلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِه، وكأنّ نغَمَ الغَريضِ ومعبد في لهواته، قصيرِ المَطا، فَسيحِ الخُطا، إنْ ركبَ لصيْدٍ قيّدَ الأوابدَ»(٣).

وهنا عمد الكاتب إلى حل بيت شعر لامرئ القيس:

وَقَد أغْتدي والطيرُ في وُكُناتِها بمنجَردٍ قيد الأوابدِ هيْكَلِ(٤)

ومن الكتاب نفسه: «... له من البرقِ خِفّةُ وطيْه وخَطْفِه، ومن النَّسيمِ لينُ طُروقِه ولُطفِه، ومن الرّيحِ هَزيزُها إذا ما جَرى شأوَيْن وابتلّ عِطفُه»(٥).

وهنا عمد إلى حلّ بيت امرئ القيس:

إذا ما جَرى شأوَيْنِ وابتلّ عِطفُهُ تَقولُ هَزيزُ الرّيحِ مَرّتْ بأثْأبِ(٦)

ومن الكتاب نفسه يقول: «يظُنُّ مَنْ نظرَ إلى سوادِ طُرّتِه وبياضِ حُجولِه وغُرّتِه أنّه توهّمَ النّهارَ نهراً فخاضَهُ، وألقى بينَ عينيْهِ نُقطةً من رَشَاشِ تلكَ المخاضَةِ، ليِّن الأعطافِ، سَريعُ الانعطافِ يُقبِل كاللّيْلِ ويمرُّ كجُلمودِ صخرٍ حطّه السَّيْلُ»(٧).

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣:١٢.

(٢) النابغة، ديوانه، شرح محمد إبراهيم بن محمد الحضرميّ (ت٦٠٩هـ)، تحقيق: علي الهروط، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٢٠.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٥.

(٤) امرؤ القيس، ديوانه، ١١٨، الزوزني، الإمام أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلّقات السّبع، ط١، بيروت، ١٩٧٢م، ٤٣.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٥.

(٦) امرؤ القيس، ديوانه، ١١٩.

(٧) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٤.

وتلاحظ هنا أنه عمد إلى حلّ بيت امرئ القيس:

مِكَرٌّ مِفَرٌّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً كجُلمودِ صخرٍ حطّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ[1]

وهو يحسن التضمين فتراه يضمّن كتابَه في وصف الخيل بيتاً لامرئ القيس بعد أن مهّد له بقوله: «فَظَلَلْنا بينَ قديرٍ مُعجِّل أو قديدٍ مؤجّل نمشُّ بأعرافِ الجيادِ كُفوفَنا، ونَقْري من صوافّ الطير وأصنافِ الوحشِ ضيوفَنا، وبِتْنا بين صيدٍ تحصّل وآخَر يترَقّبُ وغَدَوْنا:

كأنّ عيونَ الوحشِ حَوْلَ خِبائِنا وأرْحُلُنا الجَزْعُ الذي لَمْ يُثَقَّبِ[2] »[3]

ومن كتاب أنشأه في ذمّ المهزوم يقول: «... وخلّى لهُمْ خَزائنَ سلاحِهِ التي أعدَّها لقتالِهم، فأضْحَتْ مُعدّةً لقتالِهِ، فنجا مَنْجَى الحارث بن هشام، وهنا عمد إلى حلّ بيت حسّان بن ثابت الذي يقول فيه:

«إنْ كُنْتِ كاذِبَةَ الذي حَدَّثْتني فنَجَوْتِ مَنْجَى الحارِثِ بنِ هِشامِ[4] »[5]

الخيال والصور البيانية

من الأدوات التي اعتمد عليها الشهاب محمود الحلبي في أسلوبه لكي يكون جميلاً مؤثراً، ومعانيه واضحة: الخيال والصور البيانية، والخيال مرتكزٌ أساسيٌ من مرتكزات الشهاب محمود الحلبي، بل إن قسماً من رسائله قام على الخيال وهو ما سمّي بالخواطر التأمُّليّة، وذكر عنها وقال: «... والكتب التي تُعملُ رياضةً للخاطر فيما يقلّ وقوعُه لاحتمال أنْ يقَعَ، أو فيما تُمْتَحَنُ به قوّة القريحةِ ويُعتَبَرُ به تصرّف الفطنةِ ويُسبَرُ بِهِ غَوْرُ الذّهن، ويُعلَمُ بِهِ استعدادُ الفكرِ، فإنَّ الكاتبَ في ذلك الأمر مُطلَقُ العَنان»[6].

(١) امرؤ القيس، ديوانه، ١١٩، الزوزني، شرح المعلّقات السّبع، ٤٤.

(٢) امرؤ القيس، ديوانه، ٣٧.

(٣) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٨-٣٤٩.

(٤) ثابت، حسان، ديوانه، شرح عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦/١٩٨٦م، ٢١٤.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٢٨٨.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٣٨٢.

إن هذه الموضوعات هي من وحي خيال الكاتب تصوّرها، أو توقع حصولها، ومن ذلك رسالته التي كتبها إلى شخص تخيله، تتضمّن مخاطبته في تزويج أمّه[١].

ومن رسائله التي اعتمد الكاتب فيها على الخيال كتابه في وصف قائد الجيش المهزوم، الذي يتضمن إقامة عذره، ووصف اجتهاده، وفيه يحثه على مقاتلة عدوّه[٢].

ومن الرسائل التي هي من وحي خياله رسالة أنشأها في ذم مهزوم وتقريعه، والتهكم به وبجيشه[٣] وهذه الموضوعات سبق وأن بُحِثَتْ في الحديث عن أغراض رسائله.

وقد اعتمد الشهاب محمود الحلبي على الصور البيانيّة من تشابيه واستعارات وكنايات للتعبير عن المعاني، وأكثر ما تبرز هذه الصور البيانية في رسائل الطرديات، ومنها رسالته في صيد البندق، فمن التشابيه الواردة في هذه الرسالة قوله: «فلبِثْنا بعدَ أداءِ الفرضِ لَبْثَ الأهِلّة»[٤] وهو تشبيه بليغ، ومنها أيضاً قوله: «كأنَّ امتزاجَ لونِه بشفَقِ الكواكبِ خليطا مِسكٍ وصَنْدَل وكأنَّ ثُرَيّاهُ وامْتِدادَه معلّقةٌ بأمْراسِ كِتّانٍ إلى صمِّ جَنْدَلٍ» ويلاحظ أن مصدر هذه الصورة البيانيّة هو التراث الأدبيّ القديم، ومن الصور البيانيّة ما كان مصدره الطبيعة أو البيئة الشاميّة المصريّة ببحارها وأنهارها وسهولها وأشجارها وبساتينها وطيورها وحدائقها، ومن ذلك قوله: «....إلى حدائقَ مُلْتفّةٍ، وجداولَ مُحتفّةٍ، إذا خمشَ النّسيمُ غُصونَها اعتَنَقَتْ اعتناقَ الأحبابِ، وإذا فركَ مَرُّ المياهِ مُتونَها انسابت في الجداول انسيابَ الحُبَاب، ورقَصَت في المناهلِ رَقْصَ الحِبابِ، وإنْ لثَمَ ثُغورَ نَوْرِها حيّتْه بأنفاسِ المَعْشوقِ، وإنْ أيقظَ نواعسَ وُرْقِها غنَّتْهُ بألحانِ المَشوقِ، فنسيمها وانٍ، وشَميمُها لعَرْفِ الجِنان عُنوان، ووَرْدُها من سهَرٍ

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٦٤-١٦٦.
(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٨٥ – ٣٨٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٨٧-٣٨٩.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٢٩، الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٥.

نرْجِسِها غَيْران»[1]. فهذه الفقرة حافلة بالصور البيانيّة فهذه الحدائق بأشجارها وجداولها والنسيم يداعب غصونها ورائحة الأزهار والورود تشبه أنفاس المعشوق وحفيف أوراقها ألحان موسيقيّة.

وفي حديثه عن القِسيّ يورد صوراً بيانيّة جميلةً، فقد شبّه القِسيّ بالغصون في لطافتها ولينها، وشبهها بالأهلة في نحافتها وتكوينها، وشبهها بالأزاهر في ترافتها وتلوينها[2]وهذه التشابيه مستمدة من البيئة الشامية المصرية الجميلة.

ومن الصور التي استمدها من التراث قوله: «فَبَدَرَهُ السّادسُ قبلَ ارتفاعِه، وأعانَ قوسَه بامتدادِ باعِهِ فخرَّ على الآلاء كبِسطامِ بنِ قَيْس» ومن الصور التراثية أيضاً قوله: «فعنَّ له نَسْرٌ ذو قوائمَ شِدادٍ ومَناسِرَ حِدادٍ كأنَّه من نُسورِ لُقمانَ بنِ عاد تحْسَبُه في السَّماء ثالثَ أخوَيْه».

وصوره البيانية متعددة منها ما يعتمد على اللون، ومنها ما يعتمد على الحركة، فمن الصور اللونية قوله: «وأتْبَعَهُ عِنازٌ أصبحَ في اللَّوْنِ ضِدَّه، وفي الشكْلِ نِدَّه، كأنَّه ليلٌ ضمَّ الصُّبحَ إلى صَدْرِه، أو انطوى على هالةِ بدرِه»

تَراهُ في الجَوِّ عندَ الصُّبحِ حين بَدا ... مُسْوَدَّ أجنحةٍ مُبْيَضَّ حَيْــزُومِ
كأنه حَبَشِيٌّ عامَ في نَهَــــــرٍ ... وضمَّ في صَدْرِهِ طِفْلاً مِنَ الرّومِ[3]

وقد حوت هذه الصورة البيانية عدّة ألوان، فالعناز له لونان، فهو من الأمام أبيض، ومن الخلف أسود، وشبهه بالليل الذي ضمّ الصُّبحَ إلى صدره ثم عاد وشبّهه بالحبشيّ الذي ضمّ طفلاً رومياً إلى صدره.

ومن الصور التي تعتمد على الحركة قوله: «..... وقارَنَتْه إوَزَّةٌ حَلْباء دُكناء، وحُلّتُها حَسْناء، لها في الفضاءِ مجال، وعلى طيرانِها خِفّةٌ ذواتِ التبرُّجِ وخَفَرُ ربّاتِ الحِجال، كأنما عبثَتْ في ذَهَب، أو خاضتْ في لَهَب، تختالُ في مِشيَتِها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣٠، الحلبي، حسن التوسل،٣٥٦.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٤: ٣٣١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١٤: ٣٤٠.

كالكاعِب، وتتأنّى في خَطْوِها كاللاعب، وتعطِفُ بجيدِها كالظَّبْيِ الغَرِيرِ، وتتدافعُ في سَيْرِها مَشْيَ القطاةِ إلى الغديرِ»(١).

فهذه الصور البيانية تعتمد على الحركة فالإوزّةُ تشبه في طيرانها خفّةَ ذوات التبرج، وخفرَ ربّات الحجال.

وهي في مشيتها كالكاعب، وفي سيرها تشبه مشي القطاة إلى الغدير، وتراه يعتمد على التشخيص أو تعقيل مالا يَعقل ومن ذلك قوله في وصف الشمس من الرسالة السابقة: «فبرزْنا وشمسُ الأصيلِ تجَودُ بنفسِها وتسيرُ من الأفُقِ الغربيِّ إلى موضعِ رَمْسِها، وتغازلُ عيونَ النَّوْرِ بمقلةِ أرمد، وتنظر إلى صفَحاتِ الوَردِ نظرَ المريضِ إلى وُجوهِ العُوَّدِ»(٢).

ويظهر التشخيص في قوله من نسخة تقليدٍ أنشأه في الفتوّة: «.... من سَمَتْ منابرُ المجدِ بذكرِه، وابتسمتْ أسرَّةُ الحمدِ بشكرِ أوصافِه، ووصْفِ شكرِه، واختالَتْ موادُّ الثَّناءِ بِحُسنِ خِلالِه»(٣).

ولم يعتمد في الصور البيانية المستمدة من البيئة على البرية منها حَسب، بل استمد بعض الصور البيانية من البيئة البحرية فيقول: «... وأن نُفوِّضَ إليهِ زعامةَ أبطالِها وتَقْدِمَةَ عساكِرِها، التي تَلْقَى البحر بأزخرَ من عُبابِه، والأرض بأثبتَ من جبالِها، وأنْ نَرميَ بَحرَها من مهابتِهِ بأهولَ من أمواجِه، وأمرَّ في لَهَواتِ ساكِنيهِ من أجاجِه»(٤)، فالجُيوشُ والعساكرُ في كثرتها أزخرُ من عباب البحر، وهذا الجيش في مهابته أهول من موج البحر، وأمرّ في لهوات ساكنيه من أجاجه، وهنا الصورة الأخيرة تعتمد على حاسة الذوق.

ومن الصور التي تعتمد على اللون قوله من الرسالة السابقة: «لتغدو عقائل أهلِهِ أرقاءَ سيفِهِ الأبيضِ وذابلِهِ ويتبرّأُ العدوُّ الأزرقَ من بني الأصفرِ خوفَ بأسِهِ الأحمر»، وهنا ذكر عدّة ألوان في هذه الصور البيانية من أبيض

(١) المصدر السابق، ٣٣٤:١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٢٩:١٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢٧١:١٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٢١١:١٢.

وأزرق وأحمر.

وقد يستمد بعض الصور البيانية من القرآن الكريم كقوله في وصف حصن: «وتتخيَّلُ الفكر صورةَ الترقِّي إليهِ ثم لا تَبلُغُها حتى تبلغَ القلوبُ الحناجرَ»[1] وهذه كناية عن الخوف والمشقة.

ومن الصور البيانية المستمدة من القرآن الكريم قوله: «... وأيقظه من طاعتِنا التي أوجبَها على الأمم لِما أبصربه رشده، ورأى قصده، وعلم به أنَّ الذي كان فيه كسَرابٍ بقيعَةٍ لَمْ يجدْهُ شيْئاً»[2] وقد يستمد بعض الصور من الحكم والأمثال الواردة في أقوال الشعراء السابقين كقوله: « ...ومتّ إلينا بذمة الإسلام وهي عندَنا أبرُّ الذمم، وطلبَ تقليدَه الحكمَ منّا من معاونه إذْ أرته النظراتُ الصادقةُ أنّه كان يحسَبُ الشَّحمَ فيمَنْ شحمُه وَرَمُ»[3].

وفي وصفه للجيوش الإسلامية يقول: «وتتابَعَتْ يَتلو بعضُها بعضاً تَتَابُعَ الغمامِ المُتراكِمِ، والموجِ المتلاطِمِ»[4] وهذه الصورة كما يبدو أنها مستمدة من البيئة الشامية المصرية.

ومن إخوانيّاته قوله: «المملوكُ يُنهي عِلْمَه بهذه النازلةِ التي فتَّتَتْ القلوبَ والأكبادَ»[5]. وهي كناية عن الحزن الشديد.

ومن استعارته قوله: «فَفُقِدَ منْ بينِ أترابِه وذَوَى عندما أينع غصنُ شَبابِه[6].

ومن التشخيص قوله: «والسُّيوفُ قَدْ أنِفَتْ مِنَ الغُمودِ فكادَتْ تَنْفُرُ مِنْ قربِها، والأسِنَّةُ قد ظَمِئتْ من مواردِ القلوبِ فتشَوَّقَتْ إلى الارْتِواءِ مِنْ قُلبِها والكُماةُ قد زأرَتْ كالليوثِ إذا دنت فرائسُها، والجيادُ قد مَرِحَتْ لما عوَّدَتْها من

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٧٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٦٧-٣٧٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩:٨٤.

(٦) المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٥.

الانتعال بجماجمِ الأبطالِ فوارسُها »[١] فالتشخيص وتعقيل مالا يعقل واضح في هذا النص القصير، فالسيوف تأنف وتنفر والأسنة تظمأ وتتشوق، والجياد تمرح، ومن صوره البيانية المستمدّة من البيئة قوله في وصف التتار: « ... وإنَّ التَّتارَ المخذولينَ أقبَلوا كالرِّمال، واصطفّوا كالجِبال، وتدفّقوا كالبِحار الزّواخِر، وتوالوا كالأمواجِ التي لا يُعرفُ لها الأولُ منَ الآخِرِ »[٢].

ومن الصور المستمدة من القرآن الكريم قوله: « ... وحَصَدَتْ منهم سيوفُنا المنصورَةُ ما يَخرُجُ عن وصفِ الواصِفِ ومزّقتْ بقيَّتَهم في الفلواتِ، فكانوا كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِه الرِّيحُ في يومٍ عاصِف »[٣].

والصور البيانية عنده متعددة المصادر فتراه يتكئ على التراث الأدبي القديم، ولكنه يحسن التصرف فيقول من رسالة له إلى مقدم سرّية كشف: « تتَسَنَّمُ الجِبالَ الصُّمَّ كالوعلِ، وإذا جارَتْها البُروقُ عَدَتْ وراءَها تمشي الهُوَيْنا كما يمشي الوَجِي الوحِلُ »[٤].

ومن الرسالة نفسها يقول: « وليكُنْ كالنَّجمِ في سُراه وبُعْدِ ذُراه، إنْ جَرى فكَسَهْمٍ، وإنْ خَطَرَ فكَوَهْمٍ، وإن طَلَبَ فكالليل الذي هُو مدرك، وإنْ طُلِبَ فكالجَنَّةِ التي لا يجِدُ ريحَها مُشْرِكٌ »[٥].

وهكذا تلمح أن الكاتب نوّع في مصادر الصور البيانية، فقد يستمدّها من القرآن الكريم، وقد يستمدّها من التراث الأدبي، وقد يستمدها من البيئة، وقد يستمدّها من الحديث الشريف، كما هو واضح من الصورة الأخيرة « الجنة التي لا يجد ريحها مشرك ».

وتراه يكثر من الصور البيانية المستمدّة من القرآن الكريم مثل قوله: « .... وتفصِمُ من قَصَدَ إطفاءَ ما أظهرَهُ الله من نورِها واقتطاعِ ما قَضَاه من

(١) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٣، الحموي، خزانة الأدب، ٢: ٤١٧.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٣١.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٣٣٢.

دوامِها وتجعلُ كلمةَ حَمَلَتِها هِيَ العُلْيا »[1].

وقد يستمد بعض صوره من التعاليم الدينية للأعداء كقوله: «وأظلَّتنا بوادرُ الفُتوحِ، وأظَلَّتْ على الأعداءِ سيوفَنا التي هي على من كَفَرَ بالله وكفرَ دعوةَ نوحٍ، وأيَّدَنا بالملائكةِ والرّوحِ على من جعلَ الواحدَ سُبْحانَهُ ثلاثةً فانْتَصَرَ بالأبِ والابنِ والرّوحِ»[2].

ومن الصور المستمدة من القرآن الكريم قوله: «.. وَجَعَلت حُماتَهم كَزَرْعٍ فَلاتِهم منها قائمٌ وحصيد، فأسلمَهُم الشّيطانُ ومرَّ وتركَهُم وفرَّ، وماكَرَهُم وما كَرَّ، وأعْلَمَهم أنَّ موعدَهم الساعةُ، والسّاعةُ أدْهى وأمَرّ، وأخْلَفَهم ما ضَمِنَ لهم من العَوْن وقال لهم إنِّي بَريءٌ منكم إنّي أرى مالا تَرَوْن»[3].

ومن الصور التي استمدها من التراث الأدبي قوله: «فمَنَحَ عدوَّه مَقاتِلَ رجالِه وأباحَهم كرائمَ مالِ جُنْدِه ومالِه، وخلّى لَهُم خَزائنَ سلاحِهِ التي أعَدَّها لقتالِهِم، فأضْحَتْ مُعَدَّةً لقِتالِه، فنَجا مَنْجى الحارثِ بنِ هِشام[4] وآبَ بسلامةٍ أعذَبَ منها لَوْ عَقَل شُرْبَ كأسِ الحِمامِ»[5].

ولقد استعان بخياله في رسم صور فنية متتالية وذلك من خلال رسالة له في الشوق يقول منها: «ما أمّ طفلٍ قذَفَها الزّمنُ العنيدُ في بعضِ البيدِ في أرضٍ موحِشَةِ المسالكِ قليلةِ السّالِك، قدْ لمعَ سرابُها وتوقّدتْ هِضابُها وصَرَخَ بُومُها، وَنَفَرَ ظَليمُها، وحَضَر سمُومُها، وغابَ نَسيمُها، فلمّا خافَتْ على ولَدِها الظمأ الهلاك أجلسَتْه إلى جنبِ كثيبٍ هُناك ثمَّ ذهبتْ في طلبِ الماءِ للغُلامِ لئلا يَقْضي عليه الأُوام، فانتهى بها المسيرُ إلى روضةٍ وغَديرٍ وآثارِ مَطِيٍّ بوارِك يدلّ على أنَّ الطريقَ هُنالِكَ، فَعادَتْ إلى ولدِها مُسرِعَةً وكلُّ أعضائها إليه عُيُونٌ

(١) المصدر السابق، ٣٦٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٧٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٧١.

(٤) حل بيت حسان بن ثابت
إنْ كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتِني فَنَجَوْتِ مَنْجى الحارثِ بنِ هِشامِ.
ثابت، حسّان، ديوانه، ٢١٤.

(٥) الحلبي، حسن التوسل، ٢٨١.

متطلعةً فلما شارفَتْ جنبَ الكثيبِ رأتْ ولدَها في فَمِ الذِّيب

باكثرَ منّي حَسْرَةً وتلهُّفــــاً وأعظمَ مِنّي حُرقَةً وتأسُّفـا

وأغزرَ دمعاً عندما قِيلَ لِيَ الذي كُلِفت بِهِ أضحى على البُعْدِ مزمعا[1]

فلقد رسم الكاتب صورة فنيّة لهذه المرأة وطفلها، وهذه الصورة كليّة بمعنى أنه يمكن تقسيمُها إلى صور جزئية، لكن الصورة بمجملها تبدو أجمل.

هذه الصورة التي تقوم على الحركة والصوت واللون، فالحركة في قوله: نفر ظليمها وفي قوله: حضر سمومها وفي عودة المرأة مسرعة، وفي نظراتها وهي عائدة، والصوت: في صراخ البوم، واللون في لمعان السراب.

ويسمى هذا الأسلوب بالتفريع وهو ضد التأصيل، ويصدّر المتكلم كلامه باسم منفي، ثمّ يصف هذا الاسم المنفي بأحسن أوصافه المناسبة للمقام، ثم يجعله أصلاً يفرّع منه جملةً من جار ومجرور متعلّقة به تعلق مدح أو هجاء، أو فخر أو نسيب أو غير ذلك، ثم يخبر عن الاسم بأفعل التفضيل، ثم يدخل مِن على المقصود بالمدح أو الذم ويعلق المجرور بأفعل التفضيل، فتحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن وبين الاسم الداخل عليه ما النافية، لأن حرف النفي قد نفى الأفضلية، فتبقى المساواة بين ذلك، كأن تقول: ما الزهر إذا بكى الغمام فضحك بأحسن من أخلاق زيد[2].

---

(١) ابن الحموي، خزانة الأدب، ٢: ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢: ٣٨٥-٣٨٦.

الطباق

الطباق: هو الجمع بين المعنى وضده، وترى طائفة أنه اشتراك المعنيين المتضادين في لفظ واحد، ويسمى أحياناً المطابقة والتضاد والتكافؤ.

وقد مُيِّز التكافؤ بأنه الجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل، فلا يجيء الاسم مع الفعل، ولا الفعل مع الاسم، وهذا رأي الأخفش، بينما يرى ابن أبي الأصبع المصري أن الطباق على ضربين: فما جاء بألفاظ الحقيقة سمّي طباقاً، وما جاء بألفاظ المجاز سميّ تكافؤاً.

والطباق يقسم إلى قسمين: إيجاب إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى، وطباق سلب إذا تحقّق التضادُ بوجود اللفظِ ومنفيّه في الكلام[١].

وتظهر هذه السمة الفنية في رسائل الشهاب محمود الحلبي على اختلاف موضوعاتها وأغراضها، فتظهر في رسائله الإخوانية وشبه الرسميّة ومن ذلك قوله في مقدمة تهنئة: «... وتنفيذ أوامره في الخاصّ والعامّ»[٢].

وقوله في التهنئة نفسها: «.. وسعيُه في الدنيا والآخرةِ سعياً مشكوراً»[٣]، وقوله من التهنئة نفسها: «... ويلاحِظَ كلاً منهم إن غابَ أو حضر».

فهذه المقتطفات السابقة على قصرها، لاتخلو من صور الطباق فقد طابق الكاتب بين لفظي: الخاصّ والعامّ، وبين لفظي: الدنيا والآخرة، وبين لفظي: غاب وحضر، وجاء الطباق مراعياً التقابل فهو في الأوّل: بين اسمين، وفي الثاني بين اسمين وفي الثالث بين فعلين.

ومن تهنئة له بقدومٍ من سفرٍ يقول: «لا زالت الأعينُ قريرةً برؤيتِه وقلوبُ الإخوانِ قارّةً بمشاهدتِه، والأوجُهُ وسيمةً، والنِّعمُ الظاعنةُ مقيمةً»[٤].

ومن تهنئة بعيدِ الفطرِ يقول: «فإذا كان المولى قد زُهيَ على أبناءِ جنسِه،

---

(١) الحلبي، حسن التوسل، ١٩٩-٢٠٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨-١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٩: ٤٦.

ويومُ العيدِ على غدِهِ وأمسِهِ، فقد صارَ كلٌّ منكُما إلى صاحبِهِ يتقرَّبُ»[1].

وهنا طابق الكاتب بين لفظي: غده، وأمسه. ومن تهنئة له بزواج يقول: «جعل الله الخيرَةَ فيما يَذَرُهُ ويأتيه»[2] فقد طابق بين لفظي: يذره ويأتيه، ومن التهنئة نفسها يقول: «فنحمدُ الله على هذه الوصلة سراً وجهراً» ويلاحظ أنه طابق بين لفظي: سراً وجهراً، ومن تعزية له بابن يقول: «رزقَه الله ثباتاً على رزيّتِهِ وصبراً وجعلَ لَهُ معَ كلِّ عُسرٍ يُسراً، وأبقاهُ مفدّى بالأنفس والنفائس»[3]. فالطباق بين لفظي: عسر ويسر.

ومن التعزية نفسها يقول: «...وإنَّ المنيَّةَ تشملُ الصغيرَ والكبيرَ والجليلَ والحقيرَ والغنيَّ والفقيرَ» وهنا طابق الكاتب بين لفظي: الصغير والكبير، وبين لفظي: الجليل والحقير، وبين لفظي: الغني والفقير.

وتبرز هذه الظاهرة الفنية في الطرديات وبخاصة في رسالته المشهورة في صيد البندق:« الرياضة- أطالَ الله بقاءَ الجنابِ الفُلانيِّ، وجعلَ حُبَّه كقلبِ عدوِّهِ واجباً وسعدَه كوصف عبدِهِ للمسارِّ جالباً، وللمضارِّ حاجِباً»[4] وهنا طابق الكاتب بين لفظي: المسارّ والمضارّ.

وفي حديثه عن صحبه من الرسالة نفسها يقول « يؤثرون السَّهَرَ على النوم، والليلةَ على اليَوْم والبندقَ على السِّهام والوحدةَ على الالتئام» وهنا طابق الكاتب بين لفظي: الليلة واليوم، والوحدة والالتئام. ومن الرسالة نفسها يقول: «ولمّا عُدنا من الصيدِ الذي اتّصلَ بنا حديثُه وشُرِحَ له قديمُ أمرِه وحديثُه تُقنا إلى أنْ نشفعَ صيدَ السَّوانِحِ برمْيِ الصَّوادِحِ وأن نفعلَ في الطَّيرِ الجوانحِ بأهِلَّة القِسِيِّ ما تفعلُ الجوارحُ تفضيلاً لملازمة الارتحالِ على الإقامةِ في الرِّحال» وقد طابق بين لفظي: حديث وقديم، وبين لفظي: الارتحال والإقامة.

وتظهر هذه السمة في الرسائل الديوانية مثل قوله من رسالة بعثها إلى

(١) المصدر السابق، ٩: ٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٩: ٥٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٩: ٨٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٤: ٣٢٨-٣٤٠، الحلبي، حسن التوسل، ٣٥٣.

متملك سيس: «... وذلك بعد أنْ أقاموا مُدَّةً يَشتَرُون المخادَعَةَ بالموادَعَةِ، ويُسِرّون المصارمةَ في المسالمة، ويُظهرون في الظاهرِ أموراً ويُدبرّون في الباطنِ أموراً»[١].

ومن الرسالة نفسها يقول: «ونَسلك بهم حِلْمَ مَنْ في أطرافِ البلادِ من رعايانا الذين هم في قبضَتِنا نزحوا وأقاموا»[٢].

ويلاحظ أنّ الكاتبَ قد طابق في المقتطفين السابقين بين لفظي: يسرّون ويظهرون، وبين لفظي: الظاهر والباطن وبين لفظي: نزحوا وأقاموا.

ومن رسالة كتبها في جواب ابن الأحمر صاحب غرناطة يقول: «...ويُخيّلُ للحيِّ منهم أنَّ وطنَه كالدُّنيا التي ليس للميِّت إليها رُجوع»[٣] وهنا طابق الكاتب بين لفظي: الحيّ والميت.

وتبرز هذه السمة الفنية في رسائله الوصفية فمن وصفه لجواد يقول: «قد ألبَسَهُ الليل بُرْدَه، وأطلع من عينيْه سَعْدَه، يظُنُّ منْ نَظَرَ إلى سوَادِ طُرَّتِه وبياضِ حُجولِه وغُرَّتِه، أنَّه توَهَّمَ النَّهارَ نَهْراً فَخاضَه»[٤].

ويلاحظ أن الكاتب طابق بين لفظي: سواد وبياض. ومن نسخة عهد الملك المنصور لاجين يقول: «.... ومفوّض أمر هذا الخلق إلى من أوْدَعَه سرَّ رأفتِه في محبتِه ومرادَ نِقْمَتِه في مُراده»[٥].

وهنا طابق الكاتب بين لفظي محبته، ونقمته ومن الرسالة نفسها يقول: «...وجاعِلُ مُلْكِ الإسلامِ مِنْ حقوقِ مَنْ إذا عَدَّ أهلُ الأرضِ على اجتماعِهِم كان هو المتعيّنَ على انفرادِه» وهنا طابق بين لفظي: اجتماع وانفراد ومنها يقول: «...وجمع قلوبَ أهل الإسلام على حبِّه وفرّقَ أعداءَ الدّين خوفُ حربه»، فالطباق بين لفظي: جمع وفرّق. ومنها يقول: «فما توهَّموا في أمرِ الإسلامِ الاختلافَ حتّى تحقّقوا بحمدِ اللهِ ويُمْنِ أيامه الوفاق»، فقد طابق بين لفظي: الاختلاف والوفاق.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٥٩-٢٦٢.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٤١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٤٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٥٣.

ومن الرسالة نفسها يقول: «فإنّ اتفاقَ العلماءِ حُجّةٌ واختلافَهم رحمةٌ»، وهنا طابق بين لفظي: اتّفاق واختلاف.

ومن الرسالة نفسها يقول: «... ويسأله أن يصلّيَ عليه صلاةً تفتَحُ لهُ في الدُّنيا إلى العصمةِ طريقاً، وتجعلُه في الأخرى مَعَه، ومعَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهِم من آبائه الشهداءِ والصالحين»[1]. فالطباق في النص السابق بين لفظي: الدنيا والأخرى، ويظهر أن الشهاب محمود الحلبي لم يسرف في استعمال الطباق بل جاء الطباق عنده عفو الخاطر غيرَ متكلّف ولا مستكرَه، لذلك لا غرابة أن نجد أن طباق الإيجاب هو الغالب على طباقه، وذلك لميله إلى السهولة وبعده عن التكلف.

ومن أحد تقاليده يقول: «أمرنا جيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خلالَ تلكَ الممالكِ، وداسَتْ حوافرُ خيلِها ما هنالِكَ، وساوَتْ في عموم القَتلِ والأسرِ بينَ العبدِ والحرّ، والمملوكِ والمالِكِ»[2].

وهنا طابق الكاتب في هذا النص القصير بين لفظي: العبد والحرّ وبين لفظي: المملوك والمالك.

ومن التقليد نفسه يقول: «...واستمرار المناصحة في السرّ والعَلَن واجتناب المخادعةِ ما ظهَرَ منها وما بَطَن»[3]، وهنا طابق الكاتب بين لفظي: السر والعلن وبين لفظي: ظهر وبطن.

ومن تقليد آخر يقول: «وتتابُع أمدادِ جيوشِنا التي تنوء بحَملِها كواهلُ المشارقِ وغواربُ المغاربِ»[4]، وهنا طابق الكاتب بين لفظي: المشارق والمغارب.

ومن نسخة مرسوم بمسامحةٍ ببواقي دمشق وأعمالها يقول: «.... وتحثّ على بثّ نعمته التي غمرت كلَّ حيٍّ على اجتماعه وسعتَ إلى كل حيّ على انفراده وتَحُضُّ على ما ألهَمَنا مِن رأفةٍ بمنْ قابَلَه بتوحيدهِ وشدّةٍ على مَنْ جاهَرَهُ

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٥٤-٥٥.

(٢) الحلبي، حسن التوسل، ٣٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣٧٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٧٥.

بعناده»[1]، فقد طابق الكاتب بين لفظي: اجتماعه وانفراده وبين لفظي: رأفة وشدة، ومن المرسوم نفسه يقول: «ورَزَقنا مِنَ النَّصرِ على أعدائهِ ما أعزَّ المسلمينَ وأدالهم، وأذلَّ المشركينَ وأذالهم»[2]وهنا طابق الكاتب بين لفظي: أعز وأذل وبين لفظي: المسلمين والمشركين.

وهكذا نلمح أنَّ الطباقَ سِمةٌ فنيّةٌ قلّما تخلو منه رسالة للكاتب، إلا أنّه لمْ يُسرف في استخدامه إسرافَه في استخدام السجع والازدواج.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٢٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٣: ٢٧.

الخاتمــــة

تضافرت عدة عوامل أدّت إلى انتهاء دولة الأيّوبيّين، منها: تكالب الأعداء من الخارج، ومنها النزاعات والخلافات بين الأيّوبيّين أنفسهم، ومنها استكثارهم من شراء المماليك، وكانت الدولة الأيّوبيّة بمثابة حركة تطهير ديني، قامت بإنجازات عظيمة أهمها: استرداد بيت المقدس سنة٥٨٣هـ وما أن انتهت دولة الأيّوبيّين حتى جاءت دولة المماليك بقيادة شجرة الدر، وقد تميّز عصر المماليك بعدم الاستقرار والتنازع بين المماليك أنفسهم، على الرغم من أن البلاد كانت تواجه خطرين جسيمين تمثّلا في الغزوين: الصليبيّ والتتريّ، إلا أنّهم مع كل هذه الظروف استطاعوا أن يخلّصوا البلاد من هذين الغزوين، بما يسّر الله لهم من قادة عظام، أمثال: قطز الذي هزم التتار في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ والظاهر بيبرس الذي نقل الخلافة من بغداد إلى القاهرة، والذي أحرز انتصارات على التتار على ضفاف الفرات، والمنصور قلاوون الذي صدّ التتار عن حلب وهزمهم قرب حمص، وداهم الفرنجة في الساحل، وانتزع منهم حصن المرقب، والأشرف خليل الذي حاصر عكا وافتتحها.

خلّد الشهاب محمود الحلبي هذه الانتصارات، وامتدح السلاطين، وقد كان على علاقة طيّبة معهم ومع نوّابهم بخاصة أبي الفداء الذي أصبح ملكاً على حماة سنة ٧٢٠هـ.

واكب الشهاب محمود الحلبي أحداث هذه الدولة مذ كان طفلاً، فقد ولد قبل قيام هذه الدولة بأعوام، وبالتحديد سنة ٦٤٤هـ في مدينة دمشق ، وكان والده شيخاً فَعَنى بتربيته، وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والعلماء بعد أن حفظ القرآن صبياً، وأخذ الأدب عن ابن الظهير الأربليّ حتى فاق الأقران، وقد جمع من الصفات الخُلقية الحسنة الشيءَ الكثير ، فكان متواضعاً محباً للخير مواظباً على التلاوة، وكانت له مشاركة في علم الحديث، وكان من أكبر كتّاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة، وكان من الكَمَلَة، لأنّه كان

يقوم بالأدب علماً وعملاً في النظم والنثر ومعرفة بتراجم أهل عصره، وممن تقدّمهم على اختلاف طبقاتهم، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة . وكان نابهاً عُيّن لقضاء الحنابلة وهو صغير السنّ، وشهد بتفوّقه في الكتابة بعض كتّاب عصره أمثال ابن نباتة.

اقتفى أبناء الشهاب محمود الحلبي أثره، فبرعوا في الكتابة، وعملوا في دواوين الإنشاء، وكذلك أحفادُه، فكانت أسرته صاحبة مكانة عظيمة، عُرفت بالعلم والكتابة والأخلاق الحميدة.

توفي الشهاب محمود الحلبي سنة ٧٢٥هـ ورثاه الشعراء بقصائد جميلة، منهم: صلاح الدين الصفديّ، وابن نباتة الشاعر، وخلّف وراءَه كمّاً هائلاً من القصائد المطولة، والرسائل المتعددّة الأغراض ، ومن مؤلفاته:«حسن التوسل إلى صناعة الترسل» و «أهنى المنائح في أسنى المدائح» وهو ما أفرده من شعره في المدائح النبويّة، ومقامة العشاق وهي مفقودة، ومن خلال دراسة متأنّية لكتابه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» بدا أنّه متأثر بعبدالحميد الكاتب، الذي يُعَدّ من أوائل الذين سمّوا هذه الحرفة صناعة، وكان تأثُّره برسالته إلى الكُتّاب واضحاً وبخاصة في الجوانب الثقافية التي ينبغي أن يلمّ بها الكاتب، وهي تمثل الأساس الثقافي الذي يصلح أن يكون متكأً لمن أراد مزاولة هذه الصناعة، وتأثر كذلك بابن منجب الصيرفيّ في كتابه: « قانون ديوان الرسائل» وتأثر بابن الأثير في كتابه: «المثل السائر» الذي يُعدّ مصدراً من مصادر كِتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل».

ولايُعدّ هذا التأثر عيباً في حق الشهاب محمود الحلبي، فقد جاء متأخّراً عنهم من الناحية الزمنية، وطبيعي أن يطّلع على آرائهم، ويلتقي معهم في أشياء، ويخالفهم في أخرى، إلا أنّه يؤخذ عليه في كتابه «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» أنه كان يورد كثيراً من الأمثلة الشعريّة علماً أنّ موضوع

الكتاب في الترسّل وليس في الشعر.

ازدهرت الفنون النثرية في هذا العصر، نتيجة للأحداث الجسيمة التي عصفت بالمنطقة في هذه الفترة، ووجد الكتّاب أنّ من واجبهم أن يقفوا في وجه هذه التحديات، ثم كان لديوان الإنشاء دورٌ واضح في ازدهار وتقدّم هذه الفنون.

استطاع الشهاب محمود الحلبي أن يعكس هذا الواقع بجميع جوانبه الإدارية، والسياسية، والحربية، والاجتماعية، من خلال رسائله التي تمّ تصنيفها إلى: رسائل ديوانية اشتملت على كتب التقاليد، والمراسيم، والتفاويض، والعهود، ورسائل حربيّة اشتملت على وصف العزائم، وقوّة الهمم، وشدّة الحميّة للدين، وكثرة العساكر والجيوش، وسرعة الحركة، ومعاجلة العدو وتخيّل أسباب النصر، والوثوق بعوائد الله في الظفر، ورسائل إخوانية وشبه رسمية اشتملت على كتب التهاني بمختلف المناسبات، والشفاعات، والشوق، وكان للشهاب محمود الحلبي من هذا النوع الشيء الكثير الذي يدفع الدارس إلى القول: إنّ الشهاب محمود الحلبي كان على علاقة قويّة وطيّبة مع القادة والأمراء والوجهاء في هذا المجتمع. ورسائل طرديات اشتملت على وصف الخيل، والجوارح، والسلاح، وآلات الحرب، وأنواع الرياضات من الصيد، ورمي البندق، ولعب الكرة، ورسائل طريفة في الخواطر التأمّليّة اشتملت على تخيّل أمور يقلّ وقوعها كرسالة إلى شخص تتضمّن مخاطبته في تزويج أمّه، أو فيما تُمتحن فيه قوّة القريحة ويُعلم به استعداد الفكر، وما يُعمل رياضة للخاطر، ويُعتبر به تصرّف الفطنة، ويُسبَر به غورَ الذهن، وإجازات علميّة اشتملت على الإجازة بالفتيا، والإجازة بعراضة الكتب، وكان للشهاب محمود الحلبي إجازات منها: إجازة للصفدي، وردت في كتاب: «أعيان العصر وأعوان النصر».

تميّزت رسائله بمجموعة من الخصائص الفنيّة منها الإكثار من الجمل الدُّعائية والمعترضة، التي غالباً ما يعبّر فيها عن المخاطب بضمير الغائب، وشاعت عنده ظاهرة التنويع بين الشعر والنثر، وظاهرة حل معقود الشعر،

وظاهرة الاقتباس والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وضمّن نثره الأمثال والمصطلحات اللغوية والنحوية، واتّسمت ألفاظه بالوضوح، وكان يعمد إلى الألفاظ الجزلة في الرسائل الحربيّة، وإلى الألفاظ الرقيقة في الموضوعات ذات الاتجاه الاجتماعي كالتهاني والتعازي والشوق، إلا أنّه كان يستخدم الألفاظ الغريبة أحياناً بدافع التزام السجع، وأحياناً اخرى بدافع تضمين رسائله أبيات شعريّة من الشعر الجاهلي وغيره، وكثر في رسائله استعمال السجع والازدواج والجناس، وظهر السجع والازدواج بصورة أوضح. وفي مجال التعبير عن المعاني اعتمد على الخيال والصور البيانية، وكان الخيال مرتكزاً أساسياً عنده بخاصة في الرسائل التأمّلية، وشاعت في نثره الصور البيانية من تشابيه واستعارات وكنايات، وكان يستمد صوره من البيئة الشاميّة المصريّة، ومن القرآن الكريم، والحديث النبوي، والتراث الأدبي والتاريخي، واعتمد على الصورة بأنواعها الحركية واللونية والذوقية أحياناً، واعتمد أيضاً على الطباق، وإن بدا بصورة أقل من المحسنات البديعية الأخرى كالسجع والازدواج.

ABSTRACT

Al-Shihab Mahmoud Al- Halabi (644-725, A. H):

His Life and His Prose

Al- Halabi was one of the leading poets of his age, his poetry documented the victories of sultans against crusaders and Titarians. He worked in the Diwan of correspondence about half acentury.

Literary works:" The well potition to the making of correspondence". He explained to the new generation the methodology and the ways of how to be agood writer.

He was influenced by Abdel- Hamid Al- Kateb, Ibn Munjib Al-Sairafi, and Ibn Al- Athir. He wrote many epistels which were classified into the following categories:

1- Diwanic correspondence 2- Semi- Official Messages

3-Speculative writings 4- Hunting literature.

5- Scientific licences (Teaching Certificates)

Those epistles had been charctterized by the following:-

A- Abundance of prayer sentences, and parenthetic sentences.

B-Variability between porety and prose.

C-Quotations from the verses of Holy Quran and Hadith.

D- They include some linguistic terminology, Syntax, and Proverbs.

E-Using ryhme sentences, dual rhymes, homophones abundance of imagery, using familiar vocabulary and antynomy.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

أ- المخطوط منها:

١- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٩٣هـ/١٣٦١م) أعيان العصر وأعوان النصر، مكتبة السليمانية، استانبول، طبع بالتصوير عن مخطوط رقم (١٠٨٩).

٢- العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مكتبة السليمانية استانبول، طبع بالتصوير عن مخطوط رقم (٣٤٢٥).

ب- المطبوع منها:

٣- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.

٤- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين، نصر الله بن محمد بن عبدالكريم، (ت ٦٣٧هـ)، المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٠م.

٥- امرؤ القيس، جندح بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، طبعه وصححه: مصطفى عبد الشافي، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٦- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، (ت٢٥٦هـ/٨٦٧م) صحيح البخاري، نقد: محمد أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٨- البغدادي، إسماعيل باشا، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٩- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
أ- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م.
ب- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين والدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤م.

١٠- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام ، تحقيق: الصولي، خلف رشيد نعمان، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، بدون تاريخ.

١١- ثابت، حسّان، ديوان حسّان بن ثابت، شرح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٢- الجرجاني، عبدالقاهر، (ت٤٧١هـ/١٠٧٩م) أسرار البلاغة، طبعة: محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

١٣- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٤- ابن حجّة الحموي، تقي الدين أبو بكر، (ت٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م) خزانة الأدب، دار مكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٩١م.

١٥- الحلبي، شهاب الدين محمود الحلبي، (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والأعلام، ١٩٨٠م.

١٦- ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت. ط٤، ١٩٨١م.

١٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبي هاجر السعيدين بسيوني- زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٧م.

١٨- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط٤، ١٩٧٢م.

١٩- الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلّقات السبع، دار القلم، بيروت- لبنان، بدون تاريخ.

٢٠- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

٢١- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٢- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٣م.

٢٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م)، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٤- ابن طباطبا، محمد بن أحمد، (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م)، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٢٥- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٢٦- العقيلي، بهاء الدين عبدالله بن عقيل(ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط١٤، مكتبة السعادة بمصر، ١٩٦٤م.

٢٧-ابن العماد الحنبلي، عبدالحي،(ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة جديدة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٢٨-العمري، أحمد بن يحيى، (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٩- القلقشندي، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت- لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٠- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٤م.

٣١- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية، بيروت-لبنان، بدون تاريخ.

٣٢- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، صحيح مسلم، وقف على طبعه: محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١١، ١٩٥٥م.

٣٣- المقريزي، أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
أ- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٤٠.
ب- السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م.
جـ- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة المثنّى، بغداد، بلا تاريخ.

٣٤- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (٧١١هـ/١٣١٢م) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٣٥- ابن نباتة، جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/١٣١٢م)، ديوان ابن نباتة، المطبعة اليوسفية بالقاهرة، ١٩٥٨م.

٣٦- النسائي، الحافظ عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، (ت٣٠٣هـ/٩١٦م)، سنن النسائي، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٣٧- النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، دمشق، ١٩٨٨م.

٣٨- النويري، أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.

٣٩- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، الحموي، (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين شيال، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م.

٤٠- ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي، الحموي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

ثانياً: المراجع

٤١- باشا، عمر موسى

أ- أدب الدول المتتابعة، ط١، دار الفكر الحديث، ١٩٦٧م.

ب- ابن نباتة المصري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

٤٢- الجويني، مصطفى الصاوي، ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري، الهيئة العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٤٣- رشيد، ناظم، في أدب العصور المتأخرة ، منشورات مكتبة بسام-الموصل، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.

٤٤- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٩م.

٤٥- الزيّات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٤٦- زيدان، جرجي، مؤلفات جرجي زيدان الكاملة، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤٧- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، ١٩٧٠م.

٤٨- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٥م.

٤٩- ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ١٩٨٤م.

٥٠- عاشور، سعيد عبدالفتاح، دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك، مكتبة النهضة بمصر، ١٩٥٩م.

٥١- عباس، إحسان، عبدالحميد الكاتب، دار الشروق، ط١، ١٩٨٨م.

٥٢- عبدالمهدي، عبدالجليل، بيت المقدس، دار البشير، ١٩٨٩م.

٥٣- القيسي، فايز عبدالنبي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥٤- كحاله، عمر رضا، أعلام النساء، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٩٥٩م.

٥٥- هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

ثالثاً: المقالات

مجلة «المجلة» عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط، ١٩٦٧م، شوقي ضيف.